مدخل إلى
علم النفس الاجتماعى

أ.د. محمد إبراهيم عيد

رئيس قسم الصحة النفسية

كلية التربية – جامعة عين شمس

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد – القاهرة

أسم الكتـــاب: مدخل الي علم النفس الاجتماعي
أسم المؤلف: د/ محمد ابراهيم عيد
اسم الناشر: مكتبة الانجلو المصرية
أسم الطـــابع: مطبعة محمد عبد الكريم حسان
رقـــم الايـــداع: 5747 لسنة 2005
الترقيم الدولي: I-S-B-N 977-05-2127-2

مقدمة الطبعة الثانية

فى هذه الطبعة أضيف إلى الكتاب بحثان أساسيان، لهما اتصال وثيق بما نعيشه من صراع هويات ثقافية وإرهاب ومحاولات مخلصة لترسيخ التسامح الثقافى فى مواجهة التعصب والدوجماطيقية .

يدور البحث الأول : حول الهوية الثقافية المصرية ، باعتبارها هوية ثقافية تنفرد بخصائص لصيقة بها تميزها عن غيرها من الثقافات، وهذه الخصائص راسخة، بيد أنها غير جامدة أو مغلقة ، نسبية غير مطلقة ، وهذا سر قدرتها على التجدد والاستمرارية.

ويدور البحث الثانى : حول التسامح الثقافى ، الذى يعنى أن تعدد الآراء أمر مشروع ، وأن التباين فى الفكر يضفى على الأشياء والأفكار معنى وثراءً ، وأن حق التباين جوهرى فى حياة الناس ، ففى التباين إقرار بتفرد الإنسان واختلافه وتميزه.

مقدمة

هذه مجموعة من المحاضرات ، تتضمن بعض الظواهر النفس اجتماعية ، فى علم النفس الاجتماعى ، الذى بزغ كعلم مستقل ، استجابة لأزمة الإنسان المعاصر ، ولهذا حرصنا أن تكون هذه المحاضرات معبرة - إلى حد كبير - عن مظاهر هذه الأزمة ، التى يتطلب فهمها ، فهم ديناميات العمليات النفسية والاجتماعية العاملة داخل الفرد وداخل المجتمع.

فى الفصل الأول : ناقشنا القصد من علم النفس الاجتماعى ، ونشأته ومجالاته، وما يرتبط به من علوم أخرى ، وما ينطوى عليه من أهمية فى عصر تلاشت فيه المسافات بين الأمم ، وعاش معاناة حربين عالميتين كبيرتين ومن بعدهما حروب شتى فى أنحاء كثيرة من العالم ، وتسلطت على مقاديره مذاهب فلسفية وفكرية اتسمت بالكلية والشمول ، وايديولوجيات عقائدية اتسمت بالتسلط وجمود الفكر وثنائية التفكير القطعى ، ورغم كل ذلك تميز هذا العصر بتفجر معرفى متواصل استلزمته ضرورات الحرب وضرورات السلام

وفى الثمانينيات اجتاحت رياح التغيير الاتحاد السوفيتى، وتحطم حائط برلين ، واندلعت الثورة فى وسط وشرق أوربا مطالبة بالحرية والديمقراطية والاقتصاد الحر .. وبدا واضحاً أن مشاكل عالمية غير تقليدية تحتاج إلى حلول غير تقليدية ، وأن مفاهيم جديدة بزغت تعبر عن طبيعة هذا العصر ، تمثلت فى العولمة والكونية والاعتماد المتبادل.

ويحتوى هذا الفصل على مقدمة فى مناهج البحث ، الغرض منها تأكيد أن التطور العلمى المعاصر ، جاء نتيجة لتراكم جهد إنسانى غير تاريخ الإنسان ، وبلغ ذروته فى عصر التنوير ، الذى يعتبر عصرنا ثمرة لجهود مفكريه وعلمائه.

ثم عرضنا لأهم النظريات التى يسترشد بها علم النفس الاجتماعى فى فهم وتفسير وتأويل الظواهر الاجتماعية المختلفة ، وتتمثل هذه النظريات فى التحليل النفسى ونظريات التعلم والنظرية الجينية والمعرفية

ويدور الفصل الثانى : حول الجماعة ودينامياتها ، وما ينطوى عليه البحث فى الجماعة من مراحل ، وأنواع الجماعات ، وأهم العوامل التى تؤدى إلى تماسك الجماعة

وتلك التى تؤدى إلى انهيارها ، والقصد من الروح المعنوية وجاذبية الجماعة لأفرادها.

الفصل الثالث : يناقش الاتجاهات ، وخصائصها وكيفية تكوينها ، وما تنطوى عليه من وظائف ، وكيفية قياسها ، وطرق تغييرها ولا سيما تلك التى تتصف بالتعصب وجمود الفكر وضيق الأفق ، كالاتجاهات الدوجماطيقية والتسلطية.

الفصل الرابع : ويدور حول التنشئة الاجتماعية ، ومعنى الثقافة وعلاقة الوراثة والبيئة بالتنشئة الاجتماعية ، ودور التعلم فى هذه العملية ، وما تنطوى عليه من وسائل.

الفصل الخامس : ويدور حول ظاهرة القيادة ونظرياتها والسمات المميزة للقادة وأنواعها .

الفصل السادس : ويتناول السلوك الاجتماعى بين الوراثة والبيئة ، والقيم كمعايير لما ينبغى أن يكون عليه السلوك ، وأخيراً الإشاعة ، من حيث معناها ، والفرق بين الإشاعة والأسطورة ، والإشاعة عبر التاريخ وأنواعها المتباينة ، وقدرتها على تقويض الأمن القومى إذا ما سادت وانتشرت بغير أدلة صدق أو يقين .

الفصل السابع : ويدور حول اغتراب الشباب ، والقصد من الاغتراب فى استخداماته المتعددة . وما يمكن أن يكن عليه الاغتراب فى سلوك الشباب ، وكيفية قياسه كظاهرة إنسانية ، إضافة إلى قياس ظاهرة الأنوميا وانهيار البناء الاجتماعى ، حيث غيبة المعايير.

وفى هذا الفصل أيضاً ناقشنا أزمة التطرف وجذوره وأبعاده النفسية والاجتماعية والتاريخية وكيف يمكن تجاوزه.

ذلك هو الكتاب ، وتلك هى فصوله.

والله من وراء القصد

إبراهيم عيد

الفصل الأول

* تعريف علم النفس الاجتماعى .
* النظريات التى يسترشد بها علم النفس الاجتماعى.
* علم النفس الاجتماعى والعلوم الأخرى .
* نشأة علم النفس الاجتماعى .
* أهمية دراسة علم النفس الاجتماعى.
* مقدمة فى مناهج البحث .
* مناهج البحث فى علم النفس الاجتماعى .

علم النفس الاجتماعى
تعريفه ونشأته ومجاله

الفصل الأول

علم النفس الاجتماعى

تعريفه ونشأته ومجـــاله

ثمة إجماع بين علماء النفس الاجتماعى على أنه العلم الذى يبحث فى السلوك الاجتماعى للفرد ، وفى مكونات هذا السلوك وتوجهاته، وفى مظاهره من حيث علاقة الفرد بنفسه ، وعلاقته بالآخرين ، وبالمجتمع الذى يعيش فيه ، وفى استجاباته المتعددة للمؤثرات التى تحدثها علاقاته بالآخرين ، وطريقة تفاعله معهم على أرضية من واقع اجتماعى له خصائصه التى تميزه ، وقيمه التى يعتز بها ، ومبادئه التى يعيش فى كنفها ، وثقافته التى تتمايز عن غيرها من الثقافات.

ولهذا ينصب اهتمام علم النفس الاجتماعى على دراسة الفرد فى موقف الجماعة ، ودراسة سلوكه وما ينطوى عليه من ديناميات وأفكار فى عصر تلاشت فيه المسافات بين الأمم ، وأصبحت تهيمن عليه مفاهيم الكوكبية والكونية والاعتماد المتبادل بين الأمم ، ويموج بتيارات عنف وإرهاب وأفكار مغلقة تبلغ حد (الدوجما) فيما تنشده من غايات وأهداف ، وجاوز فيه التطور المسافات الزمنية بفضل العلم والتكنولوجيا والتفجر العلمى المتواصل ، الذى أتاح للإنسان أن يخرج من الأرض بجاذبيتها إلى كواكب السماء ، وأن يقطع أشواطاً هائلة الإنجاز فى مجالات الزراعة والصناعة وما بعد الصناعة والهندسة الوراثية والحواسب الآلية والإنترنت .. إلخ.

وهذا التطور يعتمد على الفرد من حيث هو إنسان ، ومن حيث هو فرد ضمن جماعة ، والجماعة من حيث هى وحدة ضمن مجتمع ، والمجتمع ضمن أمة ، والأمة ضمن عالم له طابعه الذى يميزه عن كافة العصور السالفة :

ولهذا يهتم علم النفس الاجتماعى بالدراسة العلمية للعملية الاجتماعية ، وما يكمن وراءها من محددات شخصية وراثية ، ومكونات نفسية واجتماعية ، فالإنسان بطبيعته كائن اجتماعى ، يستحيل عليه العيش بغير جماعة ، ودون مؤثرات تتفاعل مع مكوناته الداخلية ومحدداته الوراثية.

يقول البورت فى مفتتح كتابة « الخلفية التاريخية لعلم النفس الاجتماعى الحديث » ١٩٦٨ The Historical Background of Modern Social Psychology

«إن موضوع علم النفس الاجتماعى يكمن فى محاولة فهم وتفسير كيف أن أفكار ومشاعر وسلوك الأفراد تتأثر بالوجود الفعلى أو التصورى للآخرين (ص ٢) ».

فالمجتمع كائن ومتأصل فى صلب تكوين الإنسان ، ومؤثر فى كافة الأنشطة الحياتية له ، حتى حينما يكون الفرد وحيداً مع نفسه ، فإن الطريقة التى بها يفكر ويتصرف تتأثر بوجود الآخر ، سواء كان هذا الوجود قائماً بالفعل أو متصوراً وقائماً فى عالم من الخيال .

وبعبارة أخرى .. فإن موضوع علم النفس الاجتماعى يكمن فى تلك العلاقة الأبدية بين الأنا والآخر .

وهذه العلاقة اتسع مجالها بعد ثورة المعلوماتىInformatics... وثورة الاتصالات والمواصلات ، وانفتاح العالم على بعضه بفضل التقدم العلمى والتكنولوجى لدرجة أصبحت فيها العلاقات بين الناس ذات طابع كوكبى ، فأنت تتأثر بما يحدث فى الطرف الشمالى من الأرض ، وأبناء الطرف الشمالى يتأثرون بما يحدث لأبناء الجنوب.

ولعل من بين أهم الاهتمامات التى يركز عليها المشتغلون بعلم النفس الاجتماعى العلاقات البين شخصية ، والتفاعلات القائمة بين الأفراد Interactions والتواصل اللفظى وغير اللفظى القائم بين الأنا والآخر Verbal and nonverbal communication .

ويؤكد (1988, Schanedier) على المنحنى نفسه الذى قدمه البورت ، وهو أن علم النفس الاجتماعى يمكن تعريفه بوصفه دراسة كيف يفكر ويقيم ويستجيب الناس لخبراتهم الاجتماعية .. (ص ٤)

فالمجتمع قائم فى الفرد وهو الذى يتيح له أن يفكر وأن يقيم وأن يستجيب على نحو اجتماعى مستفيداً من خبراته الاجتماعية ومن مكوناته النفسية والعضوية أيضاً.

وعلم النفس الاجتماعى علم ؛ لأنه يبحث عن المصادر المعرفية التى تتيح له القدرة على الفهم والتحكم والتنبؤ بالسلوك الاجتماعى ، مسترشداً فى ذلك بعدد من النظريات التى تتمثل فى : النظريات الجينية Gentic Theories ونظريات التعلم Learning والنظريات المعرفية Cognitive والنظريات التحليلية Psychoanalytic ونظريات الدور Role .

وهذه النظريات تمد علم النفس الاجتماعى بزوايا متعددة الرؤى، تمكنه من فهم السلوك الاجتماعى ، بيد أن كل نظرية من هذه النظريات لا تكفى بمفردها لفهم طبيعة الإنسان الاجتماعية ، وما ينطوى عليه من تفاعلات واتجاهات وتنشئة.. إلخ، غير أن هذه النظريات مجتمعة قد تساعد كما يقول فيلدمان (١٩٨٨) على فهم الإنسان فى سياق مما هو نفسى واجتماعى.

أولاً : النظريات الجينية Genetic Theories :

تنطلق هذه النظريات من مقولة إن « الإنسان حيوان اجتماعى » مفترضة أن السلوك الاجتماعى للإنسان يستمد جذوره ومقوماته من محددات بيولوجية محض، وأن مكونات السلوك الاجتماعى ترتبط بأسباب جينية غير متعلمة Un-learned ، فها هو كونراد لورينز Lornez وهو من أهم علماء Elthology *، يفترض أن السلوك العدوانى مظهر غريزى ينبثق من حاجات الحيوان للكفاح من أجل حفظ الذات ، وأراد لورينز ، ومن بعده ولسون (١٩٧٨) الذى افترض أن السلوك الاجتماعى يستمد مقوماته من محددات بيولوچية ، تستند إلى ما كتبه مكدوجال McDougal (١٩٠٨)، الذى كان يعتقد أن خصائص السلوك النوعى للإنسان يمكن ترجمتها فى مصطلحات غرائزية ، وسلوك نمائى الاتجاه غير متعلم .

وتتلخص رؤية مكدوجال فى أن للعقل الإنسانى ميولاً فطرية هى الأسس الضرورية والقوى الدافئة لكل تفكير أو سلوك ، سواء أكان فردياً أم جماعياً – وهذه الميول الفطرية أو الغرائز هى الأساس الذى ينشأ عنه تدريجياً سلوك الفرد وإرادته وطابع الأمة وعزيمتها .

وهذه الغرائز تختلف فى قوتها باختلاف الأجناس ، كما تختلف درجة قبولها أو رفضها باختلاف الظروف الاجتماعية فى مختلف الثقافات ، وهى شائعة بين الناس فى مختلف العصور والثقافات.

وفى رأيه أن الغريزة فى صورتها الخالصة تكون نتاجاً لعملية عقلية مميزة ، عملية لا يمكن أن توصف بأنها آلية فحسب ، لأنها عملية نفسية وجسمية ، تشتمل على تغيرات جسمية ونفسية معاً ، وأن شأنها شأن سائر العمليات النفسية تتضمن ثلاثة جوانب : الجانب الإدراكى ، والجانب الوجدانى، والجانب النزوعى.

---

* إتولوجيا : علم الأخلاق ، وهو علم يقوم على دراسة القيم والعادات والتقاليد والأعراف المتبعة بين الجماعات الوطنية والعنصرية ، والشعوب المختلفة على نحو بيوسيكولوجى فى كثير من الأحيان.

ويذكر ماكدوجال من هذه الغرائز الأساسية ، سبع غرائز تشترك جميعاً فى أن إثارتها تؤدى إلى أكثر الانفعالات الأولية تحديداً ، ومن هذه الانفعالات السبعة المحددة ، مضافاً إليها شعور اللذة والألم تتكون معظم الحالات الوجدانية.

وهذه الغرائز السبع التى يذكرها مكدوجال ويميزها بانفعالاتها على النحو التالى:

١ – غريزة الهرب وانفعالها الخوف Filght ... Fear

٢ – غريزة المقاتلة وانفعالها الغضب Pugnacity .. Anger

٣ – غريزة الاستطلاع وانفعالها التعجبُ Curiosity .. Wonder

٤ – غريزة إذلال اللذات وانفعالها الخضوع Self -abasement .. Subjection

٥ – غريزة توكيد الذات وانفعالها المشاعر الموجبة والسالبة نحو الذات
Self - assertion .. Negative and positive feelings about self

٦ – غريزة الأبوة وانفعالها الرقة Parental .. tenderness

٧ – غريزة النفور وانفعالها التقزز Repuision .. Disgust

ثم أضاف إلى هذه الغرائز السبع ، غرائز إنسانية أخرى لها دوافع مهمة فى الحياة الاجتماعية مثل :

غريزة التوالد Reproduction.

غريزة التجمع Gregariousness.

غريزة الإنشاء Construction.

غريزة التملك Acquisition.

وعلى الرغم مما وجه من نقد محتدم لا يتوقف ، لنظرية الغرائز ، باعتبارها نظرية آلية ، قامت على تصورات افتراضية أطلقت عليها اسم الغرائز ، فإن هذه النظرية قد نجحت فى اعطاء بعض التفسيرات للسلوك الإنسانى ، وإن كانت تتشابه مع نظرية الملكات العقلية ، التى لم يعد لها وجود إلا فى التراث التاريخى لعلم النفس، الذى أسفر عن نظريات أخرى فى تفسير الطبيعة الدينامية للوجود الإنسانى.

٢ – نظريات التعلم Learning Theories :

على الضد من مفاهيم النظريات الجينية للسلوك الاجتماعى وتفسيراته قدمت

نظريات التعلم رؤى جديدة لتفسير السلوك الاجتماعى ، لا يرده إلى محددات بيولوچية ، يكون لها السيادة والتحكم فى السلوك الإنسانى ، ولكن برده إلى عملية التعلم وما تنطوى عليه من تركيز على دور المواقف والبيئة فى تحديد السلوك ، من خلال المدرسة السلوكية.

تمثل السلوكية تياراً علمياً فى علم النفس ، وتقوم معطيات هذه المدرسة على إنكار ما يسمى باللاشعور أو اللاوعى ، مؤكدة دور الحتمية البيئية ؛ فالإنسان نبت للبيئة التى يعيش فيها وسلوكه وخبراته وعاداته يتم اكتسابها عن طريق التعلم.

والتعلم جوهرى للوجود الإنسانى وأساس للتربية ، ومنطلق لا غنى عنه لدراسة علم النفس ، وضرورة لفهم حقيقة العقل البشرى.

وقد حظى موضوع التعلم باهتمام المفكرين والعلماء والفلاسفة أمثال أرسطو والقديس أوغسطين وجون لوك ، وكانوا جميعاً يعتبرون التعلم قضية رئيسية ، كما بلغ الاهتمام بقضايا التعلم وقضاياه ونوعية السلوك وكيفية الاستجابة وطرائق العلاج السلوكى ذروته فى أوائل القرن العشرين ومازال حتى يومنا هذا.

وهنا يثور سؤال

وما التعـــلم ؟

ويمكن تعريف التعلم تعريفاً بسيطاً بأنه تعديل السلوك من خلال الخبرة ، وتعديل السلوك فى صميمه مفهوم عام يشير إلى مجموعة الفنيات التى انبسقت من قوانين ومبادىء التعلم ، تلك التى تصف العلاقات الوظيفية بين المتغيرات البيئية والسلوك . فكل سلوك ، هو سلوك متعلم ، سواء أكان سوياً أم غير سوى ، ومن ثم يمكن تعديله.

وينطوى تعديل السلوك على فنيات علاجية متعددة : يتشمل بعضها فى التحصين التدريجى Systematic disensitization ، التشريط الإجرائى ، الاسترخاء، الانطفاء ، التشريط بالأنموذج Modeling ، التشريط بالنقيض Counter conditioning والتشريط التفيرى Aversion والتوكيدية.

وهذه العلاجات ، وما تنطوى عليه من فنيات ، ما هى إلا تنويعات Varities على هدف واحد ، هو تعديل السلوك ، هنا والآن وعلى النحو المرغوب فيه ليكون متوافقاً مع المطالب النوعية لبيئة الفرد (إبراهيم عيد ١٩٩٨) .

وثمة عدد من التعريف أوردها چورج جازدا (١٩٨٣) وآخرون عن التعلم ، لعل من أهمها تعريف ثورندايك ، الذى يعرف التعلم بقوله : إنه سلسلة من التغيرات

فى السلوك الإنسانى . وهنا لابد من التمييز بين التعلم وبين التقدم أو استمرار التحسن المفيد ، ذلك أن التعلم قد يكون تقدماً أو تراجعاً ، شأنه فى ذلك شأن كثير من العمليات الأخرى ، وكذلك ليس كل تغير يمكن أن يسمى تعلماً، لأن التغير الذى يحدث فى نشاط الإنسان بفعل عوامل النضج أو الاستجابات الفطرية لا ينبغى أن ينظر إليه على أنه تعلم ، فوقوف الطفل على قدميه ، ومص ثدى أمه وانقباض عينيه وسعاله ليس تعلماً بل أفعالاً شرطية تساعده على الحياة.

ولقد وصف أندرسون وجيتس Anderson & Gates التعلم بأنه عملية تكيف الاستجابات لتناسب المواقف المختلفة ، أما جانيه Gagne فقد دعا إلى التمييز بين العوامل التى تتحكم فيها الوراثة إلى حد بعيد كالنمو ، والعوامل التى تعد فى الأساس نتائج البيئة ، وهى التعلم .

ويمكن تقسيم تاريخ البحث فى التعلم إلى ثلاث مراحل :

أولاً : مرحلة ما قبل السلوكية Prebehaviorism :

ويمثل هذه المرحلة « جون لوك » الذى نظر إلى الإنسان على أنه يولد وعقله صفحة بيضاء (Tabla rasa) . وأنه لا يوجد فى العقل ما لم يكن من قبل فى الحس ، ومن ثم تصبح منافذ المعرفة هى الحواس ، وأن كل ما نتعلمه ، إنما نكتسبه ، ولا يوجد ما يسمى بأفكار قبلية كامنة ومتأصلة فى العقل ومفطور عليها ، وعارض «لوك» كثيراً من الفلاسفة .. لعل من أهمهم «كانط» الذى أكد وجود مقولات عقلية فى العقل يتعلمها الإنسان ، وينظم من خلالها ما يصله من معارف ومعلومات.

ويمثل «فونت» مرحلة لاحقة من مراحل ما قبل السلوكية ، ويعتبر أول من أنشأ معملاً لعلم النفس ، وينسب إليه الفضل فى ظهور المدرسة البنائية Structuralism ، وهى المدرسة التى تؤكد عملية الاستبطان الذاتى Introspection .

وكان لأعمال «فونت» أيضاً تأثيرها على المدرسة الوظيفية Functionalism .

ثم تلا ذلك أعمال «هيرمان ابينجهاوس» Ebbinghaus فى مجال الذاكرة . وتكرار قوائم الكلمات التى لعبت دوراً كبيراً فى تجارب «ثورندايك» .

ثانياً المرحلة السلوكية Behaviorism :

ورائدها الأول واطسون ، الذى ركز على الحتمية البيئية فى تشكيل السلوك ، وحول الإنسان إلى آلية سلوكية يتحكم فيها المثير والاستجابة ، ولعل من أهم العلماء الذى تأثر بهم «بافلوف» الذى تأثر بداروين . وقد أثرت السلوكية بما تنطوى عليه من

مبادىء وقوانين للتعليم صاغها واطسون وبافلوف وثورندايك – فى أعمال هل وجثرى وتولمان وغيرهم .

ثالثاً المرحلة المعاصرة Contemporary :

وفى هذه المرحلة انصب تفكير العلماء على زيادة الاهتمام بالدافعية والاقتران والتعزيز ، وعلى الفنيات العلاجية التى تواجه الاستجابات اللاتوافقية المتمثلة فى كثير من الاضطرابات السلوكية كالهروب من المدرسة ، والعدوانية ، والسرقة ، والتزييف ، وتعاطى الكحوليات والمخدرات ، والجرائم الجنسية والقوادة ، وقد تلحق بها العادات السيئة عند الأطفال كقضم الأظافر ، والتبول اللاإرادى ، والاستمناء ، ومص الأصابع ، ونوبات الغضب التى ليس لها مبرر والسلوكيات المضادة للمجتمع .

وتتنوع وسائل العلاج السلوكى ، وتتنوع طرائقه بتنوع الاستجابات اللاتوافقية إزاء الذات والمجتمع كالجنسية المثلية والفتشية ، وحالات التجوال الليلى ، والهيستيريا والمخاوف المرضية ، والبرود الجنسى لدى النساء ، وما إلى ذلك .

وهكذا تستخدم نظريات التعلم فى تفسير وعلاج الظواهر الاجتماعية التى يتمثل بعضها ، إضافة إلى ما سبق فى العدوان والعلاقات بين الشخصية ، والجاذبية الاجتماعية ، والتواصل اللفظى والتعصب وتكوين الاتجاهات ، والبحث فى المكونات السلوكية للظواهر الجماهيرية .. وما إلى ذلك .

٣ – نظريات المعرفة : Cognitive Theories :

وعلى الضد من نظريات التعلم ، ركزت النظريات المعرفية على عمليات التفكير والإدراك وكيفية بلوغ الناس إلى الفهم والحضور الفعال فى العالم .

وقد انبثقت الكثرة من النظريات المعرفية عن جماعة علماء النفس الجشطلتين ، وعلى الرغم من أن الجشطلتيين قد وضعوا جل اهتمامهم بمجالات الإدراك ، إلا أن أفكارهم كان لها تأثير مهم على علم النفس الاجتماعى ، للأسباب التالية :

(١) إن علماء النفس الجشطلتيين قد طوروا التقنيات Techniques التى من شأنها أن تجعل التجريب على الظواهر الاجتماعية أمراً قابلاً للتحسين والتعديل معملياً .

(٢) والسبب الثانى يكمن فى اتخاذ الجشطلتيين من التجربة البسيطة naive ، طريقاً من خلاله يفهم ويعى الفرد الموقف الاجتماعى وعياً حسياً ، بينما أصحاب نظريات التعلم يرون أن قياس الموقف الموضوعى المستقل ، عن

وعى الفرد هو الوسيلة الصادقة فى البحث فى الظواهر الاجتماعية ، ولهذا يفترض الجشطلتيون أن النهج الفنومنولوچى Phenomenological ap-proach الذى يبحث فى « كيف يعى الفرد ويدرك ذاتياً من خلال خبرة العالم » كما يقول كافكا .

والفكرة المحورية لدى الجشطلتيين تكمن فى أن الظاهرة النفسية ظاهرة فى المجال ، وأن المجال منظومة من العوالم المتداخلة ، التى تتضمن الإدراك والخبرة النفسية ، وأن العناصر الفردية للمجال ، لا يمكن أن تفهم دون معرفة للمجال ككل.

وهنا نسأل ما القصد من ننظرية الجشطلت التى أسهمت إسهاماً كبيراً ، فى نظريات المعرفة وقدمت تفسيرات ديناميـة للسلوك الإنسانى . ولكيفية تكون الانطباعات الشخصية القائمة على دينامية العلاقة بين الأنا والآخر ، وذلك أن الآخر لا نراه فى موضوعيته الخالصة من حيث هو آخر ، بل نراه من حيث علاقته بنا .

ولهذا يحاول علم النفس الاجتماعى أن يفهم السلوك الاجتماعى ، أى أن يفهم نوعية تلك التفاعلات القائمة بين الأنا والآخر ، لأن محاولة فهم السلوك الاجتماعى كما هو دون الكشف عن ديناميته ، تسطيح فكرى لا معنى له.

يبقى السؤال ما نظرية الجشطلت :

يقول « بول جيوم » فى مفتتح كتابه : « علم نفس الجشطلت » .

نظرية الجشطلت هى فى الوقت نفسه « نظرية فلسفية » و « تيار فى علم النفس» ، فهى من ناحية تدخل مفهومى الصيغة والبنية فى تفسير العالم الفزيائى ، كما تدخلها فى تفسير العالم البيولوچى والعالم العقلى .. إنها تقيم صلات القربى ما بين الوقائع التى تعتبرها التصورات التقليدية منعزلة عن بعضها البعض ، وتقيم على هذه الصلات فلسفة وحدانية للطبيعة .. هى من ناحية أخرى تطبق هذه المفاهيم نفسها، فى الميدان الخاص بعلم النفس على مشكلات محدودة وعيانية ، فهى تريد تخليص هذا العالم من ربقة أطر تقليدية معينة ، كانت تحد من انطلاقه ، وتبعد به عن الواقع وعن الحياة ، ولكنها تظل علمية الوجهة ، فمؤسسو هذه النظرية هم قبل كل شىء تجريبيون، ممن ألفوا الالتجاء إلى ملاحظات محددة ودقيقة ؛ لتبيين صحة فروضهم المتسمة بالجسارة ..

جاءت نظرية الجشطلت كرد فعل إزاء ما كان سائداً من فلسفات فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وكانت السيادة فى ذلك للنظرية الترابطية بنزعتها

« الذراتية »فى نظرتها إلى الكل ، وبتفسيراتها «الميكانيكية» لذلك الانتظام الذى تكشف عنه الظواهر النفسية.

وبلغت النزعة الترابطية أقصى ازدهارها على يد «فونت» Wundt، الذى تأثر بمفاهيم نيوتن عن الكون وحاول تطبيق هذه المفاهيم على المجال الفكرى، فعلم النفس هو علم الحياة، أو العلم المكمل للعلوم الطبيعية الأخرى مثل الفيزياء والكيمياء وهما العلمان اللذان كان يحللان الأجسام إلى جزئيات وذرات ، والفسيولوجيا كانت تعزل أعضاء وتفككها إلى أنسجة وخلايا ، ومن هنا كان على علم النفس هو الآخر أن يعزل عناصر ، وأن يكشف قوانين لائتلافاتها .. فالنفس يمكن تقسيمها عن طريق الاستبطان الدقيق إلى عناصرها الجزئية ، والقوانين التى يمكن بمقتضاها ربط هذه العناصر بعضها بالبعض من أجل تشكيل الكل العقلى ، والوصول إلى فهم لهذا الكل العقلى يتطلب ضرورة فهم عناصره الجزئية ، وكيف تتشابك هذه الذرات النفسية بعضها ببعض.

ويعتبر «ماكس فرتيمر» Wertheinier (١٨٨٠ - ١٩٤٣) مؤسس النظرية الجشطلتية ، وقد انضم إليه فى وقت مبكر «كوهلر» Kohler (١٨٨٧ - ١٩٦٧) وكيرت كوفكا koffka (١٨٨٦ - ١٩٤١) ، ثم ارتبط بهؤلاء الثلاثة « كبرت ليفين » (١٨٩١ - ١٩٤٧) ، بيد أنه استطاع أن يؤسس نظرية جديدة هى نظرية المجال.

ويثور سؤال : ماذا يقصد بكلمة جشطلت Gestalt ؟

يجيب مايكل فرتيميز « إن الكلمة تعنى الصيغة أو الشكل أو النموذج أو الهيئة أو النمط أو البنية أو الكل المنظم ، والجشطلت كل مترابط ديناميا فيما بينها وما بين الكل ذاته ، أو قل هو كل متكامل كل جزء فيه له مكانه ودوره ووظيفته أكثر من حزمة من الأجزاء ، أو سلسلة من القطع أو الأجزاء التى قد تكون مشتركة أو ملتصقة بعضها ببعض بطريقة عشوائية » ، وعلى نحو يوضح الطبيعة الدينامية للكل الجشطلتى.

وعلى أية حال .. فإن القضية المحورية فى النظرية الجشطلتية تكمن فى الاهتمام بالتناقض بين ما يسمى بالأكلال التى تساوى تماماً المجموع الكلى للأجزاء المكونة لها أو تتجاوزه.

النوع الأول من الأكلال يشبه كومة من الطوب أو حفنة من حبات الأرز أو مبلغاً من المال .. أما النوع الثانى فالكل فيه مختلف كل الاختلاف عن مجموع الأجزاء المكونة لهذا الكل : كالمجال الكهربائى ، وفقاعة الصابون ، والمجال المغناطيسى ، والشخصية.

وبعبارة أخرى .. فإن الجشطلت وحدة كلية عضوية فى مقابل الكل الإضافى من حيث هو أجزاء غير حقيقية لا تقوم بأدوار معينة ضمن الوحدة الكلية ، بل يقتصر على كونها مجرد أجزاء .

ومن هنا فإن كل الظواهر الحية نفسية أو اجتماعية أو فسيولوجية هى جشطلتات، وبعضها الآخر مجرد أكوام تتلاصق فيها الأجزاء غير الحقيقية أى مجرد أكلال إضافية. وذلك شأن الآلات الميكانيكية ، التى يرجع انتظامها إلى ترتيبات خارجية سابقة .

ومن هنا يقوم الكل الإضافى على الذراتية (بمعنى أن الكل مجرد تجميع وحاصل جمع لأجزائه ؛ أى ذراته) وعلى الميكانيكية بمعنى أن الانتظام لا يشكل بعداً صحيحاً من بعد الظاهرة بل يضاف إليها من خارجها ، وعلى النقيض من ذلك يكون الكل العضوى أى الجشطلت على نقيض الذراتية ، أي يقوم على الدينامية بمعنى أن الكل صميمة انتظام ينبع كمحصلة من صراع كل القوى المتمثلة للأجزاء بما فى ذلك قوى المجال ، وعلى نقيض الميكانيكية أى على الوظيفة ؛ بمعنى أن الكل صميمة انتظام يستهدف وظيفة أو جملة من الوظائف مما يعنى الهدف والمعنى والدلالة.

والنظرية الجشطلتية خلصت إلى نتائجها الرائعة عن طريق التجريب ، وكان اهتمامها الأول منصباً على سيكولوجية التفكير والمعرفة ، ثم سرعان ما امتد مجال أبحاثها إلى مجالات متعددة ، مثل : المشاكل الشخصية وعلم النفس الإجتماعى والإدراك .. فقد ترتب على نشر كوفكا لمقالته : الإدراك مقدمة للنظرية الجشطلتية Perception : An Introduction to the Gestalt Theories سوء فهم للنظرية الجشطلتية ، فقد اعتبرت وكأنها نظرية للإدراك فى حين أن مجال انتشارها يمتد ليتسع كل ما هو فسيولوچى وعقلى ونفسى واجتماعى ومعرفى وإدراكى.

وبناء على ذلك .. فإن القضية المحورية فى الجشطلت تكمن فى كيفية تنمية فهم الكائن الحى للبيئة حتى يتحقق له التكيف مع البيئة بشكل فعال ، ولهذا يحتل الاستبصار موقعاً كبيراً وجوهرياً لدى الجشطلتيين فالتعلم يكون بالاستبصار والفهم لا بالارتباط والتشريط ، سواء أكان كلاسيكياً أم وسيلياً أم الأثنين معاً.

ويلخص فرتمير المفاهيم الأساسية للجشطلت فى :

البنية (أو التركيب Structure) : لكل جشطلت بنية متأصلة فيه وتميزه عن غيره . والحقيقة أن مهمة النظرية الجشطلتية تتمثل فى وصف البنى الطبيعية بطريقة لا تشوه أصولها أو كونها ، ومعظم أنواع الجشطلت لها قوانينها الداخلية التى تحكمها.

الاستبصار (Insight) : إن تحقيق الانطباع الصادق عن حالة إشكال ما حقيقى من وجهة نظر الجشطلت فى التعلم ، ويتمثل ذلك فى اكتساب الاستبصار فى البنية التى يكون عليها موقف مشكل ، وفهم ترابط أجزائه وطريقة عرضه وكيفية التوصل إلى الحلول المناسبة له ، ولن يكون التعلم فى صورته النمطية قد تم ؛ إذ لم يتحقق مثل هذا الاستبصار.

الفهم (Understanding) : إن الاستبصار هو تحقيق الفهم الكامل للأشياء. ويكون التعلم قد تم حصوله إذا كان استبصاراً (فهماً) ، والفهم هو الهدف من التعلم.

التنظيم (Organization) : تنظيم بنية الجشطلت ، أى جشطلت ، بطريقة خاصة مميزة وفهم تلك البنية يعنى تفهم طريقة تنظيمه . وقد كان تكوين مبادئ التنظيم الجشطلتية للإدراك إسهاماً رئيسياً لهذه المدرسة ، وقد انتقلت هذه المبادئ مباشرة إلى سيكولوچية التعلم . ولما كانت معرفة الجشطلت او استبصاره تعنى أن يكون العارف له مطلعا على بنيته وعالما بكيفية تنظيمه .. فإن مبادئ تنظيم الجشطلت تصبح من الأمور الأساسية لسيكولوچية التعليم تماماً كما هى لسيكولوچية الإدراك.

إعادة التنظيم (Reorganization) : إذا استطاعت الكائنات الحية إدراك وفهم كل موقف جديد بصورة مباشرة وصحيحة ودون أية مصاعب .. فمعنى هذا أنه لاتوجد حاجة للتعلم. ولكن الكثير من المشكلات تتم بصورة يصعب عمل أى شيء إزاءها أو حلها إذا ما واجهناها لأول مرة ، بل وقد تبدو المشكلة لأول وهلة غير قابلة للفهم ولا معنى لها أو أنها غامضة . ولا يصبح الحل ممكناً إلا إذا أمكن تعرف الملامح الرئيسية للمشكلة بوضوح ، وظهرت بعض الدلائل التى تجعل من الحل أمراً ممكناً.. وهكذا فإن التعلم غالباً ما ينطوى على تغير إدراكنا الأول للموقف المشكل ، وإعادة تنظيم ذلك الإدراك حتى نحقق النجاح ، وبذلك نجد الطريق للتعامل مع الموقف.

٤ – النظرية التحليلية : Psychoanalytical

يعتبرفرويد (١٨٥٦ – ١٩٣٩) مؤسس ورائد التحليل النفسى ، الذى يعتبر منهجاً فى البحث ونظرية فى العلاج . فقد قدم التحليل النفسى لعلم النفس الاجتماعى تفسيرات للشخصية فى محيطها الاجتماعى ، موضحاً أن ما نكابده من صراعات وتوترات ، إنما تمتد جذوره إلى الشخصية ، وأن السلوك الراشد ما هو إلا انعكاس لخبرات طفولية.

وقدم تفسيرات متعددة لمعنى التعصب والعدوان فى الفكر والسلوك والمواقف، استفاد منها أدورنو Adorno عندما قدم بحثه عن الشخصية التسلطية.

وفيما يلى نبذة عن رائد التحليل النفسى وأهم إسهاماته فى علم النفس عامة وفى علم النفس الاجتماعى بصفة خاصة .

سيرة علمية :

ولد فرويد فى فريبيرج بموارفيا ٦ مايو ١٨٥٦ ، ثم انتقلت الأسرة إلى ڤيينا ، وهو لا يزال فى الرابعة من عمره ، واستمر فى ڤيينا حتى بلغ ٨٢ عاماً ، وكان شديد الولع بالفلسفة والتاريخ وأساطير الشعوب وعقائدها.

قرأ دارون وهو طفل ، وترجم إلى الألمانية أحد أجزاء المجلد الضخم الذى حوى كتابات المفكر الاقتصادى الاجتماعى « جون ستيوارت مل » واهتم بدراسة الكيمياء والفسيولوجيا والتشريع ، واشتغل بضع سنين فى معمل الدكتور فرويد بروك ، ثم التحق بالمدارس النفسية وتتملذ على يد منيرت « أستاذ تشريح المخ ».

وتزوج فى عام ١٨٨٦ من مارتابير نايز ، وأنجب منها ستة أطفال أصغرهم عالمة النفس الشهيرة « أنا فرويد » .

وفى سنة ١٩٣٨ رحل فرويد من النمسا إلى لندن بعد هيمنة النازية على ألمانيا وضم النمسا إليها وخوفه من الاضطهاد والتعصب ، الذى كان يميز التوجه النازى حيث تمجيد القوة ، وسحق المناهضين لأيدولوجية اليمين الفاشى .

وفى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر ١٩٣٩ رحل فرويد عن عالمنا عن ثلاثة وثمانين عاماً .

وقد شاءت الأقدار أن يرقد فى مثواه الأخير بالقرب من رفات نيوتن ودارون . فقد جمع الموت ثلاثة من عباقرة الإنسانية ، نيوتن : الذى اكتشف القوانين التى تحكم سير الكواكب والأفلاك فى الكون اللامتناهى ، ودارون الذى ربط بين الماضى السحيق والحاضر ، مرتباً الأجناس الحية فى سلم تصاعدى متتبعاً تطور الحياة خلال الأحقاب المتتالية ، وفرويد الذى استطاع ببصيرته العلمية ، ووعيه المتميز أن يكتشف أخر قارات الإنسان ، القارة السابعة فى عالم الإنسان .. أن يكتشف اللاشعور.

وأحدث هؤلاء الثلاثة صدمة أصابت كبرياء الإنسان ، فالأرض مجرد ذرة فى محيط فلكى بغير انتهاء ، والإنسان تربطه بغيره من الحيوانات وشائج صلة وارتقاء ونماء والنفس الإنسانية مغلولة بدمدمة الغرائز ، وكل ما هو مستهجن ومعربد ، وعلينا

استثناء القوى التى تعوق العقل الإنسانى صوب الحقيقة والحرية.

بدأ فرويد حياته العملية طبيباً للأمراض العصبية ، مستخدماً الجلسات الكهربائية كوسيلة للعلاج ، ثم اكتشف عقم هذه الوسيلة ، فاستخدم مع صديقه بروير Breuer طريقة التنويم المغناطيسى ، وتتلخص طريقتهما فى إضعاف القيود التى يفرضها الشعور على الذكريات المكبوتة حتى تتاح لها فرص التعبير عن نفسها، وكان المريض فى أثناء معاناته لخبرات الماضى الصاعدة من اللاشعور يتخلص من الأثر الصدمى المؤلم الذى تحدثه هذه الخبرات ، فتتطهر نفسه وتستعيد إلى حد كبير سيطرتها على نفسها ، ونجحت هذه الطريقة مع بعض المصابين بالأعراض الهيستيرية ، غير أن فرويد كان يشعر بأنه لم يصل بعد إلى معرفة جذور المرض ومعرفة القوى الضاغطة التى تتحول إلى هذه الأعراض.

ورأى التنويم المغناطيسى طريقة علاجية ناقصة ، تسلب المريض إرادته ، وأن العلاج يقتضى إشراك المريض فى العملية العلاجية ؛ لأن الغرض من العلاج هو تقوية الأنا لا إضعافها.

وانتهى فرويد فى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر إلى التحليل النفسى ، حيث استبدل بالتنويم المغناطيسى ما يعرف فى التحليل النفسى بالتداعى الطليق Free - association ، وهى طريقة تتلخص فى أن يقول المريض كل ما يخطر على ذهنه من معان وأفكار وصور مهما بدت له تافهة أو مستهجنة أو عشوائية السياق ، وهذه الطريقة تتيح للانفعالات المكبوتة أن تنطلق من مكامنها فى اللاشعور ؛ مما يتيح للمعالج تفسير ما يبدو عشوائياً فى تتابعه حيث يرجع إلى الحتمية النفسية ، ثم اكتشف فرويد ظاهرة « الطرح أو التحويل » حيث يسلك المريض ما كان يسلكه تجاه والديه أمام المحلل النفسى ، والمريض بذلك يعيش ماضيه فى حاضره . وللطرح الموجب فائدتان ، الأولى : يتيح للمعالج أن يمسك المريض ، والثانية : تعلم المريض نفسه كيفية السيطرة على الانفعالات والمواقف التى عجز فى الماضى عن السيطرة عليها ، ولا يصل المعالج إلى ذلك إلا عن طريق ما يسميه بالحيادية.

وتتميز هذه الفترة بالاهتمام المتزايد بالمقاومة والطرح ، وبتحديد الأمراض التى يصلح لها التلحيل النفسى ، وازدياد أهمية العقدة الأوديبية والاهتمام بسيكولوجية الأنا ، وانشقاق « أدلر » و « يونج » عن أستاذهما فرويد ، فقد اهتم « أدلر » بالعدوان والأنا أكثر من اهتمامه بالجنسية واللاشعور ، بينما اهتم « يونج » باللاشعور الجمعى والتفسير الرمزى لعقدة أوديب . ومن الناحية العلاجية انتقل الاهتمام عند كل منهما إلى الصراع الراهن بدلاً من الصراع الماضى كمحور للتحليل النفسى .

وجاءت المرحلة الثانية عام ١٩٢٠ حيث عدل فرويد فى نظريته الغرائز والجهاز النفسى ، فلم يعد التفسير يتمثل فى صراع بين الغرائز ، وإنما فى دفاع الأنا ضد الحفزات الغريزية والانفعالات المتباينة.

ولم تتوقف اكتشافات فرويد عند التحليل النفسى واللاشعور ، بل تخطت ذلك إلى تقديم تفسيرات جد عميقة لأساطير الأمم والشعوب والمعتقدات والأحلام وتصنيفات الأمراض النفسية ، وما يصاحبها من أعراض بيولوجية.

باختصار .. فإن عظمة فرويد الذى كان يصغى بوعى بصير لأنين المرضى ، ثمان ساعات يوميا ، دون ملل أو ضجر ، تكمن فى إخضاعه غير المعقول والمتناقض للتفسير العقلى ، ومن ثم استطاع أن يكشف عن قوة العقل الإنسانى وضعفه على السواء ، وجعل من هذه الجملة « الحقيقة هى التى ستحررك » المبدأ الهادى فى فن العلاج النفسى .

مراحل التطور النفسى الاجتماعى عند فرويد

يفترض فرويد وجود مناطق شبقية فى البدن (لذة شهوية) ، وإن للأطفال حياة جنسية ، أو بمعنى آخر « أن الطفل الصغير كائن غريزى ملىء بحوافز جنسية عديدة أشكال الانحراف » أو بعبارة أصح « ملىء بجنسية إجمالية لم تتمايز بعد فى وحدة واحدة تجمع كل الغرائز الجنسية اللاحقة » (اتوفنخل ، ص ١٥٨).

ينحصر دليل فرويد على ذلك فى أمرين أساسيين :

الأول : راجع إلى الخبرات الجنسية التى اكتشفها وراء الأعراض النفسية لمرضاه بغير استثناء .

الثانى : جاء عن طريق محاولته فهم مظاهر الانحراف ، الذى تبدو فيه عملية الجماع الجنسى السوى بعيدة عن أى نشاط ، يقوم به الفرد المنحرف جنسياً.

ويبرهن فرويد على ذلك بأن الجنسية السوية تتميز بأن موضوع إشباعها هو الجنس الآخر ، وبأن نشاطها يبلغ إلى التحقق فى الجماع الجنسى بين جنسين مختلفين (رجل وأمرأة) ، فى حين أن الانحرافات الجنسية على الضد من ذلك من حيث الموضوع والنشاط والهدف . فمن حيث الموضوع : نجد أن هناك من يحققون لذتهم الجنسية بالاختلاط بأشخاص من الجنس نفسه أو من الحيوانات أو من أنفسهم كما هو الحال فى الاستمناء (العادة السرية) .

أما من حيث الهدف ، فهناك أشخاص لا يصلون إلى الإشباع إلا عن طريق الاتصال بأعضائهم التناسلية ، بل يتخذون من مناطق أخرى وسيلة للإشباع الجنسى ، ويقتصر الأمر عندهم عند الخطوات التمهيدية للجماع الجنسى ، كالنظر أو الملامسة أو ما يعرف باسم (سكوبتوفليا) .

ومن تلك الملاحظات تبين لفرويد أن هناك مناطق شبقية فى البدن غير المناطق التناسلية التى تخدم هدف الإشباع ، أو تصل بالإشباع إلى حده الأدنى بالجماع الجنسى ، وأن هناك من الأشخاص من يكتفى بخطوات تمهيدية فقط لبلوغ حد الإشباع ، وأن الموضوع الجنسي يختفي لتحل محله موضوعات أخرى لا تخدم العلاقة الإنسالية على أى نحو من الأنحاء .

ومن جماع هذه الحقائق بدا واضحاً أمام فرويد أن النمو النفسى والاجتماعى ينحصر فى وجود مناطق شبقية (لذة شهوية) فى البدن ، يترتب على تنبهها إشباعات لبيدية ، وتتغير المنطقة المهيمنة طبقاً للمراحل العمرية ومستوى النمو ، وبالتالى تتغير علاقات الفرد مع نفسه ، ومع العالم المحيط.

ويقسم فرويد مرحلة الطفولة إلى عدد من المراحل النمائية ، التى يعتبرها مراحل نضج للغرائز ، وهذه المراحل هى :

(١) المرحلة الفمية (المصيه) Oral Phase

وتحدد هذه المرحلة بالأشهر الستة الأولى ، وفيها يكون المحور الرئيسى للتعامل مع العالم هو الفم ، وأسلوب التعامل هو الإدماج بالمص ، حيث يجد الطفل فى ذلك لذة ، وهى ليست مجرد إشباع لحاجته البيولوجية للطعام ، فامتصاص الطفل لأصبعه إذا حس بالجوع يدل على امتزاج الحاجة إلى الطعام بحاجة أخرى يشبعها بأصبعه ، وهذه الحاجة ، ما هى إلا نواة للذة الشبقية التى تتمثل فى التقبيل فيما بعد . لذلك تعد منطقة الفم شبقية etrotic وعندما يعانى الطفل الإحباط ، فإنه يمنح نفسه إشباع لبيديا فميًا ذاتيًا بمصه لأصبعه . أما التثبيت Fixation على المرحلة الفمية فيؤدى إلى مظاهر الانحراف التى تتخذ من الفم بديلاً عن العضو التناسلى ، وتختار الموضوعات التى تحقق ذلك الإشباع .

(٢) المرحلة الفمية السادية (العضية) :

وتحتل النصف الثانى من السنة الأولى، ويكون فيها المحور الرئيسى للتعامل مع العالم هو الفم وأسلوب التعامل هو الإدماج التدميرى بالأسنان لموضوع الحب (ثنائية العاطفة) . وفى هذه الفترة يمكن القول بأن جميع عمليات الطفل الحسية

والحركية « تعض على العالم » ، تنزعه منه لتحتفظ بما تنتزع . وهذه السادية تجد ما يدعمها فى التوترات الناشئة عن التسنين ، وفى الإحباطات الناشئة عن النظافة ، وفى الصراعات المتصلة بتحقيق الرضاعة دون عض . وتعمل مشاعر النقمة على الأم ، وأحاسيس الغضب الكظيم العاجز على دخول المازوشية إلى المرح إلى جانب السادية . وتتميز هذه المرحلة إذاً بتناقض العاطفة ، وبالسادية والمازوشية ، وبالنرجسية لاهتمامات الطفل المنصبة على جسمه.

(٣) المرحلة السادية الإستية :

وتحتل العامين الثانى والثالث ، وفيها يكون المحور الرئيسى للتعامل مع العالم هو الإست (الشرج) . وفى هذه السنة يطرأ تغيران مهمان على حياة الطفل ؛ حيث يقل اهتمامه بالنشاط الفمي بعد النظافة وبداية السير ، وتبدأ الأم فى توجيه انتباهه إلى عادات التبول والتبرز وغيرها من مظاهر النظافة . وبذلك تنتقل منطقة الاهتمام إلى الإست ، ويكون موضوع التبول والتبرز من الموضوعات التى يبدأ الطفل فى تقييمها نتيجة لظهور اهتمام الأم بذلك ، ويشعر الطفل بلذة فى إفراغ برازه والاحتفاظ به ، هذا بالإضافة إلى لذته التى يحققها من رؤية تأثير قيامه بتلك الوظائف على من يقومون بأمره ، ويتحقق الإشباع الليبيدى بتهيج الأغشية المخاطية للإست ، وبتفريغ المادة البرازية . وحيث إن المادة تتعرض لاحتجازها أو إخراجها فإن الطفل يمارس بذلك تناقض العاطفة ، وحيث إن العضلات العاصرة تتيح للطفل أثناء تعلم النظافة إمكانة معارضة الكبار ، فإن هذه المرحلة تتميز بالسادية ، وتتميز أيضاً بالجنسية الثنائية حيث لم تتمايز بعد الذكورة والأنوثة . وقد تظل هذه المنطقة محتفظة بما لها من قدرة التوتر والارتخاء كمنطقة شبقية كما هو الحال فى المنحرفين جنسياً.

(٤) المرحلة الأوديبية :

عند كلا الجنسين ، يمكن اعتبار « المرحلة الأوديبية » ذروة الجنسية الطفلية ، ذلك أن النمو الشبقى ابتداء من الشبقية الفمية ماراً بالشبقية الإستية إلى الإنسالية ، وكذلك نمو العلاقات مع الموضوع ابتداء من الاندماج ، ماراً بالإدماج الجزئى ، وتناقض العاطفة ، إلى الحب والكراهية . كلاهما يتقمم فى الحفزات الأوديبية ، هذه التى تعبر عن نفسها – كقاعدة – فى الاستمناء الإنسالى المحمل بالإثم والتغلب على هذه الحفزات ، كيما تخلى مكانها للجنسية الراشدة ، هو الشرط الضرورى للسوية ، بينما التشبث اللاشعورى بالنزاعات الأوديبية يميز الشخصية العصابية (اتوفنخل ، ص ٢٣٦) .

وتحتل العقدة الأوديبية العامين الرابع والخامس ، ويكون محور التعامل الرئيسى مع العامل هو عضو التذكير ، قضيباً كان أم بظراً ، ويكون أسلوب التعامل شبيهاً بالحياة الغرامية للكبار ؛ فالإشباع اللبييدى يتحقق بصفة أساسية بالاستمناء المنصب على العضو الجنسى مصحوباً بالتخيلات .

(٥) مرحلة الكمون :

وتحتل الفترة من السادسة حتى البلوغ ، وفيها تضعف الحفزات الغريزية بتأثر العوامل الثقافية والاجتماعية التى يحيا فى كنفها الطفل ، ومن ثم يبدأ الطفل فى نسيان الانحراف المتعدد الأشكال ، ويبدأ فى استدخال ما هو قيمى وما هو اجتماعى جاعلاً منه حاجزاً فى وجه عربدة الغرائز ، وخلال مرحلة الكمون لا تتلاشى الغرائز الجزئية وهى النزعات الفمية والأستية والسادية والماشوسية والاسكبتوفيليه والاستعراضية ، بل تتكامل فى الحالات السوية تحت راية الجنسية التناسلية .

وترتبط مراحل النمو النفسى والاجتماعى عند فرويد ارتباطاً وثيقاً بنشأة الأمراض النفسية ، فعندما يعانى الطفل إفراطاً أو تفريطاً فى الإشباع فى مرحلة من مراحل النمو فإنه يعانى التثبيت عندها . هذا التثبيت الغريزى هو الذى يتيح عودة النزعات المكبوتة ، ويحدث ذلك عندما يواجه الفرد موقفاً يناله بالإحباط الشديد، فيكون بالتالى نكوصاً إلى نقطة التثبيت ليجيب على الموقف الذى عجز عن مواجهته كراشد . باستجابة طفلية يكرر فيها الماضى .. ذلك هو صميم الأمراض النفسية والانحرافات الجنسية .

ومما سبق يتضح أن هناك تشكيلة متعددة من التعريفات الخاصة بعلم النفس الاجتماعى ، وجميعها تؤكد أن الدراسة العلمية لسلوك الفرد الاجتماعى ضمن الجماعة التى ينتمى إليها ، والعالم الموضوعى الذى يعيش فى كنفه ، غير غافلة عن التفاعلات الدينامية بين الأنا والآخر ، وما تنطوى عليه هذه التفاعلات من ديناميات نفسية .

يقول إريك فروم Fromm فى مقدمة كتابه « الهروب من الحرية » escape from Freedom إننا إذا أردنا أن نفهم ديناميات العملية الاجتماعية ، علينا أن نفهم ديناميات العمليات النفسية العاملة داخل الفرد .

ثم أن هناك مجموعة من النظريات – السالفة الذكر – التى يسترشد بها علم النفس الاجتماعى فى تفسير وتأويل السلوك الاجتماعى . ومن هنا يكون التساؤل : عن أى النظريات أولى بالاتباع لصوابها وقدرتها على الإجابة عن طبيعة العملية الاجتماعية ؟

وللإجابة عن هذا السؤال : نجيب أن كل نظرية تلقى الضوء على زاوية من زوايا الوجود الإنسانى المتعدد الرؤى ، ومن ثم تقدم تفسيرات نسبية ، يمكن الاسترشاد بها لفهم الوجود الاجتماعى وما ينطوى عليه من دوافع وديناميات ، غير قادرة على تقديم رؤية كلية لهذا الوجود الإنسانى ، لأن الحقيقة الإنسانية ثرية فى محتواها ، متعددة من حيث زوايا الرؤية إليها ، وما التطور الذى صاحب العلوم الإنسانية ، إلا مظهراً لميكانزم واحد ، هو محاولات الكشف عن جوانب الثراء فى الوجود الإنسانى بما ينطوى عليه من محددات بيولوجية واجتماعية ونفسية ، تنصهر جميعاً فى بوتقة واحدة هى أن الإنسان : كائن عضوى نفسى اجتماعى واحد . Bio - Psycho - Social organism

وأن هذه الكلية هى التى تضفى على الوجود الإنسانى ثراء فى التأويل والبحث.

علم النفس الاجتماعى والعلوم الأخرى

إن المستويات التحليلية للفرد والجماعة والأنظمة الاجتماعية تجعل من علم النفس الاجتماعى نقطة التقاء بين معظم العلوم التى تتخذ من الإنسان موضوعاً لها فهو من جهة يضطلع بدراسة سلوك الفرد ، وما يكمن وراء هذا السلوك من مكونات شخصية ، وحينما نقول مكونات شخصية فإنما نقصد (المكونات الجسمية الفسيولوجية، والعقلية والانفعالية والاجتماعية) . ومن جهة يدرس الإنسان من خلال تفاعلاته مع البيئة والمجتمع وطبيعة المؤثرات الثقافية والقيمية وما إلى ذلك على سلوكه وسلوك الجماعة والأنظمة الاجتماعية .. فالقول بأن الإنسان موجود نفسى فحسب خرافة ؛ لأن سلوكه يتشكل من تفاعله مع المجتمع ومع الآخرين فى سياق من عملية التنشئة الاجتماعية ، التى تحقق للإنسان النقلة الكيفية من مملكة الحيوان إلى مملكة الإنسان . وهنا يتجاوز علم النفس الاجتماعى استاتية (ثبات)علم النفس العام فى النظر إلى ما هو اجتماعى .

فعلم النفس العام كان يركز اهتمامه على الفرد وسلوك الفرد وما يترتب على هذا السلوك من استجابات ، وما يخضع له من قوانين ، بغض النظر عن كافة المتغيرات الأخرى التى تشكل شخصية الفرد كالبيئة والمجتمع والثقافة ومحددات الوراثة ؛ ولهذا كان يعمد إلى تثبيت هذه المتغيرات وعزلها عن سلوك الفرد.

وهكذا كان ينظر علم النفس العام إلى الإنسان بوصفه ظاهرة نفسية أو سلوكية مقطوعة الرأس ومعزولة عما هو اجتماعى.

الأمر نفسه بالنسبة لعلم الاجتماع ؛ حيث كان ينظر إلى الإنسان كموجود اجتماعى ، ومن ثم يدرس المبادىء والقوانين التى تحكم الصيرورة الاجتماعية دونما تعرض لما هو نفسى فى تشكيل المجتمع والجماعة والمنظمة ، أى دونما إعطاء لمتغيرات الشخصية ، ومكونات الفرد النفسية أى دور فى عملية التغيير الاجتماعى ، وفى بناء الأسرة وفى تشكيل سلوك الفرد .

وكأن الفرد من هذا المنظور كائن اجتماعى فحسب معزول عمّا هو نفسى !

وهذه النظرة الأحادية فى تناول الظواهر الإنسانية المركبة هى التى وصمت علمى النفس والاجتماع بالاستاتية فى تناولها للظواهر الإنسانية ذات الطبيعة الديناميكية.

وقد استطاع علم النفس أن يحقق تطوراً كيفياً فى تطوره من النزعة البيولوچية عند ماكدوجال McDougall إلى السلوكية عند ألبورت إلى التحليلية النفسية عند فرويد إلى تطبيق مبادىء الجشطلت حيث النظر إلى الإنسان « ككل دينامى » .. محصلة ختامية لتفاعل ما هو عضوى ونفسى على أرضية مما هو اجتماعى .

وهكذا تنكشف الحقيقة الإنسانية ، لا بوصفها نفسية خالصة ، ولا باعتبارها اجتماعية خالصة ، وإنما هى نفس – اجتماعية . وهذه الحقيقة النفس – اجتماعية هى ميدان علم النفس الاجتماعى ، الذى يشير حتى اسمه إلى التقاء ما هو نفسى مع ما هو اجتماعى .

ويرتبط علم النفس الاجتماعى بعلم الأنثروبولوچيا ، ذلف إلعلم إلذى وحرر الأنواع الإنسانية ، وتتركز اهتماماته على أن الإنسان كائن فريد فى تكوينه يولد وهو مزود بتنظيم عقلى وضمير أخلاقى وخيال خصب ، ويترتب على هذه المعطيات « قدرة الإنسان على الكلام والتفكير وخلق النماذج الثقافية والاحتكاك بالآخرين والتفاعل معهم ونقل مهاراته وسلوكه وثقافته المتنوعة إلى الأجيال المتوارثة بغير توقف أو انقراض » ، ومن ثم كان على علم النفس الاجتماعى أن يخوض فى هذا المجال كى يتوصل إلى فهم أعمق للإنسان ولا سيما فى المجتمعات البدائية . ولعل من أهم هذه الدراسات دراسات مرجريت ميد على المجتمع البدائى فى سهول غينيا الجديدة .

والباحث فى علم النفس الاجتماعى يجد أن مجالات بحثه ودراسته للإنسان لتستوعب فروع من العلوم كالإثنولوچيا « وإثنوجرافيا» * والسياسة والاقتصاد والفلسفة إضافة إلى عدد من المجالات التى تتمثل فى :

التربية والتعليم

حيث يكشف علم النفس الاجتماعى عن طبيعة العملية التربوية ، وما يكتنفها من تفاعلات دينامية سواء داخل الفصل أو خارج الفصل أو المدرسة ، ويقدم حلولاً إنشائية لكثير من المشكلات النفسية والاجتماعية داخل المجتمع المدرسى كمؤسسة تعليمية .

---

* الإثنولوچيا : هو علم الشعوب ، ويبحث في الثقافة الإنسانية والعادات والعلاقات الاجتماعية وذلك من وجهة النظر التكوينية ، أي من حيث تاريخ النشأة والتطور.

* إثنوجرافيا : العلم الذى يقارن بين الثقافات الإنسانية من زاوية جغرافية ، فالجغرافية هى قدر الأمم.

الصحة النفسية والعلاج النفسى

حيث يتكشف علم النفس الاجتماعى بوصفه نقطة الالتقاء الحقيقى لما هو نفسى وما هو اجتماعى ، وعن طريق مناهج بحثه التجريبى والكلينيكى يقدم تشخيصاً للاضطرابات التى يتصدى لمعالجتها ، ويقدم أيضاً طرائق للعلاج سواء عن طريق الدراسات العميقة لحالة فردية أو عن طريق معرفة العلاقة السببية وتفسيرها وتأويلها والوصول إلى القوانين أو المبادئ الفهمية التى تحكمها .

وعن طريق علم النفس الاجتماعى ، يمكن تنظيم الجماعات العلاجية والجماعات السوسيومترية لمعرفة ديناميات الجماعات فى كافة المجالات التربوية والاجتماعية والنفسية.

مجالات الخدمة الاجتماعية

يرهص بحقائق لكثير من المجالات النفس الاجتماعية ، ولاسيما ما يختص بالتفاعلات الدينامية بين الفرد والجماعة ، وما يسفر عن هذا التفاعل من نتائج نفسية واجتماعية.

ويقدم مبادئ تفسيرية تفسر كثيراً من الصراعات والاضطرابات السلوكية والاجتماعية والنفسية داخل المؤسسات التعليمية أو المصانع أو السجون وما إلى ذلك ، ومن شأن هذه المبادئ التفسيرية أن تتيح للأخصائيين الاجتماعيين والنفسيين فهماً أعمق للظواهر النفسية والاجتماعية كالجماعة ودينامياتها ، وكسيكولوجية القيادة ، وأبعادها وعواملها ، وما يتصل بالروح المعنوية للأفراد وعوامل إعلائها أو تدهورها ، وما يتصل بديناميات الجماعات العلاجية وكيفية التشخيص وطرق العلاج.

القوات المسلحة

لعب علم النفس دوراً بارزا فى الحروب ؛ بخاصة فى الحربين العالميتين : الأولى والثانية :

وترجع أهمية علم النفس الاجتماعى فى كشفه النقاب عن أن الحرب ، أى حرب ، هى حرب نفسية ، فأنت مهزوم يوم أن ينال منك المعتدى نفسيًّا ، ويقنعك على نحو نفسى بأنك ضعيف ولن تقوم لك قائمة ، فكل الحروب قديمة أو حديثة هى حروب نفسية يكون فيها الانتصار لمن يصمد ولا ينهزم نفسياً.

وأى حرب هى فرد أولاً وأخيراً ثم معدة حربية .. وهنا يلعب علم النفس الاجتماعى الدور الأساسى فى تعبئة الأفراد والجماعات وتكوين المقاتل الجسور المتزن

نفسياً وانفعالياً ، والمضحى بنفسه من خلال قيم ومبادئ واضحة ومتميزة.

ولدراسة الجماعة الحربية أهميتها فى القوات المسلحة فهى الجماعة الأولية التى يلتف حولها الجنود ويتمركزون ، ومن هنا كان توجيه القادة والأفراد نحو إعلاء شأن الجماعة وتماسكها من أهم واجبات علم النفس الاجتماعى فى المجال العسكرى.

مجال الإعلام

الاعلام بكافة أنواعه ومناشطه هو الوسيلة الوحيدة للتعبير عن التوجهات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وتكمن قيمة الإعلام فى خلق الثقة المتبادلة بين هذه الأجهزة وبين الجماهير . ومن ثم لابد من معرفة سيكولوجيات الجماهير وحركة الأغلبية الصامتة وهديرها الذى لا يرد.

ولإخصائى الإعلام دور فعال فى إعلاء الروح المعنوية عن طريق المعلومة الصادقة والفكرة الواضحة وربط الأفراد بقادتها وبتوجهات النظام وضرب الشائعات والدعايات المغرضة وكافة أشكال الحرب النفسية.

وهكذا يعتبر علم النفس الاجتماعى القاسم المشترك لكافة مجالات الحياة لما يقدمه من تفسيرات وحلول إنشائية لمشكلات الحياة.

نشأة علم النفس الاجتماعى

نشأ علم النفس ، شأنه شأن كثير من العلوم فى أحضان الفلسفة .. فقد اهتم فلاسفة اليونان بوجود الإنسان وبجوهر طبيعته البشرية ، وبمعيارية الخير والشر ، وبصلات الفرد الاجتماعية وعلاقاته بالسلطة الحاكمة وأنواع الحكومات والنظم الاجتماعية والطبقات الاجتماعية وما إلى ذلك من موضوعات أرهصت ومازالت ترهص لعلماء النفس والاجتماع بكثير من الأفكار.

ويعتبر افلاطون (٤٢٧ – ٤٤٧ ق.م) من أوائل الفلاسفة الذين اهتموا بالطبيعة الإنسانية ، وعلى أهمية البيئة فى تشكيل طبيعة الفرد الاجتماعية ، وأكد ذلك فى كتابه الفذ « الجمهورية » تلك التى حصرها فى طبقات ثلاث : الحكام والجند والشعب ، أما الحكام فينبغى أن يكونوا من الفلاسفة ، لأن الفيلسوف « هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يتصور القوانين العادلة تصوراً علميّاً » (١) وأكد أفلاطون ضرورة تجنيد المرأة ، وشيوعية النساء والأولاد.

ومن بعد أفلاطون جاء أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) الذى أكد أن الإنسان اجتماعى بطبيعته ، وقد نبه إلى أهمية التواصل بين الناس ، وركز على أهمية الأسرة والجماعة ، فالإنسان حيوان اجتماعى بالطبع « والذى لا يستطيع أن يعيش فى جماعة أو الذى ليست له حاجات اجتماعية لأنه يكفى نفسه بنفسه فهو إما بهيمة أو آلة» (٢)

وقد أكد أرسطو أهمية المحددات البيولوجية ، ومنذ ذلك الوقت بدأت ثنائية البيئة والوراثة . وانتقلت المشكلة إلى القيم التى تحدد سلوك الإنسان . فذهب هوبز Hobbes ، (١٦٥١) إلى أن الإنسان شرير بفطرته وأنه أنانى يؤثر نفسه على الآخرين ، وأنه لا صلاح للمجتمع إلا إذا حد المجتمع من أنانية الفرد ، الذى ينزع دائماً فى سلوكه إلى ما يحقق له اللذة والمنفعة.

وعارضه فى ذلك جان جاك روسو Rousseau فى كتابه « العقد الاجتماعى » و « وإميل » .

---

(١) يوسف مكرم : تاريخ الفلسفة اليونانية : دار المعارف ، ص ١٠٥

(٢) يوسف مكرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، دار المعارف ، ص ١٠٥

والفكرة المحورية فى فلسفته : إن الطبيعة فى جوهرها خيِّرة ، والمدنية مصدر كل رذيلة وكل اغتراب للإنسان ، وفطرة الإنسان فى صميمها خير محض ، ولهذا يستهل « روسو » كتابه إميل بهذه العبارة « كل شىء هو خير حين يخرج من بين يد الخالق ، ويفسد كل شىء على يد الإنسان » .

ومعنى هذه العبارة أن الحضارة أو المدنية فى نظر روسو تفسد ما فطر عليه الإنسان من خير ، وتفصله عن الطبيعة ، وتجلب إليه كل الرذائل التى تغربه عن طبيعته الأصيلة.

ولهذا يغالى روسو فى التركيز على ارتقاء الشعور والوجدان على حساب العقل ومناشطه لدرجة أن من أقواله الشهيرة ما نصه « إنى لأصرح فى يقين أن التفكير مناقض لطبيعة الإنسان ، وأن الرجل المفكر حيوان سافل وأن الخير للناس أن يطرحوا العقل جانباً ، وأن يعمدوا إلى رياضة القلب وتنمية مشاعر المحبة فى أحضان الطبيعة.»

وقد اتخذ البحث فى السلوك النفسى والاجتماعى منحى مغايراً فى كتابات مونتسكيو Montesquieu الذى أكد أهمية دور البيئة الطبيعية فى تشكيل سلوك الفرد ، ولقد أكد هذا الرأى هيلباش Hellpach فى كتاب له بعنوان الجغرافيا النفسية.

وبظهور كتاب أصل الأنواع لداروين (١٨٥٩) تأثرت نشأة علم النفس الاجتماعى بهذا الاتجاه الجديد .

ومع بداية القرن العشرين بدأ علم النفس الاجتماعى يبزغ كعلم ؛ حيث نشر ماكدوجال كتابه الشهير « مقدمة فى علم النفس الاجتماعى » وبظهور هذا الكتاب بدأت مشكلة الدوافع والغرائز تحتل موقعاً فى علم النفس الاجتماعى ، فقد أضفى ماكدوجال على علم النفس طابعاً بيولوجيًا ، ثم كان معمل فونت Wundt (١٨٣٢ – ١٩٢١) الذى أسهم إلى حد كبير فى تدعيم البحث التجريبى لعلم النفس الاجتماعى ، واصطبغ علم النفس الاجتماعى بالنزعة السلوكية على يد ألبورت ، وبالتحليل النفسى نتيجة لتأثيره بنظريات فرويد وبالمبادئ الجشطلتية وبالنظريات المعرفية والسياسية والاقتصادية.

وهكذا اتجه علم النفس الاجتماعى من إطاره الفلسفى الذى يعتمد على وصف كيفية حدوث الظواهر ، لا تعليل حدوثها ، الى العلم حيث التناول العلمى للظواهر النفسية والاجتماعية بمناهج البحث العلمى وطرائقه.

أهمية دراسة علم النفس الاجتماعى

تكمن أهمية علم النفس الاجتماعى فى محاولاته تعليل أسباب أزمة الإنسان المعاصر ورصدها وإخضاعها للدراسة العلمية الدقيقة ، وتتمثل بعض جوانب أزمة الإنسان المعاصر فيما يلى :

(١) حربان عالميتان كبيرتان فجرهما الإنسانى فى أقل من ثلاثين عاماً ، وبسببهما تمزقت معنويات الإنسان ، وجعلتاه يشعر بعجز القيم السائدة عن إنقاذه من ويلات الحرب ودمارها الرهيب .

(٢) تفجر معرفى استلزمته ضرورات الحرب وضرورات السلام ، امتد ليستوعب كافة مناشط الإنسان وتمثل فى ثورة المعلومات ، وفى الطاقة الجبارة ، بكل مخاطرها وإيجابياتها ، وفى تكنولوجيا المعلومات وقد أدى هذا التفجر المعرفى إلى زيادة الإنتاج ، وظهور ما سمى بظاهرة الأتوميشين، وظهور الإنسان – الآلة.

(٣) مذاهب فلسفية وفكرية اتسمت بالكلية والشمول ، كفلسفة الحضارة وفلسفة التطور وفلسفة الحياة ، وقد أسهمت جميعاً بشكل أو بآخر فى تحويل الإنسان إلى كائن لا وزن له ، إلى إنسان لا حول ولا قوة له ، إلى ذرة إنسانية ، إلى رقم فى إحصاء كبير ، إلى موجود فى ذاته ، كما يسميه سارتر.

(٤) أيديولوجيات عقائدية اتسمت بالتسلط والقطعية وجمود الفكر والتعصب والتمييز العنصرى والحض على العدوان : وتمجيد القوة : ومعاداة الأفكار الأخرى، وتمثلت هذه الأيديولوجيات المذهبية فى النازية والفاشية فى الثلاثينيات والأربعينيات . وفى الخمسينيات كانت « الحرب الباردة » بين المعركين ، ثم ظهرت بعد ذلك أشكال متعددة من التعصب وجمود العقل والتفكير القطعى فى أنحاء شتى من العالم.

(٥) احتجاجات على وضع الإنسان وموقفه تمثلت فى كتابات المفكرين وعلماء النفس والاجتماع : وتمثلت فى البحث عن الجوانب الإيجابية فى الإنسان حيث الفاعلية والاستمرارية ، وتأصيل القيم : واستثارة كوامن المعنى وتأكيد حرية الإنسان وتساميه وسعيه الدؤوب نحو تأكيد ذاته.

(٦) أيديولوچيات جديدة ، ومراكز قوة ظهرت بعد الحرب العالمية الكبرى صاحبتها حروب هنا وهناك : وبؤر للصراع والتوتر فى أنحاء شتى من العالم مثل فيتنام ، كوريا الشمالية وايران والعراق ولبنان .. الخ . كل هذا حدث كما لو كان فى داخل الإنسان شىء انتحارى يدفعه إلى الحروب وتدمير نفسه.

(٧) ومع نهاية الثمانينيات من هذا القرن بدا أن هذا العالم يعيد – ومن جديد– تشكيل أوضاعه ، وأن هناك حركة تسويات كبرى لأوضاع اجتماعية ونظم اجتماعية وسياسية وأيديولوجية راسخة.

وبدأ الزلزال سوفيتى الصنع عن طريق البروسترويكا ، يهز أوضاعاً ثابتة وراسخة فى الاتحاد السوفيتى ، واجتاحت رياح التغيير أوضاعاً ثابتة راسخة فى الدول الشرقية ، فلقد خرج العفريت من القمقم وانطلقت الأغلبية الصامتة ، بهديرها الذى لايصد ، تعيد ومن جديد تشكيل أوضاعها على طريق الحرية والديمقراطية والاقتصاد الحر.

وسيقف علماء النفس الاجتماعيون طويلاً أمام ما حدث فى الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية محاولين إعطاء تفسيرات علمية لحركة الشعوب واتجاهاتها.

إضافة لما سبق .. فإن أهمية علم النفس تمتد لتستوعب مجالات شتى فى حياتنا الاجتماعية والنفسية ، لعل بعضها يتمثل فى :

العولمة : Globalism

فى نهاية الثمانينيات ، وبالتحديد فى عام ١٩٨٩ سقط حائط برلين ، وكان سقوطه بداية منبئة بأفول الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق ووسط أوروبا ، حيث انطلقت الثورة فى كل مكان فى هذه الدول تنشد الحرية والديمقراطية والتحول الاقتصادى.

وبدا واضحاً أن العالم فى حاجة إلى رؤية جديدة ، إلى رؤية مستقبلية تستهدف إيجاد حلول جديدة لمشاكل عالمية غير تقليدية.

وظهرت مفاهيم جديدة تحاول بلورت مظاهر الثورة المعلوماتية والتقدم التكنولوچى المتسارع وحركة المتغيرات فى عالم اليوم ، وتمثلت هذه المفاهيم فى العولمة Globalsim والكونية Universalism والاعتماد المتبادل Interdependence

ولعل نقطة البدء فى استخدام مفهوم العولمة جاءت إثر انهيار الاتحاد السوفيتى،

وتحول دول شرق ووسط أوروبا إلى الاقتصاد الحر ، وخروج العالم من الثنائية القطبية إلى تعدد الأقطاب .

أما مفهوم الكونية فقد جاء نتيجة للثورة العلمية والتكنولوچية ، تلك التى أتاحت للإنسان رؤية الكون رؤية علمية ، بغزو الفضاء ، حيث أمكن رؤية الأرض من خلال الكون ، فبدت وكأنها وحدة واحدة بلا حدود أو تقسيمات ، الأمر الذى يلزم عنه « الاعتماد المتبادل » بين الشعوب والأمم ، وضرورة حل المشكلات الإقليمية فى إطار عالمى والمشكلات العالمية فى أطر إقليمية.

غير أن هذه الثورة الكونية تفتقر إلى وضوح الرؤية ، فقد أشار تقرير روما لعام (١٩٩١) إلى إن عالم اليوم يمر بمرحلة الثورة الكوكبية ، وهى ثورة متميزة عن الثورة الزراعية والثورة الصناعية والتعصبية والدوجماطيقية ، وقد تمثلت تلك اللاعقلانية وذلك التعصب والدوجماطيقية فى حرب الخليج ، وبشاعة التطهير العرقى فى دول البلقان ، والعنف الوحشى فى الصومال وعمليات الإبادة الجماعية فى رواندا، وظهور الحركات الفاشية الجديدة فى أوروبا ، وتصاعد النزعات التعصبية على نحو غير مسبوق فى إسرائيل .

وقد ولدت ثورة المعلومات والاتصالات ثورات مقابلة فى عالم الاقتصاد ؛ ذلك أن مفهوم العولمة استخدم فى بداياته لوصف بعض الأوجه الرئيسية للتحول الحديث فى الاقتصاد العالمى.

غير أن آثار العولمة بدأت تمتد لتستوعب مناشط الإنسان المعاصر ، ولا سيما الثقافية منها ، وأن الصراعات القادمة ستكون صراعات ثقافية.

ويعبر عن ذلك هنتجتون Huntington فى كتابه « صدام الحضارات » بقوله إن الصراعات القادمة ستكون بين شعوب تنتمى إلى كيانات ثقافية مختلفة .. وإن الصراعات الثقافية هى الآن أخطر ما كانت عليه فى أى وقت فى التاريخ .. وإن الصراعات المستقبلية سوف تشكلها عوامل ثقافية أكثر منها عوامل اقتصادية أو أيدولوچية..

وتاريخ الصراع عنده بدأ بين الملوك والأباطرة ثم بين الشعوب ، ثم بين الأيديولوچيات فى الحرب الباردة ، والآن الصراع هو صدام بين الحضارات ...

ويستشهد هنتجتون بفوكوياما الذى يرى أن غلبة الليبرالية الرأسمالية على كل شئون العالم قد بدأت بعد سقوط حائط برلين ، وأن على الهويات الثقافية أن تذوب فى الهويات الثقافية الكبرى .

ورؤية هنتجتون تحض علي العدوان ، وتدعو إلي الصدام بين الحضارات ... بين الثقافات ، غافلة عن أن التفاعل بين التمايزات الثقافية وليس « الصراع » الثقافي بين الأمم هو الذي يقدم إبداعاً لحلول جديدة ، لمواجهة مشكلات عالمية غير تقليدية ، فلكل مجتمع هويته الثقافية وآرائه الحضارية الفريدة ، التي لا تذوب أو تتلاشي بتلاشي المسافات بين الأمم.

ها هنا يصبح الكشف عن منابت الثقافة المصرية ، واستجلاء محتوياتها المتميزة أمراً لا مناص منه للحفاظ علي الهوية القومية ، كجزء من هذه الثقافة التي شكلت أبعادها « ثوابت جغرافية » ثرية التنوع « ومتغيرات تاريخية » فريدة في نوعها.

الإرهاب Terrorism

يموج العالم بتيارات عنف وإرهاب مخضب بالدماء ، وهذا الإرهاب ليس ظاهرة مصرية ، أو عربية أو إسلامية ، إنما هو ظاهرة عالمية لها أبعادها الثقافية، ودوافعها النفسية ، وبواعثها الاقتصادية والاجتماعية وأهدافها السياسية.

وهذا النوع من الإرهاب عدو للحضارة ، عدو للتقدم ، يتسم بالخسة والغدر، يستمرئ النيل من الأبرياء دون ذنب أو جريرة.

ولعل في انفجار المركز التجاري في اكلاهوما (١٩٩٥) ، وحرب الكنائس في إيرلندا ، ومجزرة الأقصر في (١٩٩٨) وتفجير سفارتي أمريكا في تنزانيا وكينيا (١٩٩٩) خير شاهد علي ضراوة الإرهاب وعالميته .

وقد استفاد الإرهاب من التطور العلمي والتكنولوچي ، فالعولمة الاقتصادية أتاحت فرصاً للتحويلات المالية بغير حدود ، وغسل الأموال ، وتحويلها من مكان إلي آخر بمجرد نبضة إلكترونية.

مقدمة فى مناهج البحث

لعل من أهم الخصائص التى تميز عصرنا هذا ، أنه عصر العلم والتقدم التكنولوچى الهائل ، الذى يمتد ليستوعب كافة مناشط الإنسان ، فهناك ثورات علمية جبارة فى وسائل الاتصال والمواصلات ، وهناك تفجر علمى متواصل فى عالم المعرفة والمعلومات وكيفية تدوينها ورصدها وتخزينها ، والاستفادة من نتائجها ، وهناك وثبات تكنولوچية اختزلت المسافات الزمنية للإنسان بالخروج من الأرض بجاذبيتها إلى كواكب السماء ، حيث بدت الكرة الأرضية وكأنها عالم واحد بغير حدود أو تقسيمات مصطنعة إنسانياً.

وهناك تقدم علمى فى عالم الحواس الآلية والإليكترونية ، بلغت بالانسان إلى اختراع شبكة الشبكات الإليكترونية أو الإنترنت .

وهناك ثورات علمية فى عالم الچينات الوراثية والهندسية ، تنبئ نتائجها بمستقبل أفضل للإنسان على الأرض .

وهناك ثورة علمية فى مجالات الفضاء والأقمار الصناعية ، لدرجة أصبحت معها السماء مفتوحة . والعالم كله أشبه ما يكون بقرية تكنولوچية واحدة لا انقسام فيها؛ الأمر الذى يلزم معه أن يكون هناك تعاون وتسامح بين الناس ، على الرغم مما بينهم من تباينات فكرية وثقافية وعقائدية.

وهذا التقدم الذى نعيشه هو نتيجة متواصلة العطاء لعصر التنوير Enlighten-ment الذى يؤرخ له المؤرخون بالنصف الثانى من القرن التاسع عشر.

وكانت مهمة فلاسفة التنوير تأكيد سيادة العقل ، باعتباره السيد الذى ينبغى أن يطاع ، ولهذا فضلوا الفلسفة عن الميتافيزيقا التقليدية ، لتقتصر مهمتها فى البحث فى العالم وفى الوجود الإنسانى ، الأمر الذى لزم عنه تأسيس العلوم والفنون على السببية وليس البحث فيما وراء الأسباب .

وقد تأثر فلاسفة التنوير بمفكرين عظيمين ، هما :

جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤)

ونيوتن (١٩٦٣ - ١٩٢٧) .

بحث جون لوك فى أصل الأفكار فى كتابه« محاولة فى الفهم الإنسانى » فردها إلى معطيات التجربة الحسية ، فالنفس فى الأصل كلوح مصقول ، صفحة بيضاء Ta-bala Rasa ، وأن التجربة هى التى تنقش فيها المعانى والمبادئ جميعاً.

إن لوك يدعونا إلى الاهتمام بعالم التجربة ، وبتقبل حدود عقولنا ، وأن نبحث عن اليقين فى نفوسنا ، ولننظر إلى هذه النفس ، والتى من خلالها سنعرف أن إدراكنا محدود ، ولنتقبل حدود العقل ولندرسه كما هو ، لنعرف كيف يعمل وأن نكون على يقين بأنه « لا يوجد فى العقل شيء ما لم يكن من قبل فى الحس » وأن عقلنا قادر على كشف اليقين والحقائق ، التى يتوصل إليهما الذهن باستنباطات مستمدة من الأفكار التى نكتسبها عن طريق الإحساس والتفكير .

أما إسحق نيوتن فقد كان لمنهجه العلمى ولمكتشفاته أثر فى فلاسفة التنوير .. جاء اكتشافه للجاذبية مؤيداً للمذهب الآلى وموطداً للثقة فى المنهج الرياضى فقد استدل على مبدأ يفسر تماسك أجزاء الطبيعة ووضع قانوناً كليّاً استخرج منه بالقياس نتائج متفقة مع التجربة ، لقد أصبحت الطبيعة موضوع العقل فى عصر التنوير حيث ارتبطت بالوظيفة النقدية للعقل فى إطار من الملاحظة والتجربة ، دون تجاوز لحدودها إلى ما وراء الطبيعة ، ولهذا كانت الغاية القصوى تكمن فى الوصول إلى منهج علمى يستطيع الإنسان من خلاله أن يكون سيداً ومسيطراً على الطبيعة باعتبارها مجال ملاحظته وتجاربه.

وقد أدى التقدم العلمى فى القرن السابع عشر إلى الثقة فى الطبيعة وإلى إمكان التقدم المستمر فى القرن الثامن عشر ؛ حيث تقدمت العلوم الفيزيائية الرياضية بفضل منجزات نيوتن ، ومرت الكيمياء على يد لافوازيه (١٧٤٣ - ١٧٩٤) بفترات ازدهار إبداعية وازدهرت علوم النبات والحيوان ووظائف الأعضاء ومهد مونتيسكو لعلم الاجتماع ، وأفكار جون لوك لعلم النفس ، وانطلقت الأفكار معبرة عن عصر التنوير ووضع كانط شعار عصر التنوير بقوله المأثور « ..... كن جريئاً فى استخدام عقلك » وأصبح هذا العصر بفضل كتابات كانط وفولتير وجان جاك روسو وديدرو وغيرهم هو التمهيد الحقيقى للتقدم العلمى فى القرن العشرين وللقرن القادم أيضاً .

وهنا لنا أن نتساءل عن الخصائص التى تميز التفكير العلمى . ولعل من أهم هذه الخصائص :

أولاً : النسبية :

إن العلم نسبى غير مطلق ، وهذه النسبية سر تقدم العلم .. ولهذا فهو جزئى

ومحدود وقائم فى الزمان ففى مجال العلم لا توجد حقائق مطلقة بذاتها أزلية وأبدية، بل إن كل حقيقة علمية تفضى إلى حقائق علمية أخرى ، ومهما بدا فى أى وقت أن العلم قد وصل فى موضوع معين إلى رأى نهائى مستقر .. فإن التطوير سرعان ما يتجاوز هذا الرأى ويستعيض عنه برأى آخر جديد ، والحقائق العلمية التى نطلق عليها لفظ موضوعية إنما هى فى حقيقة أمرها ذات عبور ذاتى ، فهى ذاتية لا تبلغ حد الموضوعية المطلقة إلى أن نتجاوزها إلى حقائق أخرى ، ولهذا يقول سارتر : إن الموضوعية لابد وأن تعانى نوبة من الذاتية ، وهذا سر تقدم العلم الذى هو موضوع العقل والتجربة بأدواتها ومقاييسها ، وعن طريق مناشط العقل نبلغ إلى حقائق تكون ممهدة لبلوغ حقائق أخرى ، فهندسة إقليدس كانت فى عصرها والعصور التى تلتها قمة الإبداع العقلى ، ولكن التقدم تجاوزها إلى حقائق علمية أكثر تقدماً ، فلا يوجد فى مجال العلم إلا ما هو محدود ومتغير وجزىء فى سبيله إلى التطور كصيرورة لا تعرف التوقف .

ثانياً : التراكمية :

العلم معرفة تراكمية ، فكل معرفة علمية تأتى انطلاقاً من معارف جديدة لتحل محل المعرفة السابقة ، والوضع الذى يقبله العلماء فى أى عصر هو الوضع الذى يمثل حالة العلم فى ذلك العصر بعينه ، وتصبح النظرية العلمية السابقة بمجرد ظهور الجديد شيئاً تاريخيّاً ؛ أى إنها تهم مؤرخ العلم لا العالم ذاته ، وهذا مردود إلى نسبية العلم ومحدوديته وإلى قابلية العقل إلى التطور والارتفاع بالإنسان إلى ما يجاوز وضعه فى مرحلة زمنية بعينها إلى مراحل أكثر تقدماً ؛ فالعلم فى حركة دائبة ، ومن ثم دليل على حيوية الإنسان ونزوعه المستمر إلى التطور والإبداع الذى هو جوهر وجود الإنسان ، فالإنسان يولد وهو مزود بعقل فريد هو أعدل الأشياء قسمة بين البشر، وبإمكانات تتواصل بغير انتهاء ومواهب شتى وخيال خصب .. وهذا العقل وتلك الإمكانات هى المعين للإنسان على التطور من خلال التراكم المعرفى القائم فى إطار من المجتمع ، الذى يشجع على العلم والتطور من خلال المنهج العلمى السليم.

ويحدد فؤاد زكريا بعض الخصائص المميزة للمنهج العلمى لا بوصفه المنهج الوحيد الذى يمكن تصوره للعلم ، ولكن بوصفه المنهج الذى أصبح غالباً على الدراسة العلمية دون استبعاد أية تطورات أخرى ممكنة فى المستقبل .

(١) يبدأ المنهج العلمى يبدأ بملاحظة منظمة للظواهر التى يراد بحثها ، وهذه الملاحظة تقوم على انتقاء وعزل الوقائع الأخرى التى تتشابك مع

الظاهرة موضع البحث ، بل إن الظاهرة أو الواقعة سواء كانت نفسية أم طبيعية أم اجتماعية .. فإنه يمكن تناولها من زوايا متعددة وفقاً لاهتمام العالم أو الباحث .

(٢) وفى العلم الحديث نادراً ما تستخدم الملاحظة الحسية .. صحيح أنها فى أوائل العصر الحديث كانت الوسيلة التى يلجأ إليها العلماء من أجل جمع معلومات عن الواقع ، وذلك قبل أن تكتشف أجهزة الملاحظة والرصد الحديثة . وأبسط مثال على ذلك أن ملاحظة الطبيب للمريض فى البلاد المتقدمة طبيًّا أصبحت أقل اعتماداً على اليد وسماعة الأذن ، وازداد اعتمادها على الأجهزة العلمية الدقيقة فى تسجيل ضربات القلب أو على التصوير بكاميرات داخلية أو على الأنواع الجديدة من الأشعة ، كذلك لم تعد ملاحظة عالم الفيزياء تعتمد على العينين بل تتم عن طريق أجهزة علمية وإلكترونية غاية فى الدقة ، ويكون على الفيزيائى أو الطبيب القيام بفحص وقراءة هذه الصور ومحاولة فهمها وتشخيصها فالخطوة الأولى لم تعد حسية خالصة .. بل أصبحت علمية دقيقة تعتمد على القراءة العقلية لها.

(٣) وتأتى بعد الملاحظة مرحلة التجريب حيث توضع الظواهر فى ظروف، يمكن التحكم فيها مع تنويع هذه الظروف كلما أمكن ، وقد أصبحت التجارب العلمية مرحلة ممهدة لمراحل علمية تالية ؛ أى إنها تظل مرحلة أولية فى العلم ، تسفر عن قوانين جزئية عن الظواهر المراد بحثها .

(٤) وفى المرحلة التالية يستعين العلم بتلك القوانين الجزئية ، التى تم كشفها عن طريق تجارب جاليليو وبسكال وهجنز وغيرهم من العلماء السابقين عليه ، لكى يضمها كلها فى نظرية عامة هى نظرية الجاذبية أو قانون الجاذبية بالمعنى العام لهذا اللفظ.

(٥) وفى كثير من الأحيان يلجأ العلم ، بعد الوصول إلى النظرية العامة إلى الاستنباط العقلى ؛ إذ يتخذ من النظرية نقطة ارتكاز أو مقدمة أولى ، ويستخلص منها بأساليب منطقية ورياضية ما يمكن أن يترتب عليها من نتائج . وبعد ذلك يقوم مرة أخرى بإجراء تجارب من نوع جديد لكى يتحقق من هذه النتائج التى استخلصها بالعقل والاستنباط ، فإذا أثبتت التجارب صحة تلك النتائج كانت المقدمات التى ارتكز عليها صحيحة .. أما إذا كذبتها فإنه يعيد النظر فى مقدماته ، وقد يرفضها كليًا أو يصححها

عن طريق إدماجها فى مبدأ عام . وهذا ما فعله آينشتين عندما توصل إلى نظرية النسبية بناء على ملاحظات وتجارب جزئية سابقة قام بها هو وغيره من العلماء ، واستخلص النتائج المترتبة عليها عن طريق « الاستنباط العقلى » . وكان لابد من تجربة لكى يثبت أن هذه النتائج صحيحة ، وبالفعل أجريت هذه التجربة فى حالة الكسوف الشمسى التى حدثت ١٩١٦ ، وأثبتت صحة النظرية التى اتخذ منها آينشتين مقدمة لاستنتجاته.

وهكذا يسير المنهج العلمى من الملاحظة إلى التجربة إلى الاستنباط العقلى وإلى التجارب مرة أخرى ؛ أى إن هناك تداخلاً بين ما هو تجريبى وما هو عقلى ، ومن ثم فإن التجريدية والعقلية فى مجال العلم ليستا مستقلين بل هما مرحلتان فى طريق واحد. وفى أغلب الأحيان يكون العلم فى بداية تطوره تجريبياً ، وعندما ينضج يكتسب إلى جانب التجريبية الصيغة العقلية الاستنباطية.

ثالثاً : البحث عن الأسباب :

إن النشاط العلمى قائم فى البحث عن السببية ، أى عن الأسباب التى تكمن وراء الظواهر ، سواء أكانت ظواهر طبيعية أم نفسية ، وهذا البحث هو الذى يتيح لنا بلوغ بعض القوانين المفسرة لهذه الظواهر ، ومن ثم يزيد من قدرتنا على الإمساك بالظاهرة ، ويتيح القدرة على التنبؤ بما هو قادم .

وفى البحث عن العملية الكامنة داخل الظواهر إرضاءً للتعطش المعرفى الكامن فى الإنسان ، فهو يسأل عن « لماذا » وكيف تحدث الظواهر على هذا النحو ، وفى سؤاله عن « لماذا » معرفة بالأسباب .

أما السؤال « بكيف » فهو يوصلنا إلى الكيفية التى تكون عليها الظواهر وينحو العلم فى العصر الحديث إلى توسيع فكرة السببية ، حيث لا يؤدى ظهور نظرية جديدة إلى إلغاء نظرية قديمة ، بل يوسع من نطاق استخداماتها المستقبلية .

رابعاً : العمومية واليقين :

إن اليقين فى العلم – وإن كان نسبياً – إلا أنه يتصف إلى حد كبير بالعمومية. وعلى الرغم من أنه ليس يقيناً مطلقاً يسرى على كل زمان ومكان ، بل يعمل حساباً للتغير والتطور المستمر .

وهذا اليقين العلمى يتسم بالموضوعية ، بمعنى أنه يرتكز على أدلة مقنعة

وأدوات بحثية جديدة ، إضافة إلى تلك الرؤية الذاتية التى هى المعبر للوصول إلى هذه الحقائق الموضوعية ، التى قد تنقلنا إلى حقائق أخرى أكثر موضوعية وأعم وأشمل تفسيراً .

خامساً : الدقة :

إن العلم له أدلته التى تتصف بالدقة والتجريد والقياس والرياضيات ، ولا غنى للباحث عن استخدام هذه الأدوات إذا ما أراد أن يبلغ إلى الحقيقة العلمية ، وعدم استخدامها معناه إننا نظل فى المرحلة قبل العلمية .. فمنذ العصور القديمة كانت هناك محاولات لدراسة الطبيعة على أسس علمية ، ولكن كان يعيب هذه المحاولات اعتمادها على لغة (كيفية) أى على الكلام عن الظواهر الطبيعية من خلال صفاتها التى تبدو للحواس المعتادة كالحار والبارد والثقيل والخفيف . ولم يبدأ علم الطبيعة بمعناه الحقيقى إلا على أيدى أقطاب الفيزياء فى أوائل العصر الحديث ، وعلى رأسهم جاليليو ، وعلى هذا النحو كانت معظم العلوم ، فالنقلة الهائلة التى حدثت فى العلم تكمن فى أدواته المستخدمة للوصول إلى الحقائق ؛ فلم تبدأ الكيمياء دخول المرحلة العلمية إلا فى القرن الثامن عشر ، عندما طبقت فيها المناهج الكمية واستخدمت فى التعبير عن حقائقها النسب والمعادلات الرياضية .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن : ماذا عن الظواهر الاجتماعية والإنسانية ؟! فإذا كانت الظواهر الطبيعية يمكن التحكم فيها وإخضاعها للأدوات الكمية على نحو دقيق ، فهل من المقدور التحكم فى الظاهرة الإنسانية على هذا النحو ، لا سيما وأن الإنسان كائن فريد فى نوعه ، يتسم بدينامية وتفاعلات ، ويولد وهو مزود بجهاز عصبى موروث وعقل فريد ، وإمكانات وقدرات ، وتتحكم فيه مشاعر وعواطف وانفعالات ، وتؤثر فيه قوى اجتماعية واقتصادية ، إضافة إلى هذا كله .. فإنه كائن فى حالة انسلاخ عن ماضيه ، وتجاوز لحاضره صوب مستقبل يتواصل أمامه باستمرار فكيف يمكن إذاً إخضاعه للتجريب العلمى على نحو كمى ، كما هو الحال فى الكيمياء والفيزياء وغيرهما من العلوم .

مناهج البحث فى علم النفس الاجتماعى

إن التطور العلمى المذهل الذى حققته العلوم الطبيعية ، دفع علماء النفس إلى محاولة الوصول إلى علم نفس عام بقوانين عامة ، كعلم الطبيعة العام ، مما يتضح عنه مدرسة فونت ، ولكن لم يكتب لمعمله النجاح وفشلت المحاولة لعدم التجانس فى البشر ، فاختلافهم أكثر من تشابههم ؛ فكل فرد يمثل هوية فريدة فى نوعها ، بصمة وحيدة غير قابلة للتكرار ، ومن هنا نشأت المحاولة لقياس الاختلافات بين الناس (علم نفس الفروق الفردية) ، ويهدف تحديد مكان الفرد بالنسبة للآخرين (مجموع السكان) من زاوية قدرة بعينها (كالذكاء والقدرة العددية ، الموسيقية .. الخ) .. ولكن عندما تحدد مكان الفحوص بالنسبة إلى الآخرين من زوايا كل القدرات الممكنة فإن ذلك لا يقترب بنا مع ذلك من فهمه .

ومن هنا المحاولة لفهم الفرد عن طريق المنهج الكلينيكى ، أى الدراسة العميقة لحالة فريدة بعينها، الهدف هو الفهم بمعنى أن نتبين الدوافع الغريزية التى كانت خطرة بالنسبة إليه فى طفولته ، والتى ولدت القلق ، هذا الذى أبتعث ميكانزمات دفاعية خاصة مازالت حتى اليوم تكرر نفسها ، وتطبع الشخصية بطابعها المميز وتحكم السلوك فى المستقبل .

وعليه انتهى الأمر إلى منهجين :

(١) *تجريبى سيكومترى (قياس)* : يستهدف الفروق الفردية أى تحديد مكان الفحوص من الآخرين من زاوية قدرة معينة ؛ مما يدخل ضمن التفسير أو التصنيف .

(٢) *كلينيكى* : يستهدف فهم الفحوص .

من الزاوية المنطقية :

منهج الملاحظة الطبيعية الذى يلاحظ الظواهر على الطبيعة هو الأساس :

(أ) إذا استحدثنا الظاهرة لكى نلاحظها مع التحكم فى العوامل (حصر العوامل وتثبيتها جميعاً ، مع تغير عامل واحد فى المرة الواحدة؛ لنتبين كل ما يترتب على ذلك) كان المنهج التجريبى .

(ب) وإذا لاحظنا الظاهرة ، من الزاوية السيكودينامية واضعين فى اعتبارنا أن الحياة ليست سلسلة من الصراعات ومحاولات فضها ، من الرغبات والدوافع والحاجات والحوافز ومحاولات إشباعها من ضياع الاتزان ومحاولة إعادته) .. فإن هذه المحاولات قد تنجح فتكون السوية ، وعندما تفشل يحاول الكائن فض صراعاته على مستوى نكوصى ، وعلى نحو تفكيكى فتكون اللاسوية (أمراض نفسية وعقلية) . فإذا كان النكوص بشكل جزئى تكون الأمراض النفسية ، وعندما يكون النكوص ممعناً إلى البدايات الأولى للطفولة تكون الأمراض العقلية ، وعندما نقوم بملاحظة السلوك من هذه الزاوية الدينامية يكون ذلك هو المنهج الكلينيكى .

أما إذا حرصنا فى هذا المنهج الكلينيكى على الحيادية وإدخال مفهوم (الطرح) فى حسابنا يكون منهج التحليل النفسى ، وعندما نتناول النتائج بالعمليات الإحصائية يكون المنهج الإحصائى .

وتتلخص مناهج البحث فى علم النفس الاجتماعى فيما يلى :

(١) المنهج الوصفى .

(٢) المنهج التجريبى .

(٣) المنهج الكلينيكى .

١ - المنهج الوصفى :

وهو منهج مساعد يمهد للعملية العلمية ، ولكن لا يدخل إلى صميم العملية العلمية ذاتها ؛ حيث يستند إلى :

أ - الملاحظة العلمية .

ب - الطريقة الطولية .

جـ - الطريقة المستعرضة .

أ - الملاحظة العلمية Observation

تعتبر الملاحظة الدقيقة مصدراً للحصول على معلومات أو بيانات عن الحالة المراد بحثها . وكيما تكون الملاحظة على قدر من الموضوعية فى الوصف تستخدم وسائل دقيقة ، لعل من أهم هذه الوسائل كاميرات الفيديو والتسجيلات والحجرات ذات الرؤية الأحادية الجانب ..

ورغم أهمية الملاحظة .. إلا أنها تقدم بهذه الوسائل جانباً وصفيًا من السلوك يحتاج إلى دراسة لفهم دينامياته الكامنة ، ولهذا فإن الملاحظة عملية تمهيدية ومساعدة للفهم والتفسير .

ب – الطريقة الطولية (التتبعية) : Longitudinal

ويقصد بها تتبع سلوك فرد أو عدد محدود من الأفراد فترة طويلة من الزمن فى مظهر معين من مظاهر السلوك الاجتماعى ، وهى تعتمد على ملاحظة أنواع التغير الذى يحدث فى سلوك طفل أو عدد من الأطفال خلال مدة معينة من الزمن : شهر أو شهرين .. سنة أو بضع سنين .

وقد بدأت هذه الطريقة عندما بدأ العلماء يهتمون بأطفالهم أنفسهم ، ويتتبعون مراحل نموهم فى مظهر من مظاهر النمو الاجتماعى والنفسى والحركى والبدنى .

ويعتبر جيزل Gesell من أوائل العلماء الذين اتبعوا هذه الطريقة ، حينما تتبع مجموعة من الموهوبين على مدى ثلاثين عاماً منذ طفولتهم الباكرة .

ورغم أن هذه الطريقة تتميز بالدقة والاستمرارية إلا أنه يعيبها كثرة التكاليف ، كما أن استمرار أفراد العينة فى الدراسة أمر غير مضمون .

جـ – الطريقة المستعرضة Cross - Sectional

ويقصد بها دراسة عينة ممثلة من الأفراد ، فى مرحلة عمرية واحدة بهدف تحديد السمات التى تميز هذه المرحلة العمرية عن غيرها من المراحل ، وتوصف هذه الطريقة بأنها مستعرضة ؛ لأنها تنصب على قطاع عرضى من النمو النفسى ، كما توصف بأنها معيارية ؛ لأنها بواسطة هذه الخصائص التى تسفر عن الدراسة يمكن مقارنة أى طفل بمجموعة من الأطفال ، أو يمكن مقارنة مرحلة عمرية بمرحلة عمرية أخرى .. وهكذا .

نموذج للدراسة الطولية

قام الكسندر توماس وستيلاتشيس ، Thomas , Chess بدراسة طولية على أطفال نيويورك من عام ١٩٥٦ – ١٩٨٦ بهدف الإجابة عن تساؤلات أساسية :

لماذا يختلف الأطفال فى خصائصهم النفسية؟ ، ولماذا يعانى بعض الأطفال من اضطرابات مزاجية وانفعالية ، على الرغم من أن آبائهم يتمتعون باستقرار نفسى وانفعالى لا بأس به ؟، وأخيراً لماذا لا يستجيب بعض الأطفال لقواعد التغذية والنظام

وتدريبات النظافة ، على الرغم من أن أمهات مثل هؤلاء الأطفال يتسمن بالذكاء والوعى الأمومى؟.

وقد تم اختيار العينة بدقة كبيرة ، وتتكون من ثلاث مجموعات :

العينة الأولى :

وتمثل العينة الجوهرية للدراسة (١٩٥٦) ، وتتكون من ١٣٣ طفلاً (٦٦ من الذكور ، ٦٧ من الإناث) ، ٩٩ ٪ من أفراد العينة من الأطفال البيض .

وينتمى أفراد العينة إلى الطبقة الوسطى والعليا ، ومعظم الآباء من مواليد الولايات المتحدة ، أما المستوى التعليمى فيكشف عن ٤٠ ٪ من الأمهات ، ٦٠ ٪ من الآباء من الحاصلين على درجات علمية جامعية وعليا أيضاً ، ١٠ ٪ فقط من آباء العينة لم ينل تعليماً جامعيًا ، ٧٨ ٪ من آباء العينة من اليهود ، ١٥ ٪ من البروتستانت ، ٧ ٪ من الكاثوليك ، ٤٥ ٪ لهم ابن واحد .

العينة الثانية :

انضمت إلى العينة الجوهرية عام ١٩٦١ ، وتتكون من ٩٨ طفلاً (٥٠ من الذكور ، ٤٨ من الإناث) ٨٦ ٪ من أفراد العينة يعيشون فى مستوى اجتماعى واقتصادى منخفض بالنسبة لسكان نيويورك .

واستمرت دراسة هذه المجموعة من ١٩٦١ - ١٩٦٨ .

العينة الثالثة :

تتكون من ٥٢ طفلاً (٣٦ من الذكور ، ١٦ من الإناث وأطفال هذه المجموعة يعانون من تخلف عقلى ضعيف جداً ، يخلو تماماً من أى خلل حركى أو حسى أو نطقى وأيضاً من أى وصمة بدنية Stigmatized مميزة ومعوقة) .

وكان من الواضح ، أن الافتراض النظرى للإجابة عن تساؤلات هذه الدراسة يكمن فى حقيقة الأطفال الذين يتمتعون بسمات شخصية منفردة ومتباينة ، وأن هذا الاختلاف يرجع إلى أمرين :

الأول : إن الاختلاف فى عالم الطفولة يؤدى إلى اختلافات فى ردود الأفعال إزاء مثيرات البيئة ، بمعنى أن أى مثير يحدث فى البيئة ، تكون الاستجابة عليه متباينة بتباين الأطفال ، والنتيجة ردود أفعال متباينة من طفل إلى آخر ، فعلى سبيل المثال قد ينفعل طفل بحدة وعنف إزاء الضوضاء الصاخبة ،

بينما قد ينفعل طفل آخر قد ينفعل انفعالاً بسيطاً .

الثانى : ويرجع إلى احتمالية حدوث تفاعلات جينية خلال تعاقب نمو الجنين Epi-genetic ؛ الأمر الذ يؤدى إلى تفرد الوجود البشرى (نظرية التخلق المتعاقب) ، التى ترى أن الجنين يتكون من خلال سلسلة من التشكيلات المتعاقبة وهى تناقض نظرية التخلق القبلى التى ترى أن جميع خصائص أعضاء الجنين موجودة فى الجرثومة . ولهذا يستخدم الباحثان (توماس وتيس) مصطلح الجبلة Temperament لوصف نمط سلوك الشخص فى الفعل والاستجابة للمواقف والمثيرات .

وللإجابة عن هذه التساؤلات ، استخدم الباحثان أدوات تتمثل فى المقابلات الشخصية لآباء الأطفال ، والملاحظة المقننة ، ومقياس السمات المزاجية الذى يتكون من تسعة تصنيفات سلوكية .

٢ - المنهج التجريبى

يعتبر المنهج التجريبى من أهم المناهج العلمية المستخدمة فى تعليل وبحث وتفسير الظواهر النفسية – الاجتماعية ؛ بمحاولته الكشف عن الأسباب والعوامل التى تكمن وراء السلوك الاجتماعى ، مما يؤدى إلى معرفة القوانين أو المبادىء التى تحكم هذا السلوك ؛ الأمر الذى يتيح القدرة على التنبؤ به ، وضبطه إلى أقصى درجة ممكنة .

ولئن كان المنهج الكلينيكى هو المنهج المنوط به دراسة الحالة الفردية دراسة عميقة مطوقة لكافة جنبات المشكلة ، فإن المنهج التجريبى هو أدق المناهج العلمية فى تناول الظواهر النفس – اجتماعية .

وتسير الدراسة وفقاً لهذا المنهج حسب تسلسل متتابع يبدأ من الظاهرة المراد بحثها ، إلى تحديد المشكلة .. إلى الهدف من دراستها ، فغرض الفروض، التى يستتبعها إجراء التجربة التى تسفر عن نتائج ، يتم تفسيرها كيما نصل إلى القوانين أو المبادىء ، النظرية التى تحكم الظاهرة موضع البحث .

وهذا التسلسل يمثل الخطوات التى ينبغى اتباعها فى دراسة الظواهر النفس – اجتماعية على النحو التالى :

(١) تحديد الظاهرة :

وهنا ينبغى تحديد الظاهرة موضع البحث تحديداً دقيقاً وفصلها عن غيرها من

الظواهر النفسية – الاجتماعية ، وتحديدها فى صورة مشكلة ، تستوجب البحث . ومن أبرز الأمثلة على ذلك ظاهرة اغتراب الشباب أو ظاهرة التسامح الثقافى .

(٢) تحديد المشكلة :

هنا ينبغى تحديد مشكلة البحث التى تحدد بناء على تحديد الظاهرة المراد بحثها، ومن ثم ينبغى على الباحث ضبط متغيرات المشكلة ضبطاً دقيقاً ، وعزل العوامل التى أدت إلى المشكلة .

ومن الوسائل التى تعين الباحث على تحديد مشكلة البحث ذاتية الباحث نفسه ، فما من حقيقة موضوعية نبلغ إليها إلا عن طريق ذاتيتنا ، فاختيار الباحث لمشكلة لها وجود موضوعى فى الواقع الذى يعيش فيه هو اختيار ذاتى يتعمق بخبرته البحثية وبالإطار المرجعى ، أى الأساس النظرى الذى ينطلق منه ، وأيضاً من قراءاته حول الظاهرة المراد بحثها ومن فهمه للدراسات السابقة ، التى قد تكون قد أجريت عن بعض جوانب المشكلة المراد بحثها .

(٣) تحديد الهدف :

ومن أهم أهداف البحث العلمى تحديد الهدف فلا يوجد بحث حقيقى بغير هدف من أجله قام الباحث بدراسته ، ويبرز الهدف من البحث يبرز من خلال التفسير ، والتنبؤ والضبط .

أ – التفسير :

حيث ينبغى على الباحث العلمى أن يتخطى مجرد وصف الظاهرة إلى تقديم تفسيرات لها ، باكتشاف العلاقة السببية الكامنة وراء متغيرات الدراسة . وهكذا يكون نتاج عمله هو تفسير الظواهر لا مجرد وصفها أو رصدها حسبما تتبدى أمامه . والتفسير يتيح له أن يبلغ إلى التعميم ، وعن طريق التعميمات المطردة نصل إلى القوانين أو المبادىء التفسيرية التى تحكم الظاهرة موضوع البحث ، فالعلم فى صميمه وجوهره ليس غير عملية تنظير .

ب – التنبؤ :

إن القوانين الفهمية التى نصل إليها هى التى تتيح لنا القدرة على التنبؤ بما هو قادم ، فالباحث لا يقنع بمجرد صياغة تعميمات تفسر الظاهرة ، بل يريد أيضاً أن يتنبأ بالطريقة التى سوف يعمل بها التعميم فى المستقبل ، إنه يأخذ المعلومات المعروفة

والتعميمات المعقولة ويعبر عنها ؛ بحيث يستطيع أن يتنبأ بحدث مستقبلى أو ظاهرة لم تلاحظ حتى ذلك الوقت . (زهران ، ٣٨)

جـ - الضبط :

والضبط هو التحكم فى بعض العوامل الأساسية التى تسبب الظاهرة ، فلكى نفهم العلاقة السببية ، علينا أن نخضع جميع العوامل المهمة لأدق ضبط ممكن ، أو بعبارة أخرى يتحتم أن نخضع هذه العوامل لتجريب الباحث حيث يتخذ من كل عامل منها بعد الآخر ، وبدوره متغيراً مستقلاً .

٤ - فرض الفروض :

ويمكن تحديد القصد من الفرض بوصفه « تكهناً مؤقتاً » ، وتخميناً ذكيًا يقف بالباحث على حافة المجهول ويستحثه إلى استجلاء غوامضه » ، فعن طريق الفروض يحاول الباحث استكشاف غموض الظاهرة موضع البحث ، وقد تحقق نتائج البحث فروض الدراسة أو قد تنفيها أو تثبتها ، المهم من خلال الفرض أن نستطيع الوصول إلى الحقيقة العلمية .

وغالباً ما تكون الفروض مستمدة من الدراسات السابقة والملاحظات المبدئية التى قام بها الباحث ، وتتضمن تفسيرات مبدئية تحدد العلاقة بين ثلاثة متغيرات .

أ - المتغير المستقل :

وهو المتغير الذى نقيس أثره فى بعض متغيرات الظاهرة موضع البحث .. ومن ثم لا يمكن أن يكون هناك أكثر من متغير مستقل واحد فى تجربة واحدة ؛ لأن الباحث الذى يريد أن يتبين العوامل المحددة للظاهرة ، إنما يتحتم عليه أن يتبين المتغيرات التى تترتب على عامل عامل ؛ أى كل عامل على حدة .

ب - المتغير التابع :

وهو المتغير الذى يتغير بتغير المتغير المستقل ؛ أى إنه المتغير الذى تنعكس عليه آثار المتغير المستقل .

جـ - المتغير الدخيل :

وهو المتغير الذى يحاول الباحث تثبيته ، كما يتخلص من أثره المحتمل على المتغير التابع .

٥ - التجربة :

ومن أجل بلوغ الهدف من الدراسة ، والتحقق من صحة الفروض التى افترضها الباحث ، يقوم الباحث بإجراء التجربة ، محدداً عينة الدراسة Sample والأدوات المستخدمة كالاختبارات Tests مثل الاختبارات الإسقاطية ، كاختبار تفهم الموضوع ، اختبار القلق والذكاء ، الاغتراب وما إلى ذلك من اختبارات تصمم أو تستخدم لقياس الظاهرة المراد بحثها .. أضف إلى ذلك استخدام الباحث لبعض الأساليب الإحصائية التى تتفق وبحثه .

٦ - النتائج :

تأتى مرحلة رصد النتائج عن طريق الدقة فى تفسير وتأويل النتائج التى بلغ إليها ، فالأرقام – أى أرقام – ليس لها قيمة بغير تأويل أو تفسير ؛ فالأرقام فى حد ذاتها غفل لا دلالة لها بغير التفسير الذى يضفى القيمة والدلالة على الرقم .

وعن طريق تفسير النتائج قد تصل إلى تعميمات من شأنها البلوغ إلى المبادئ التفسيرية أو القوانين الفهمية ، التى تحكم الظاهرة موضوع البحث ، وهذا القانون ينبغى أن يكون تصورياً ، أى نظرياً يتصف بالكلية أو بالتعميم والضرورة .

وغاية العلم أى علم هو الوصول إلى القانون الذى ترد إليه الكثرة الكثيرة من المتغيرات .. إلى وحدة النموذج أو النمط الكيفى أو العلاقة المثالية أو القانون التفسيرى الذى يتيح تفسير التباينات المتماثلة فى الواقع العيانى .

ثالثاً : المنهج الكلينيكى :

المنهج الكلينيكى هو الدراسة العميقة لحالة فردية ، أى دراسة حالة فردية بعينها من حيث هى كل لا يتجزأ فى علاقتها بنفسها وواقعها الاجتماعى وما تنطوى عليه من صراعات ، وما تكابده من معاناة ، وما تعيشه من دفاعات نفسية ، ومشاعر قلق أو إثم أو اكتئاب وما إلى ذلك .

وباختصار الهدف هو دراسة الإنسان الفرد من حيث هو كل لا يتجزأ ؛ أى من حيث هو كل عضوى نفسى اجتماعى .

ويعتبر التشخيص هو هدف المنهج الكلينيكى وصميم جوهره .

ويعرض مخيمر (١٩٧٩) لأهم فنيات التشخيص ، كمايلى :

(أ) معطيات تاريخية : معرفة تاريخ حياة الشخص منذ أشهر الحمل حتى الآن، فى المقابلة الشخصية الطليقة .

(ب) معطيات حالية : ملاحظة مباشرة أثناء المقابلة للتصرفات مع الأقوال (تبين مالا يقوله الشخص – وما لا يريد أن يقوله ، وما يتردد فى قوله) .. كل ذلك بالإضافة إلى مجالات حياته الحالية ضمن ظروف البيئة وذلك من خلال المقابلة الشخصية الطليقة .

(جـ) معطيات قياسية : الاستعانة عند اللزوم بالمقاييس المقننة (كلينيكية مسلحة) ، هذا إلى الاختبارات الإسقاطية وملاحظة الاخصائى الاجتماعى أو النفسى للحالة فى سياقها الأسرى أو المدرسى .

(د) معطيات تحليلية : تفسير الأحلام ؛ خاصة التى تتكرر أو التى تكون فى صورة « كوابيس » ، وتفسير الهفوات والحركات البدنية المرهفة التى تصدر عن الشخص أثناء المقابلة .

لب المنهج الكلينيكى – إذاً – هو تاريخ الحالة والملاحظة المباشرة وثمة مراحل ثلاث للتشخيص ، تتمثل فى : تحديد المشكلة فى سؤال محدد أى صياغة فروض العمل حتى يمكن تحديد خطة العمل .. نحصل على معطيات نستخلص منها فى نهاية كل مسيرة دلالتها ، ثم معطيات أخرى تعدل أو تعمق الدلالة ، وهكذا ذهاب ومجىء متصل ما بين التأويل والوقائع فى حركة ، لا ينبغى أن تتوقف من حيث المبدأ وإنما تتوقف لأهداف عملية .

فى المرحلة الأولى ننتهى إلى برنامج العمل ، وفى الثانية نبدأ بدراسة الحالة متجهين فى كل مسيرة تبعاً لما انتهينا إليه عبر معطيات المرحلة الثانية وهكذا أما المرحلة الثالثة فإقامة التشخيص فى مراعاة للمعايير .

ومعايير التشخيص : أهمها معيار التكامل ومعيار التقاء الوقائع ومعيار الاقتصاد، ثم يأتى بعد ذلك معيار الوفرة والدقة ومعيار الخصوبة ومعيار التنبؤ .

وهذه المعايير هى :

(أ) معيار التكامل : بمعنى أن تتكامل هذه المعطيات ضمن الوحدة التاريخية والحالية فى صورة علاقات صراعية مع البيئة ، وبحيث لا تبقى ثمة واقعة واحدة لا تجد لها مكانها ضمن الكل التفسيرى الواحد .

(ب) التقاء الوقائع : بمعنى أن تكون الوقائع من المصادر المختلفة كالأحلام والاختبارات الإسقاطية والهفوات ، ملتقية عند الدلالة نفسها.

(جـ) **معيار الاقتصاد** : بمعنى أن التأويل يكون من المعقولية بقدر ما يرد أكبر عدد من الوقائع إلى أقل عدد من المبادئ التفسيرية .

(د) **معيار الثراء والدقة** : بقدر ما تكون المعطيات ثرية ودقيقة ، يكون التشخيص أمعن صدقاً .

(هـ) **الخصوبة** : بمعنى أن ينطوى التشخيص على جديد ، لم يكن فى الوقائع من حيث هى كذلك .

(و) **التنبؤ** : بمعنى أن يسمح التشخيص بالتنبؤ بما يمكن أن يكون عليه سلوك الشخص فى موقف بعينه .

الفصل الثانى

* الجماعة وديناميـاتها.
* ديناميات الجماعة .
* البحث فى ديناميات الجماعة .
* المدخل السوسيومترى .
* مراحل البحث السوسيومترى .
* الاختبارات السوسيومترية .
* الجماعة العلاجية .
* تماسك الجماعة .
* الروح المعنوية .
* جاذبية الجماعة لأفرادها .

الجماعة ودينامياتها

الفصل الثانى

الجماعة وديناميتها

قديماً قال أرسطو ، وأصاب فيما قال : « إن الإنسان حيوان اجتماعى » ؛ لأنه كائن منتم ، لا يستطيع أن يحيا بمفرده ، بل يحيا منتمياً إلى جماعات متعددة ، تمنحه الشعور بالوجود ، وتفجر إمكاناته ، وتتيح لقدراته ومواهبه أن تتفتح وأن تزدهر» . فانتماء الإنسان إلى جماعات مكون من مكوناته النفسية والاجتماعية ، ومن ثم فالعزلة بالنسبة له تعنى الموت انتحاراً ، أو الالتصاق بالذات والتشرنق فى داخلها حيث ظهور الاختلالات النفسية والعقلية .

ويرتبط انتماء الفرد بجماعة أو بعدد من الجماعات بإحساسه بهويته وبقوته وتماسكه ، فهو ضعيف بنفسه ، قوى بالآخرين ، ولولا الجماعة ما كانت حضارة الإنسان ، فحضارة الإنسان محصلة لاجتماعه وتفاعله وتماسكه وصراعه مع الجماعة . فالطفل حينما يولد يجد المسرح الاجتماعى مهيئاً لاستقباله ، ومن ثم ينشأ وينمو عضوا فى جماعة أولية هى الأسرة ، وحينما يتطرد فى النمو ، تتسع دائرة علاقاته الاجتماعية فيصبح عضوا فى جماعات أخرى جانب جماعته الأولية ، وقد ينفصل عن جماعة ، ولكن لينضم إلى جماعة أخرى ، وقد يعيش حياته متعدد الانتماء إلى جماعات متعددة .

وانتماء الفرد إلى جماعة يحقق له إشباعاً لكثير من حاجاته النفسية والاجتماعية ، فالجماعة تنشأ استجابة لحاجات الأفراد ويتوقف بقاؤها على إشباع هذه الحاجات .

ولعل من بين أهم هذه الحاجات الشعور بالأمان والانتماء ، والحب والإحساس بالتفرد والهوية وتحقيق الذات ، الأمر الذى يؤدى إلى تطور شخصية الفرد بتفاعله مع الآخرين فى سياق من عمية التطبيع الاجتماعى . وإذا لم تحقق الجماعة لأفرادها إشباع هذه الحاجات ، انصرف أعضاؤها عنها وتفككت ، ولهذا فإن من أهم العوامل الموحدة للجماعة ، إعطاء القادة للأعضاء أدواراً متميزة ، تحقق للأفراد الشعور بالانتماء والقوة والهوية ، وتتيح للشخصية أن تبرز إمكاناتها وقدراتها .

ولكل جماعة ايديولوجية معينة ، أى لكل جماعة نسق من القيم والأفكار

والتوجهات والمعتقدات التى تحاول الجماعة أن تبلور شخصيات أفرادها ضمن هذه الصيغة المشتركة ، أو الإطار المرجعى العام للجماعة ، وبديهى أن هذه الوحدة الأيديولوچية للجماعة تعظم أهميتها كلما كان الانضمام الى الجماعة عن طواعية واختيار ورغبة .

وإيمان الأفراد بوحدة أيديولوچية الجماعة ، يؤدى الى وحدة السلوك واتساقه مع أفكار ومعتقدات وتوجهات الجماعة ، وهكذا تمضى الجماعة بالأفراد من إشباع الحاجات الى وحدة النمط المميز إلى وحدة السلوك واتساقه عن اختيار وطواعية.

وقد تتسع دائرة الجماعة الأيديولوچية لتصبح عقيدة قومية ، تتحول الى حقيقة متعالية فوق الفرد ، متجاوزة لحقوقه الأساسية ، ومن هنا يكون وهم الإحساس برسوخ الأنظمة الأيديولوچية . وتعاليها فوق الأفراد وجمودها فكرياً وعقائدياً وتحولها إلى دوجما Dogma مناهضة للتطور والتغير ، ومن هنا قد يعصف الزلزال بهذه الأنظمة ويحولها إلى أشلاء تمهيداً لإعادة البناء ، مرة أخرى ، ومن جديد ، عبر المكاشفة وحرية الفرد .

ونتساءل ما القصد من الجماعة؟

الجماعة وحدة اجتماعية ، تتكون من فردين أو عدد من الأفراد بينهم علاقة صريحة على نحو يسمح بأن يدرك الأنا الآخر كعضو فى الجماعة ، ولكل فرد من أفراد الجماعة دوره الذى يؤديه ، والذى ينظم له علاقاته مع غيره ، ويشتركون جميعاً فى تنظيم معين من المعايير والمعتقدات أو الأفكار ينظم سلوك كل فرد.

وسيان كانت الجماعة أولية أو ثانوية ، صغيرة أم كبيرة ، دينية كانت أم سياسية أو اجتماعية فإن لكل جماعة إطاراً فكرياً أو صيغة مشتركة تنظم تفاعلات الأفراد ، وتساعدهم على أداء أدوارهم وفقاً لها .

وعلى هذا ، فإن دراسة الجماعة ودينامياتها هى نقطة البدء لفهم الإنسان من زاوية اجتماعية نفسية ، فالإنسان كائن عضوى نفسى اجتماعى يعيش ضمن جماعات، يتفاعل مع أفرادها ويشكل سلوكه واتجاهاته من خلالها ، وأن عملية التطبيع الاجتماعى بكل عواملها يستحيل لها أن تتم بغير جماعة ، ولهذا فإن فهم طبيعة الحياة الاجتماعية لا يكون إلا من خلال فهم الجماعة ودينامياتها ؛ أى فهم طبيعة القوى النفسية والعوامل الاجتماعية التى تكمن وراء الجماعة .

ولهذه الاسباب ولغيرها ، راح علماء النفس الاجتماعيون يحاولون فهم الجماعة

من حيث تكوينها ، ومن حيث ما يرتبط بتطورها وفاعليتها من عوامل ، وما يرتبط بتدهورها وتفككها من عوامل ، وكيف تؤثر الجماعة فى إدراك الفرد وفى تفكيره وفى سلوكه ؟ وما الذى يؤدى إلى قوة الجماعة وإلى تماسكها ؟ وكيف تؤثر البيئة الاجتماعية على تشكيل الجماعة وتدوينها ؟

وهل الجماعة هى مجموع أفرادها ، أم أنها محصلة ختامية لتفاعلات أفرادها وانتظامهم فى كل دينامى؟

وتحدد هذه الأسئلة مع غيرها من الأسئلة ، التى لم تطرح ، ما يمكن أن يطلق عليه اسم ديناميات الجماعة .

ديناميات الجماعة Group Dynamics

صيغة اقترحها ليفين Lvin لفهم عناصر القوى الداخلية والخارجية التى تتحكم فى الجماعة .

وبحسب رأى ليفين .. فإن الجماعة كل دينامى ، وهذا الكل الدينامى لا يساوى مجموع أجزائه أو أعضائه ، بل هو محصلة لصراع القوى المتمثلة فى هذه الأجزاء ، ومن ثم فالجماعة أكبر ككيان وتنظيم واتجاه من مجموع أفرادها .

وثمة تغيرات داخلية وأخرى خارجية ، تحدث داخل الجماعة لتأكد دينامياتها.

وتتضح التغيرات الداخلية أثناء نشأة الجماعة وخلال مرحلة إعادة تشكيلها ، وتتبلور هذه التغيرات فى عدم اتزان داخلى ينتج من الصراع بين الأفراد أو بين الجماعات ، فقد يظهر عدم الاتزان فى صورة صراع بين القادة والأفراد ، أو صراع على الاختصاصات ، وقد يأخذ شكل الاختلاف فى أحكام الأفراد تجاه أيديولوچية الجماعة وأهدافها ووسائلها فى تحقيق هذه الأهداف ، أو أثر ظهور أهداف وحاجات جديدة.

أما سبل الجماعة فى إزالة التوتر وفض الصراع ، فقد تنحصر – مثلاً – فى استبعاد العناصر المشاغبة ، أو استبدال القائد ، أو تعديل أيديولوچية الجماعة ، أو اتخاذ الجماعة لكبش فداء وتحميله مسئولية الفشل وما إلى ذلك من وسائل .

وقد تظهر التغيرات الخارجية فى تغير البيئة أو الأفراد أو التغير الشخصى للأفراد .

أما عن التغيرات البيئية فقد تكون تغيرات اقتصادية ، كما كشفت الدراسة التى

قام بها لازار سفيلد Lazarsfield على المتعطلين وتكشف الانكماش ، ومن المؤثرات البيئية التهديدات الخارجية التى قد تزيد من صلابة الجماعة .

وثمة ملاحظة : إن من خصائص الجماعة المصرية توحد الجماهير مع زعمائها فى أوقات الدراما التاريخية . كذلك من ضمن التغيرات الخارجية ما يلحق بالأفراد من تغيرات خارجية ، كما هو الشأن فى حالات الوفاة أو الولادة .

وقد طبق ليفين وتلاميذه هذه الصيغة فى مجالات متعددة كالصناعة ، وفى مكافحة التعصب والتحيز الثقافى وفى تدريب القادة .

ويذكر كارتريت وزاندر (١٩٦٠) ثلاثة استعمالات مختلفة لدينامية الجماعة تشيع بين الناس .. فهناك من يستخدم دينامية الجماعة للدلالة على أيديولوچية أهمية القيادة الديمقراطية ، واشتراك الجميع فى عمل القرارات ، ومدى الفائدة التى يجنيها كل من المجتمع والأفراد نتيجة لمشاركة الجميع فى أوجه النشاط التى تقوم بها الجماعة . ويأخذ البعض على هذه الأيديولوچية مبالغتها فى إعطاء المشاركة مثل هذه القيمة ، ومناداتها بأن الجماعة لا تحتاج إلى من يقودها ويتولى زمام الأمور فيها ، مادام أن الجميع يشتركون على قدم المساواة فى كل ما تقوم به الجماعة من أوجه نشاط.

أما الاستخدام الثانى الذى شاع عن دينامية الجماعة ، فمن اعتبارها مجموعة من الأساليب التى تستخدم فى البرامج التدريبية بقصد تحسين المهارة فى إدارة الجماعات والمؤتمرات والعلاقات الإنسانية ، مثل : لعب الأدوار ، والجلسات الحرة ، والملاحظة والتقييم (التغذية الرجعية) فى عمليات الجماعة ، واتخاذ القرارات وغير ذلك من أساليب .

أما الاستخدام الثالث فينظر إلى الجماعة على أنها مجال من مجالات الدراسة، يهدف تحصيل المعلومات عن طبيعة الجماعة والوصول إلى القوانين التى يخضع لها نمو الجماعة ، وعلاقة الجماعة بالأفراد والجماعات الأخرى وبالمؤسسات الاجتماعية المختلفة .

ويلخص الباحثان أساليب البحث فى ديناميات الجماعة فى أربعة أساليب :

أولاً : الدراسة المجالية :

ويتضمن هذا النوع من الدراسات تعريض جماعة ما - مجال الدراسة - للدراسة ، دون أن يؤدى هذا إلى أى تأثير فى حياة الجماعة ونشاطها ، ويتخذ الباحث

فى هذه الدراسة جميع الاحتياطيات الممكنة ؛ بحيث لا يؤدى وجوده أو ما يقوم به من عمل الى تدخل أو أثر فى حياة الجماعة .

ومن مآخذ هذه الطريقة صعوبة تحديد اتجاه السببية ؛ حيث إن ما نحصل عليه من نتائج فى صورة معاملات ارتباط لا يمكننا من تحديد أى العوامل كان سبباً وأيها كان نتيجة .

ثانياً : التجريب الطبيعى :

وتعتبر هذه الطريقة من الطرق التى حاول استخدامها علماء النفس ؛ للتغلب على صعوبة تحديد اتجاه السببية .

وتوفر هذه الطريقة دراسة الآثار المترتبة على ما تحدثه من تغييرات فى عوامل محددة ، وبهذه الطريقة نستطيع إلى حد ما تحديد اتجاه السببية .

والباحث فى هذه الطريقة لا يقوم بإدخال أى تغيير أو تعديل فى العوامل – أحدها أو بعضها – حتى يقوم بدراسة الآثار المترتبة على هذا التعديل ، وإنما هو يستغل ما يحدثه من تعديلات فى حياة الجماعة ليدرس ما ترتب عليها من آثار .

ومن أهم المآخذ على هذه الطريقة ، أن التغيير الذى يحدث بصورة طبيعية لا يمكن الباحث من فرض سيطرته على العوامل التى يرغب فى ضبطها وتثبيتها . وتتضح هذه الصعوبة إذا أخذنا فى الاعتبار أى تغير يحدث فى الجماعة بصورة طبيعية ، غالباً ما يكون نتيجة لعدد آخر من عوامل ترتبط بتكون الجماعة ونشاطها .

ثالثاً : التجريب المجالى :

حاول الباحثون التغلب على بعض الصعوبات التى تواجه الطريقة السابقة ، خاصة تلك التى تفرض على الباحث أن ينتظر حدوث تغير بصورة طبيعية ، وفى ذات الوقت يكون مجهزاً ومعداً بالبيانات التى تلزمه قبل وبعد حدوث التغير ، وذلك وضع من الصعب تحقيقه ، وكان التجريب المجالى نتيجة هذه المحاولة .

يقوم الباحث فى هذه الطريقة بإحداث التغيير الذى يهدف إلى دراسة آثاره ، بالصورة المناسبة التى يسمح له بإجراء مقارناته ، وضبط سيطرته على العوامل التى يبغى ضبطها أو السيطرة عليها .

ويعتبر تعاون أفراد الجماعة التى يعمل معها الباحث من أهم مستلزمات نجاح هذه الطريقة ، إذ دون هذا التعاون لا يصل الباحث إلى ما يحتاج إليه من بيانات.

وأهم ما يوجه إلى هذه الطريقة من مآخذ أن عملية ضبط المتغيرات التى يود الباحث تثبيتها أو معادلة آثارها ، عملية عسيرة بعض الشىء فى المواقف الطبيعية .

رابعاً : التجريب المعملى :

وتستهدف هذه الطريقة زيادة قدرة الباحث على ضبط المتغيرات المختلفة التى تؤثر فى الظاهرة موضع الدراسة والسيطرة عليها ، بما يمكن الباحث من تغيير ما يود تغييره ، وتثبيته بدرجة أفضل من الطرق السابقة .

ويقوم الباحث فى هذه الطريقة باستخدام الجماعات الطبيعية ، بعد نقلها إلى معمله.

وهنا لا نستطيع أن نفاضل بين الطرق السابقة التى سردناها .. فليست هناك طريقة جيدة وأخرى سيئة طالما التزم الباحث بالدقة فى جمع البيانات ، وطالما التزم بالقواعد الأساسية للطريقة العلمية فى البحث ، والذى نستطيع قوله أن اختيار الطريقة العلمية التى تستخدم فى البحث يتوقف إلى حد كبير على طبيعة المشكلة موضع البحث وأن أفضل طريقة للبحث هى أنسبها لدراسة المشكلة موضع البحث .

المدخل السوسيومترى Sociometry

منهج فى البحث وطريقة فى التحليل والعلاج وأداة لجمع المعلومات والبيانات ابتدعها مورينو Moreno بقصد الكشف عن شبكة العلاقات بين الأفراد من حيث التجاذب أو التنافر ، القبول أو التعارض . وأيضاً من حيث بناء الجماعات سواء كانت جماعات مدرسية أو جماعات عمالية ، أو عسكرية أو علاجية ويستخدم مورينو عدداً من الأدوات لتحقيق الهدف من السوسيومترية ، من أهمها : الاختبارات السوسيومترية، والأساليب السيكودرامية بغير إغفال منه لطرق الملاحظة الخارجية والملاحظة المشاركة ، ففى الملاحظة الخارجية يمكن دراسة التجمعات التلقائية ، مثل دراسة تجمعات الأطفال حيث انجذاب بعضهم إلى طفل معين أو نفور البعض من آخر ، أو التجمع فى مجموعة صغيرة أو كبيرة وهكذا ، أما الملاحظة بالمشاركة فيقوم الملاحظ بالاشتراك الفعلى مع الجماعة فى أنشطتها والعمل معها ؛ الأمر الذى يتيح له الحصول على معلومات أدق وأكثر عمقاً .

مراحل البحث السوسيومترى :

تتم الدراسة السوسيومترية من خلال خمس مراحل تبدأ من الطبقات السطحية ثم تتعمق تدريجيًا إلى الطبقات الداخلية ، وتطبق فى كل مرحلة اختبارات معينة

لقياسها . وهذه الاختبارات هى : اختبار المعارف لتحديد الامتداد الاجتماعى للفرد ، الاختبارات السوسيومترية لتحديد اختبارات الفرد ، واختبارات التلقائية لدراسة التفاعلات الانفعالية بين أعضاء الجماعة ، واختبارات المواقف وهى تقوم على تحليل المادة التى تجمع فى اختبارات التلقائية فى مواقف معينة ، ثم اختبارات تمثل الأدوار، وهى دراسة لمدى الأدوار وبنائها .

أولاً : الاختبار السوسيومترى :

يعرف مورينو الاختبار السوسيومترى ؛ بوصفه « أداة » تستخدم فى قياس مدى التنظيم الذى يظهر فى الجماعات ، وهو يتألف من سؤال الفرد صراحة أن يختار فى نطاق الجماعة التى ينتسب إليها أو التى يمكن أن ينتسب إليها الأفراد الذين يود أن يجعل منهم رفاقاً ، ويطلب من الفرد التعبير عن اختياراته بغير تحفظ ، سواء كان – أو لم يكن – الأفراد الذين يختارهم ضمن جماعته الحالية . والاختيار السوسيومترى أداء لدراسة الأبنية الاجتماعية على ضوء ضروب التجاذب والتنافر التى ظهرت داخل جماعة ما، وفى مجال العلاقات القائمة بين الأفراد ، نستخدم ألفاظاً مثل الاختيار أو « الرفض » بمعنى أضيق . وألفاظ التجاذب والتنافر أكثر اتساعاً وهى لا تطبق على الجماعات الإنسانية فحسب ، وإنما تدل على وجود صور اجتماعية مماثلة خارج الجماعات الإنسانية بالمعنى الدقيق للكلمة .

ومن هذا التعريف تتضح عدة شروط لإجراء الاختبار السوسيومترى ، لعل من أهمها :

١ – توضيح حدود الجماعة موضوع الاختبار .

٢ – السماح للأشخاص باختيار أو رفض عدد غير محدد من الأشخاص .

٣ – تحديد محك الاختيار أو الرفض أى تحديد النشاط الذى يريد الشخص أن يشارك فيه ، أو النشاط الذى لا يريد أن يشارك فيه ، على شريطة أن يكون هذا النشاط له معنى ودلالة .

٤ – استخدام نتائج الاختبار لإعادة بناء الجماعة .

٥ – أن يتم إجراء الاختبار فى جو من السرية .

٦ – أن تناسب أسئلة الاختبار مستوى أعضاء الجماعة .

بعد أن يتم الاختبار السوسيومترى ، يجرى على أفراد الجماعة عدد آخر من الاختبارات التى صاغها « مورينو » ، وهى على النحو التالى :

١ – اختبار المعارف .
٢ – اختبار التلقائية .
٣ – اختبار المواقف .
٤ – اختبار تمثيل الأدوار .

ثانياً : اختبارات « المعارف » :

وتقيس هذه الاختبارات حجم الامتداد « الجماعى » للفرد ، مدى اتصالاته الاجتماعية . والمعارف فى أوسع معانى الكلمة هم كل الناس الذين يعرفهم الفرد وجهاً لوجه ، أو هم الناس الذين يعرفهم معرفة غير مباشرة عن طريق فرد آخر أو عن طريق المراسلة .

ويسبق اختبارات المعارف الاختبارات السوسيومترية ، وقد وجد مورينو أن عدد « المعارف » أكبر بكثير من « الذرة الاجتماعية » ، وأن العدد يختلف من فرد لآخر، ومن وقت لآخر . وعن طريق الاختبارات السوسيومترية يمكن تحديد الحدود الخارجية لذرة اجتماعية معينة .

ونسأل : وما الذرة الاجتماعية؟ يجيب مورينو : إنها أصغر وحدة اجتماعية غير قابلة للتجزىء . وتتألف الذرة الاجتماعية من العلاقات النفسية القائمة بين فرد وأفراد آخرين ينجذب إليهم أو ينفر منهم .. ومن علاقاته بهم بالنسبة لمعيار معين .. وشكل الذرة الاجتماعية – كما هو الحال فى الذرة الطبيعية – غير واضح بالعين المجردة ، إنما ينبغى اكتشافه . ويهيئ لنا الاختبار السوسيومترى وسائل هذا الاكتشاف.

٣ – اختبارات التلقائية :

والغرض منه : هو دراسة التفاعلات الاجتماعية بين أفراد الجماعة . ويحاول مورينو فى تعليماته التى يوجهها للأفراد أن يضع كل فرد فى حالة من الانفعال نحو كل شخص ارتبط به فى الاختبار السوسيومترى (سواء كان ذلك اختياراً أو نبذاً) . ثم يطلب من هذا الأخير أن يختار حالة انفعالية نحو الفرد المقابل ، وقد تكون الحالة نفسها أو غيرها ، وهو لا يسمح لشخصين بالتشاور قبل بدء الاختبار .

اختبارات المواقف :

ولئن كانت اختبارات التلقائية تكشف عن انفعالات الشخص ، وعلى نحو تلقائى .. فإن اختبارات المواقف تكشف عن « المصفوفة الموقفية » للجماعة وهى تحليل المادة التى تجمع فى اختبارات التلقائية من زاوية علاقات المكان والزمان والحركة والأفعال والتوقعات وحجم الكلمات والتعبيرات والمبادأة بالموقف وتغييره

وإنهائه ، وفى هذه الاختبارات يعطى الشخص فرصة للسلوك فى مواقف مختلفة من الحياة : فى موقف المنزل بما فيه من صراع بين الوالدين انتهى بالانفصال ، وفى موقف العمل حيث أدى التأخير عن الحضور فى الميعاد المحدد إلى الفصل عن العمل وفى موقف الحب وهكذا .

اختبارات تمثيل الأدوار :

وفى هذه الاختبارات يحدد اللعب فى الموقف بجانب معين منه فمثلاً يعطى الشخص فرصة لعب أدوار مختلفة خاصة أو اجتماعية مثل دور الابن أو الوالد أو الحبيب أو الخادم أو القاضى أو رجل الشرطة .

وتسمى هذه الاختبارات أحياناً « اختبارات الدور » وهى تكشف عن « مصفوفة الدور » للجماعة . وتهتم أساساً بمدى الأدوار وبنائها ، فقد تكشف الدراسة عن أن شخصا معيناً له ثلاثة أدوار بارزة فى حياته السرية : دور المحب ، دور اللص ، دور الثائر .

وهكذا يتضح لنا أن المدخل السوسيومترى Sociemetric الذى ابتدعه «مورينو» لفهم الجماعة عن طريق قياس مدى التجاذب والتنافر أو الإقبال والإعراض، ينبغى أن يفهم على أنه دراسة للجماعة النفسية التى تتوافر بين أفرادها المعرفة الشخصية والتأثير المتبادل ، وأن خير طريقة لدراسة الجماعة هى أن ندرس التجمعات التلقائية فى تناغمها أو تصارعها .

وتنحصر الطريقة فى أن يطلب من كل شخص تحديد ميله نحو أى فرد آخر من الجماعة يريد العمل معه أو الإقامة أو التنزه معه . والمدة التى يفضلها لإقامة . مثل هذه العلاقة ، وقد يطلب من الفرد تحديد اتجاهات السلبية من بعض الأفراد الذين يكره التعامل معهم ، وكل ذلك يتم فى جو من السرية ، وبذلك نستطيع إقامة سوسيوجرام Sociogram .

ويفترض مورينو أن الفرد يكون حراً مبدعاً إذا ما وجد المركز الملائم له . وتقرر جنجز Jennings : إن الفرد ليشعر بأمن أعظم إذا ما وجد ضمن أفراد يستجيبون له ويستجيب لهم ويرغب فى صحبتهم ، وكلما زاد إحساسه بالأمن ازداد شعوره بالحرية وازدادت فاعليته داخل الجماعة .

الجماعة العلاجية :

فى بحثه عن « الجماعة العلاجية » بيّن « سامى محمود على » أن ثمة اتجاهين أساسيين فى تناول الجماعة العلاجية ، هما :

الاتجاه الأول : يقوم على تصور أن الجماعة لا تنفرد بخصائص متميزة عن خصائص أفرادها، وأن الظواهر الجماعية هى مجموع الظواهر الفردية بحيث تفهم ما يحدث فى الجماعة بإرجاعه إلى مستوى السلوك الفردى . والنظر إلى الجماعة على هذا النحو يستتبع تطبيق مفاهيم علم النفس الفردى ومبادئه على الجماعة تطبيقاً مباشراً دون حاجة إلى وضع مفاهيم ومبادئ جديدة خاصة بالجماعة ، ويستتبع ذلك أيضاً فى مجال العلاج النفسى للجماعات تطبيق مفاهيم نظرية التحليل النفسى ، دون تعديل جوهرى يجعلها أكثر مطابقة لمستوى الجماعة ؛ بحيث يصبح العلاج النفسى ضرباً من التحليل النفسى التطبيقى .

ولعل من أهم أنصار هذا الاتجاه « سلافسون » Slavson الذى يرى أن الفرد هو الموضوع الأول للعلاج النفسى فى الجماعة ، ومن ثم جاءت صياغته للعمليات الدينامية التى تجرى فى الجماعة قاصرة على إبراز الجوانب الفردية المميزة لتفاعل أعضاء الجماعة ، وهذه العمليات الدينامية هى :

١ – الطرح Transference ٢ – التنفيس Catharsis

٣ – الاستبصار Insight ٤ – تقوية الأنا Ego Strengthing

٥ – اختبار الواقع Reality Testing ٦ – الإعلاء Sublimation

وكلها مفاهيم مستمدة أصلاً من التحليل الفردى .

ويلاحظ « سلافسون » بهذا الصدد أن ظاهرة الطرح كما تشاهد فى نطاق الجماعة تتخذ صوراً متنوعة ، هى : طرح العواطف التى موضوعها الإخوة والأخوات Sibling Transference ، وطرح طاقات الحب وشحناته الغريزية ، والطرح القائم على التوحد Identification

وينتج عن هذا التوسع فى تطبيق مفهوم الطرح طمس معالمه وفقدانه مضمونه الدقيق الذى تحدده نظرية التحليل النفسى .

الاتجاه الثانى : فيقوم على تصور أن الجماعة « كل دينامى » حسبما يرى ليفين ، دون إغفال لما طرحه مورينو من تنظير خاص بدراسة ديناميات الجماعة من حيث التجاذب والتنافر ، مع تأكيد أن دراسة الجماعة ككل دينامى لا يغفل فى الآن نفسه خصائص أفرادها النفسية على النحو الذى افترضه فرويد .

ويعبر ليفين عن تصوره الدينامى للجماعة بقوله « ليس جوهر الجماعة فى تشابه الأعضاء أو عدم تشابههم ؛ بل هو فى اعتماد بعضهم على البعض الآخر . ومن

الممكن وصف الجماعة بأنها كل دينامى بمعنى أنّ أى تغير فى حالة جزء منه يغير حالة أى جزء آخر . وتتراوح درجة الاعتماد المتبادل بين الأجزاء التى يؤلفها أعضاء الجماعة بين الجمهرة المفككة والوحدة المتماسكة .

ويؤكد « مورينو » أن منهجه السوسيومترى لا يقوم بدراسة الفرد بمعزل عن غيره ، ولا الجماعة مستقلة عن أعضائها ، وإنما يدرس منهجه العلاقات المختلفة القائمة بين الأفراد والأنماط البنائية المميزة لهذه العلاقات .. يقول مورينو : « إن ثمة مجالا للنشاط غير محصور فى حدود الكائن العضوى ، بل يمتد بين الكائنات العضوية المختلفة ، فقد تبين أن بين الأفراد أنماطاً مميزة للعلاقات المتبادلة ، وأن ثمة مبادئ ثابتة تسمح بانتقالهم من مرحلة إلى أخرى أو من مكان إلى آخر ، وتكتسب هذه الأنماط صوراً منتظمة وتؤثر فى الجماعات القريبة أو البعيدة تأثيراً متصلاً بحيث تبدو الدوافع الاجتماعية ، وكأنها تخلق صورها الخاصة بها لا من داخل الكليات العضوية الفردية فحسب ، بل وبين الأفراد كذلك . ومن الممكن أن نعثر على آثار هذه العملية كلما أخضعنا الجماعات للتحليل » .

وعلى هذا ينبغى أن يقوم العلاج النفسى على هذا التصور الدينامى ، الذى أصبح الأساس فى معظم العلاجات النفسية .

تماسك الجماعة :

يمكن تحديد القصد من تماسك الجماعة فى ضوء تصورين أساسيين :

١ – الروح المعنوية .

٢ – جاذبية الجماعة لأفرادها .

أولاً : الروح المعنوية وتماسك الجماعة :

الروح المعنوية تصور متعدد التعريفات ، مختلف من حيث زاوية الرؤية . ولعل من أهم تعريفات الروح المعنوية من حيث مدى تأثيرها على استمرارية الجماعة وتماسكها ، ما أكده موكور Moucorps فى كتابه «سيكولوجية الحركات الاجتماعية» «إن الروح المعنوية إرادة يدعمها العقل لبلوغ هدف مشترك» .

وهذا التعريف يستمد مقوماته من كتابات الفيلسوف الألمانى شوبنهور الذى اعتبر الإرادة جوهر الوجود ، أو كما يقول « اندفاع أعمى إلى الحياة » . ويؤكد شلنج على أنها أصل الوجود – ويعتبرها نيتشه أصل الحياة ، فليس الوجود إلا « الحياة » ! وليست الحياة إلا « إرادة » ، وليست هذه الإرادة إلا « إرادة القوة » .

بيد أن موكور يدعم القصد من الإرادة فى حركتها بتدعيم عقلى ، فالعقل يكمن وراء الإرادة .

ويبرز هاريمان Harriman الجانب الانفعالى فى تعريف الروح المعنوية فيقول إنها شعور انفعالى حماسى تجاه ما تقدم عليه الجماعة من أعمال .

بيد أن الانفعال وحده لا ينهض دليلاً على تماسك الجماعة وإعلاء روحها المعنوية ، فالانفعال موقوت أهوج لا يبلغ بالجماعة إلى تحقيق أهدافها .

ويقدم وارين Warren فى معجمه تعريفاً للروح المعنوية يجمع بين الجانب الوجدانى والجانب القيمى فى اتجاه الجماعة . فيخبرنا بأن « الروح المعنوية اتجاه قوامه الثقة والمثابرة فى العمل والتمسك ، بمثل الجماعة » .

الاتجاه إذاً : مفهوم تصورى نستدل عليه من سلوك الأفراد الذى قد يتسم بالثقة والمثابرة والتمسك بقيم الجماعة أو يتم بعكس هذه الخصائص .

ويشير « كريش وكرتشفيلد » إلى أن المظاهر أو الأعراض التى تتجسد فى الواقع هى التى تكشف عن ارتفاع الروح المعنوية وانخفاضها ، وأن ثمة عوامل هى التى قد تؤدى الى ارتفاع الروح المعنوية وانخفاضها وهذه العوامل قد تكون داخلية ، أو قد تكون خارجية ، ومن أهم العوامل التى تؤدى إلى ارتفاع الروح المعنوية وتماسك الجماعة .

- موقف الأفراد من الجماعة ورغبتهم فى استمراريتها .
- النظر إلى الجماعة كقيمة إيجابية .
- توحد الفرد مع الجماعة ، وربط حاجاته وأهدافه بحاجات وأهداف الجماعة.
- إشباع الجماعة لحاجات الأفراد الثانوية وإعطاؤهم فرصة متكافئة للتعبير عن أنفسهم داخل الجماعة .
- وعلى الضد من ذلك ، يكون انخفاض الروح المعنوية راجعاً إلى غيبة الهدف المشترك أو الصبغة الموحدة للجماعة التى تستوعب آمال وتطلعات وأهداف أفراد الجماعة .
- عدم إشباع الجماعة لحاجات الأفراد وعدم توحد أفرادها مع أهدافها ، وظهور « الأنامالية » بين صفوفها .

وثمة عوامل مضللة فى الحكم على الروح المعنوية للجماعة ، منها :

١ - النظام :

فالنظام غالباً ما ينظر إليه كدليل على ارتفاع الروح المعنوية ، ومع ذلك فقد يكون فى كثير من الحالات نتاجاً لضغط خارجى .

٢ - إنتاج الجماعة :

فإنتاج الجماعة قد يكون أيضاً من العلامات المضللة .

٣ - قيام التوتر بين الأشخاص :

لايدل بالضرورة على ضعف الروح المعنوية ، وإن دل على انخفاضها حين نشأ بين الأفراد والقادة . وحين ينصب على الحاجات والأهداف ، فإن هذا التوتر كثيراً ما يشير إلى الغضب والازدهار حين يتخذ صورة النقد البناء ، وحين ينصب على الوسائل المؤدية إلى الهدف .

وثمة دراسة قام بها « ليفين » و « هوايت » تبين أثر الجو الاجتماعى على السلوك العدوانى للأفراد ، وقد كشفت نتائج الدراسة عن نزعة عدوانية معتدلة فى الجماعة الديمقراطية ، وتعظم هذه النزعة فى الجماعة الفوضوية بينما تتضاءل فى الجماعات الأتوقراطية .

ومعنى هذا أن ندرة السلوك العدائى ، وما يلحق به من أعراض صريحة للتوتر فى الجماعة الأتوقراطية لا يعبر بحال عن ارتفاع الروح المعنوية فى هذه الجماعة، وإنما يعبر فحسب عما هم عليه من خضوع واستسلام .

وعلى الرغم من أن النظام وكثافة الإنتاج قد يعبران عن انخفاض الروح المعنوية .. إلا أنهما يعتبران المحكان الرئيسيان لإعلاء الروح المعنوية .

وهناك عدد من العوامل المحددة للروح المعنوية :

١ - وجود دافع إيجابى للروح المعنوية :

فكل سلوك يكمن وراءه دافع ، ووحدة الجماعة وتماسكها لا تكون بغير دوافع للأفراد ايجابية تجعل من وحدة الجماعة واستمرارها هدفاً لأفرادها .

٢ - إشباع الجماعة للحاجات الثانوية بالنسبة للأفراد .

بمعنى أن تتيح الجماعة للفرد أن يعبر عن تلقائيته وعن قدراته ومواهبه .

٣ - ازدهار الجماعة وتقدمها يرفع من روحها المعنوية :

فنجاح الجماعة فى تحقيق أهدافها وتماسكها هو الذى يعلى من قيمتها ، وكلما

كان الأفراد على علم بالخطوات التى تحققها الجماعة ، ازداد عطاؤهم وتكثفت جهودهم.

٤ - تحقيق المساواة :

بين أفراد الجماعة وإتاحة الفرص المتكافئة دون هوى شخصى بين أفرادها يحقق علو الروح المعنوية .

٥ - وضوح الأهداف وتميزها :

وقدرتها على التعبير عن حاجات الأفراد ودوافعهم يحقق معنى الانتماء والتوحد بين الفرد والجماعة أمام التهديدات الداخلية وأيضاً الخارجية .

ثانياً : جاذبية الجماعة لأفرادها :

لئن كانت الروح المعنوية تعبر عن تماسك الجماعة .. فإن قوة جذب الجماعة لأفرادها يتخذ كدليل على استمرارية الجماعة وتماسكها ، ولهذا يعرف فستنجر وباك تماسك الجماعة Group Cohesiveness بأنه « متوسط القوى الناتجة والمؤثرة فى توجيه أفراد الجماعة » ؛ أى إن تماسك الجماعة يستدل عليه بدرجة انجذاب الأعضاء للجماعة . والأفراد لا ينجذبون إلا لجماعة تمثل لهم مصدرا لإشباع حاجاتهم . ولهذا يحدد كارترايت وزاندر Cartwright and Zander عدداً من العوامل نستدل من خلالها على تماسك الجماعة :

١ - اختيار أعضاء الجماعة لبعضهم فى مواقف العمل ، ومواقف الحياة خارج العمل مثل مواقف الجيرة والنزهة والصداقة .

٢ - وقوف أعضاء الجماعة بجانب بعضهم فى المواقف العصبية .

٣ - تحمل الفرد لمسئوليته تجاه الجماعة .

٤ - تمثل أعضاء الجماعة لقيمها وأهدافها .

٥ - توزيع الأدوار بين أفراد الجماعة على نحو لا يؤدى إلى صراع الأدوار .

ومما سبق يتضح أن كارترايت وزاندر ركزا فقط على بعض المظاهر التى تعبر عن تماسك الجماعة ، وغفلاً عن الجوانب النفسية والاجتماعية التى تؤدى إلى انجذاب الفرد لجماعة دون أخرى ، ولعل من أهم هذه العوامل :

١ - تأكد الإحساس بالهوية لدى الفرد : فكثير من الجماعات ولاسيما الدينية والسياسية تمنح أفرادها هذا الإحساس بالهوية ، وبأنه فعال وإيجابى فى قراراتها وفى مصيرها .

٢ – المشاركة فى صنع حلم اجتماعى يكون بمثابة أرضية مشتركة يتحرك فوقها وفى اتجاهها أفراد الجماعة .

٣ – أن تمثل الجماعة بالنسبة للفرد استجابة لدوافعه وتطلعاته المستقبلية .

٤ – أن يشعر أفراد الجماعة بالتوحد مع قيم الجماعة ، فبغير توحد لا تحقق الجماعة أهدافها ، ولا يحقق الفرد ما يصبو إليه من آمال .

وقد عبر عن ذلك سيدلنجر فى كتابه « التحليل النفسى والسلوك الجماعى » بقوله: « إن شبكة العلاقات المتبادلة بين أفراد الجماعة تتميز بتفاعل القوى الموجهة، التى تدعم تماسك الجماعة والقوى التى تعمل على إضعاف هذا التماسك ، وتتكون العلاقات الموجبة من التوحد بأنواعه ، كالتوحد بشخص أو جماعة هى محل إعجاب الفرد أو التوحد بالند أو جماعة الأنداد ، الذين يطمح الفرد فى أن يحل محلهم ، أو التوحد بالفرد أو الجماعة على أساس وجود صفة أو اهتمام واحد ، وأخيراً التوحد بالفرد أو بجماعة من الناس لهم الحاجات الأساسية نفسها . وهناك أنواع من التوحد الثانوى كالتوحد بالمعتدى ، وهو وسيلة للتغلب على الخوف . أما العلاقات أو القوى السالبة التى تعمل على إضعاف تماسك الجماعة .. فتؤدى إلى تفككها ، فهى المبالغة فى الأنانية والتنافس والإفراط فى الحرمان الناتج من قسوة القائد » (ص ١٣١) .

ومما سبق يتضح أن هناك عدداً من العوامل التى تؤدى إلى تماسك الجماعة ، وأن هذه العوامل لا توجد إلا حيث توجد الجماعة نفسها . وأن فهم هذه العوامل يعنى فهم العوامل التى تؤدى إلى استمرارية الجماعة ، سواء كانت الجماعة علاجية أو تربوية أو علمية أو سياسية .

ويدهى أن تكون عوامل عدم تماسك الجماعة على الضد من عوامل الجذب إلى الجماعة ، ونلخص بعضها فيما يلى :

– عدم إحساس الفرد بهويته وبأنه فعال وإيجابى داخل الجماعة .

– افتقار الجماعة إلى صيغة مشتركة أو إطار محدد أو حلم اجتماعى ، يستوعب آمال وأحلام وتطلعات الأفراد ، ويتيح للجميع حق المشاركة على قدر من المساواة .

– عجز الفرد داخل الجماعة عن التعبير عن تلقائيته وإمكاناته وقدراته .

– تناقص إشباع الحاجات النفسية والاجتماعية داخل الجماعة .

- تراكم خبرات كدرة لدى الأفراد داخل الجماعة وتناقص الخبرات السارة .
- هيمنة الروح التسلطية على قادة الجماعة .
- تناقض معايير الجماعة مع معايير الفرد وما يؤمن به ويعتقد .
- شيوع السلوك « الأنامالى » على حساب السلوك الانتمائى الإنشائى ، وحينما تسود « الأنامالية » ينصرف كل فرد إلى تحقيق ما يصبو إليه من نفع ، غير مبال بما يصيب الغير من ضرر .
- غيبة التواصل الحقيقى بين الأفراد لأسباب داخلية أو أسباب خارجية . وقد تتحدد الأسباب الداخلية فى اختلاف المكونات النفسية لأفراد الجماعة، وقد تتحدد الأسباب الخارجية فى اختلاف القوميات واللغات بين أفراد الجماعة .
- انخفاض التوترات المشحونة بالرغبة فى التقدم داخل الجماعة تواؤمًا واستسلاماً مع لتوجهاتها .
- تضاؤل إحساس الفرد بأن الجماعة التى ينتمى إليها تمثل قيمة إيجابية ، وشعوره بأنه لم يعد يمثل قيمة إنسانية داخل الجماعة .

الفصل الثالث

* تعريف الاتجاه
* خصائص الاتجاه
* تكوين الاتجاه
* وظائف الاتجاهات
* الاتجاهات التعصبية
* التسلطية
* الدوجماطيقية
* قياس الاتجاهات
* طرق تغيير الاتجاهات

الاتجاهات

الفصل الثالث

الاتجاهات ATTITUDES

تلعب الاتجاهات دوراً محورياً فى حياة الإنسان ، ومن ثم يستحيل أن يكون هناك إنسان بغير اتجاهات معينة يؤمن بها ويتحمس لها ويدافع عنها ، وتتحول بفعل استقرارها وثباتها فى داخله إلى مكون من مكونات شخصيته ، واتجاهات أخرى قد يرفضها ، بضراوة وعدوان ، وثالثة قد لا يتحمس لها ولا يؤمن بها ، ومن الممكن ألا تحتل عنده أى اهتمام أو تهيؤ نفسى .

وتتخذ الاتجاهات مما يحيط بالفرد من أشخاص أو طبقات اجتماعية أو عقائد دينية أو نظم سياسية واقتصادية موضوعاً لها .

وقد يشير الاتجاه إلى ميل مؤيد أو مناهض ، أو محايد لموضوع ، وقد يتحرك الاتجاه فوق متصل متعدد الدرجات من تأييد تام إلى رفض تام أو حيادية فيما يتصل بموضوع الاتجاه . فقد يؤمن بعض الأفراد بضرورة الحجاب أو النقاب للمرأة وأنه خير عاصم لها من الخطأ ، وقد يرفض البعض حجاب المرأة ويرى فى سفور المرأة تأكيداً لحريتها ودافعاً لها إلى العمل والإنتاج . وقد يرى البعض الثالث أن الاعتدال فى ملبس المرأة وسط بين الحجاب وبين السفور ، وأن على المرأة أن تراعى الاعتدال فى ملبسها وفى حركتها وهكذا ، وقد يؤمن البعض بحتمية الفكر الرأسمالى ، وأن هذا الفكر يقوم على تأكيد حرية المواطن ، وأن من أهم دعائمه الديمقراطية التى تساوى فى الحقوق والواجبات بين الناس ، وأن الانسان كائن حر ، وأن حريته تعنى تفتح إمكاناته وأن هذه الإمكانات لا تتفتح ولا تزدهر إلا من خلال مجتمع رأسمالى . وقد يرفض البعض الفكر الرأسمالى ، ويرون فى الاشتراكية خلاصاً للإنسان مما عاناه وكابده من سلب منظم لطاقاته وإنتاجه فى ظل المجتمع الرأسمالى ، الذى يجعل من أفراده مجرد أدوات أو تروس فى دولاب العمل ، وأن فى مثل هذه المجتمعات تنتشر الجرائم والمخدرات والسموم البيضاء وغير البيضاء .

وقد يرى البعض الثالث أننا نعيش فى عصر يتشكل من جديد ، عصر من أهم خصائصه أنه عصر التسويات الكبرى ، وأن هناك مشاكل إنسانية متراكمة تجد لها طريقاً إلى التسويات ، وأن ما نريده هو نظام يؤمن بالإنسان ويحقق له الاستقرار

والأمان ، وأن التسابق المجنون المدفوع بوهم اسمه « نظام دفاعى جديد » يستهدف تسليح الفضاء الخارجى ببسط لحاف نووى فى الفضاء هو نظام يستهدف الإنسان ، وأن العالم اليوم يملك من وسائل إبادة الأرض عشرات المرات ، فى حين أن الأرض لن تدمر إلا مرة واحدة ، وأن أى حرب ثالثة لن يكون فيها طرف منتصر وآخر مهزوم لأن الكل فيها مهزوم وفان إلى الأبد . ومن ثم لابد من التوجه نحو نظام يستهدف الإنسان وخير الإنسان وسعادته ، ونحن نعيش فى عصر أزمات طاقة وتجارة وديون.

وقد تضيق اتجاهات الفرد وتتمركز فقط حول عالمه الضيق جداً حيث أسرته ومشاكل أسرته والتوحد مع اتجاهاتها والدفاع عن هذه الاتجاهات بعنف وغضب وعدوان ، وقد تنسحب هذه الاتجاهات على مدرسته أو الحى الذى يقطن فيه أو حتى مجتمعه الذى يعيش فيه ، متحركة فوق متصل بدرجات من الموافقة أو التأييد إلى الرفض التام ، وعلى هذا .. فإن الإنسان فى مسيرته الحياتية يكون اتجاهات متعددة نحو موضوعات متباينة فى العالم الذى يعيش والواقع الاجتماعى الذى يتفاعل فيه مع أفراده ومؤسساته ونظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كذلك قد نجد لكل فرد اتجاهات معينة نحو مناشط ثقافية رفيعة المستوى كالفن والفلسفة والأدب والتاريخ ، ونحو المعتقدات الدينية والسياسية والاقتصادية التى تسود مجتمعه .

تعريف الاتجاه :

الاتجاه مفهوم متعدد المعانى ، مختلف من حيث زاوية الرؤية إليه ، معرفيًا ونفسيًا واجتماعياً ، وهذا الاختلاف مردود إلى اختلاف الأطر المرجعية والنظريات النفسية والاجتماعية للعلماء والباحثين أنفسهم . ويكاد يكون موضوع الاتجاه : من حيث القصد منه وخصائصه وعوامل تكوينه وتعديله وقياسه ، ميدان بحث مشترك لدى المشتغلين بعلم النفس الاجتماعى .

ولعل من المفيد أن نعرض لبعض التعريفات .

يعرف « البورت » ، (١٩٦١) الاتجاه بوصفه « حالة استعداد عقلى وعصبى ينشأ خلال التجربة ، ويؤثر تأثيراً ديناميًا على استجابات الفرد إزاء جميع الموضوعات والمواقف التى يتصل بها » .

ويمتاز هذا التعريف بأنه يتجنب القسمة الثنائية ، بين ما هو فسيولوجى وما هو عقلى ، وأن هذا الاستعداد يهيئ الفرد لاستجابات بعينها بإزاء المواقف والأشخاص ، وأن الاتجاه ليس فطرياً فى الإنسان ، بل هو مكتسب يكتسبه الفرد من خلال تجاربه ومواقفه فى الحياة .

ويركز وارن Warren على الاستعداد النفسى الكامن وراء كل اتجاه ، فيرى أن الاتجـاه استـعداد نـفسى ، يتكون بناء على مـا يمر به الشـخص من خبـرات يمكن أن تؤدى فى نهاية الأمر إلى إحداث تغييرات فى مجال الاتجاه ، ، فثمة استعداد نفسى يكمن وراء الاتجاهات التى تتصف بالتحيز أو الرفض أو الحيادية ، وأن هذا الاستعداد النفسى يتشكل فى سياق من خبرات الفرد ، .

أما كرتش وكرتشفيلد Krech & Crulshfield فيعرفان الاتجاه بأنه ، تكوين دائم من الدوافع والإدراك والانفعـالات والعمليات المعرفيـة المرتبطة بجـوانب حـياة الفرد، .

وهذا التعريف يعبر عن الائتلاف الكامن وراء اتجاهات الفرد المتعددة ، والذى يتشكل كمحصلة لما هو نفسى ودافعى وانفعالى وجدانى ومعرفى إدراكى .

ويقدم بروشانسكى وسيدنبرج Proshansky and Seidenberg تعريفاً للاتجاه يتضمن ، أن الاتجاه عبارة عن ميل معقد للاستجابة الثابتة بالموافقة أو المعارضة للموضوعات الاجتماعية التى فى البيئة ، وهذه الاستجابة تختلف من ثقافة لأخرى ، فالموضوع الذى قد يعارضه الناس فى ثقافة ما قد يوافقون عليه فى ثقافة أخرى . ويواصل بروشانسكى وزميله كلامـهمـا عن الاتجاه فيقولان بأن الاتجاه يستنتج من سلوك الشـخص نـحو المؤسـسـات المختلفة ، والجـمـاعـات المختلفة ، والتـعليم والطب والجنس والزواج والدين .. ومن ثم فإن الاتجـاهات تمثل الرابط النفسى الأسـاسى بين قدرة الشخص على الإدراك أو الإحساس أو التعليم وبين نواحٍ نفسية ونـواحٍ اجتماعية سبق أن خبرها الفرد فى المواقف أو المجال نفسه (محمود أبو النيل ١٩٨٥ ص ٤٤٩) .

ويضع تعريفاً للاتجاه مؤداه أنه: ، استعداد نفسى تظهر محصلته فى وجهة نظر الشخص حـول موضوع من الموضوعات سواء كان اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً ، حـول قيمـة من القيم كالقيمـة الدينية أو الجمالية أو النظريـة أو الاجتماعية ، أو حـول جماعة من الجماعات كجماعة النادى أو المدرسة أو المصنع ، ويعبر عن هذا الاتجاه تعبيراً لفظيًا بالموافقة عليه أو عدم الموافقة أو المحايدة ، ويمكن قياس الاتجاه بإعطاء درجة للموافقة والمعارضة والمحايدة . (نفس المرجع ص ٤٥٠) .

يتبين مما سبق أن الاتجاهات متعددة من حيث القصد منها ، وأنها قد تشير إلى ميل مؤيد أو ميل مناهض أو ميل محايد إزاء الموضوعات والطبقات والأشخاص ، وأن تعريف الاتجاهات يشير إلى ما بين الاستجابات من اتفاق واتساق ، من شأنه أن يساعد المشتغلين بعلم النفس الاجتماعى على التنبؤ بالسلوك المقبل .

خصائص الاتجاهات :

ثمة إجماع بين علماء النفس الاجتماعيين على أن هناك خصائص تتصف بها الاتجاهات ، ويتحدد بعضها فيما يلى :

(١) إن الاتجاهات مكتسبة وليست فطرية متوارثة ، وإن الفرد يكتسبها من خلال تجاربه وما يعيشه من خبرات .

(٢) إن الاتجاهات تتسم بالثبات النسبى ، ومن ثم يستحيل تغييرها أو تعديلها بسرعة ؛ بخاصة الاتجاهات التى تشبع حاجة نفسية لدى الأفراد .

(٣) إن الاتجاهات لا تتكون بغير موضوع للاتجاه ، ومن ثم تتضمن العلاقة بين فرد وموضوع من موضوعات الحياة .

(٤) تتعدد الاتجاهات وتختلف تبعاً لتعدد الموضوعات واختلافها .

(٥) إن الاتساق والاتفاق فيما بين استجابات الفرد لمواقف وموضوعات محددة يسمح بالتنبؤ بنوعية الاستجابة فى مواقف غير محددة .

(٦) إن الاتجاهات قد تتسع مجالات انتشارها فتحتوى .. موضوعات عالمية أو فنية أو تاريخية ونحو ذلك ، قد يضيق مجال انتشارها فتتضمن موضوعات محدودة بالنسبة للفرد ، بيد أن الاتساع أو الانحسار لا يؤثر على خصائص الاتجاه .

تكوين الاتجاهات :

ثمة عوامل متعددة تؤثر فى تكوين الاتجاهات ، لعل من أهمها ما يلى :

١) طبيعة النظام السياسى :

إن كل توجه سياسى أو أيديولوچى يحاول أن يشكل اتجاهات الأفراد ومعتقداتهم تبعاً لمعتقداته ، وما يؤمن به من أهداف ومن توجهات سياسية واقتصادية ، وهنا تلعب وسائل الإعلام بمختلف أدواتها من صحافة واذاعة وتليفزيون دوراً أساسيًا فى تشكيل وصياغة اتجاهات الفرد .

٢) نوعية الطبقة الاجتماعية :

تلعب الطبقة الاجتماعية دوراً كبيراً فى تكوين اتجاهات الأفراد ، فالانتماء الطبقى يستتبعه انحيازاً لاتجاهات الطبقة ومعاييرها القيمية ؛ فعلى سبيل المثال : الطبقة المتوسطة تكون دائماً قلقة ومتطلعة ، ومملوءة حيوية وثورية ، ومنها تتشكل

العناصر الحيوية داخل المجتمع والعناصر غير الحيوية ، التى تتسم بالرفض ومناهضة الأوضاع القائمة والتمرد عليها أيضاً .

٣) الخصائص النفسية :

تؤثر السمات النفسية تأثيراً كبيراً فى تكوين الاتجاهات ، فكل اتجاه يكمن خلفه دافع نفسى يهيئ الفرد للانحياز لاتجاه معين أو رفضه ، أو اتخاذ موقف محايد منه.. ولهذا يشير أدورنو وزملاؤه فى دراستهم الشهيرة عن « الشخصية التسلطية » إلى أهمية الدوافع النفسية التى تدفع فرداً أو عدداً من الأفراد أو شعباً بأسره إلى تقبل الاتجاهات، التى تدعو إلى الحض على العدوان وسحق الضعفاء وتمجيد القوة ، ومناهضة الأفكار الأخرى والإيمان بالفكرة الواحدة أو الرأى الواحد ومعاداة كافة الآراء الأخرى ؛ الأمر الذى تمثل بوضوح فى النازية والفاشية .

وظائف الاتجاهات :

قلنا إن الاتجاهات تتكون كمحصلة ختامية لدوافع الفرد النفسية وطبيعة التنشئة الاجتماعية ، التى يعيش فى كنفها الفرد وما يحيط به من وسائل إعلامية كالصحافة والإذاعة والتليفزيون ، وغير ذلك من وسائل الإعلام التى تحاول أن تصوغ الرأى العام وتشكل الاتجاهات ، كيما تتفق مع توجهات النظام السياسى والعقيدة السائدة دينية كانت أو سياسية . أضف إلى ذلك مكونات الفرد بما تحتويه من انفعالات وإدراكات ومكونات معرفية تجعله يستجيب باستجابة معينة لاتجاهات أيضاً معينة . ومن خلال هذه الاستجابات وما بينها من اتساق ، نستطيع أن نتنبأ بسلوكه المقبل أى اتجاهاته المستقبلية ، فإن كان مثلاً لا يحبذ عمل المرأة ونزولها إلى ميدان العمل ، فهو بالضرورة لا يوافق على حقها فى التصويت ، وفى المشاركة السياسية والاجتماعية .

وللاتجاهات وظائف معينة اتفق على معظمها علماء النفس الاجتماعيون ، ولعل من أهم هذه الوظائف :

١) الاتجاه يحدد طريق السلوك ويفسره .

٢) الاتجاه ينظم العمليات الدافعية والانفعالية والإدراكية المعرفية حول بعض النواحى الموجودة فى المجال الذى يعيش فيه الفرد .

٣) الاتجاهات تنعكس فى سلوك الفرد فى أقواله وأفعاله وتفاعله مع الآخرين، فى الجماعات المختلفة ، فى الثقافة التى يعيش فيها .

٤) الاتجاهات تيسر للفرد القدرة على السلوك واتخاذ القرارات فى المواقف النفسية المتعددة فى شىء من الاتساق والتوحد ، دون تردد أو تفكير تفكيراً مستقلا فى كل موقف فى كل مرة .

٥) الاتجاهات تبلور وتوضح صورة العلاقة بين الفرد وعالمه الاجتماعى.

٦) الاتجاه يوجه استجابات الفرد للأشخاص والأشياء والموضوعات بطريقة تكاد تكون ثابتة .

٧) الاتجاه يحمل الفرد على أن يحس ويدرك ويفكر بطريقة محددة إزاء موضوعات البيئة الاجتماعية .

٨) الاتجاهات المعلنة تعبر عن مسايرة الفرد لما يسود مجتمعه من معايير وقيم ومعتقدات .

هذا .. ويوضح زهران (١٩٨٤) أن فيشبين Fishbein (١٩٦٧) فى نظريته عن العلاقة بين الاتجاهات والسلوك قد حدد أن هناك ثلاثة أنواع من المتغيرات تعمل كمحددات أساسية للسلوك ، وأن الوزن النسبى لهذه المتغيرات يختلف من سلوك إلى سلوك ، ومن شخص إلى شخص . وهذه المتغيرات هى :

١) الاتجاهات نحو السلوك : وتعتمد على معتقدات الشخص بخصوص عواقب السلوك المعين فى موقف معين ، وتقييم الشخص لهذه العواقب .

٢) المعتقدات الشخصية والاجتماعية : وتشمل المعيار الشخصى للسلوك والمعيار الاجتماعى .

٣) الدافعية للتمسك بالمعايير : وتشمل الرغبة وعدم الرغبة فى التمسك بالمعايير.

الاتجاهات التعصبية

لعل من أهم هذه الاتجاهات التى تتصف بالجمود والانغلاق والتمركز حول الفكرة الواحدة أو الرأى الواحد ، ما أطلق عليه العلماء اسم « الاتجاهات التسلطية » تلك التى بلورها أدورنو ، وزملاؤه فى دراستهم الشهيرة عن التسلطية ، وكذلك أيضاً الدراسات القيمة عن الدوجماطيقية كما كشف عن جذورها « روكيتش Rokeach » (١٩٦١) . فى الفكرة والسلوك والمواقف :

أولاً : التسلطية : Authoritarianism

فى عام ١٩٤٣ ، فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، بدأ أدورنو Adorno وزملاؤه يخططون لدراسة « الشخصية التسلطية » كجزء من اهتمامهم بدراسة ظاهرة التعصب العنصرى ، الذى تمثل فى أيديولوچية الفاشية التى تقوم على تمجيد القوة ، والحض على العدوان ، ومحق الضعفاء ومعاداة السامية ، ورفض كافة المعتقدات التى تختلف عن توجهات وأيديولوچية الفاشية .

وكان جل اهتمام أدورنو وزملائه (١٩٥٠) مركزاً على دراسة الدوافع النفسية التى تدفع فرداً ، أو بعض الأفراد ، أو شعباً ، أو شعوباً بأسرها إلى تقبل المعايير والأحكام التسلطية ، بحيث يكون الفرد أو بعض الأفراد أو الشعب مستهدفاً للطاعة والامتثال المطلقين لكل أشكال السلطة ، والإيمان المطلق بأحكامها واتجاهاتها ونظمها القيمية ، بغض النظر عن معقولية هذه الأحكام والاتجاهات والقيم .

وقد تمكن أدورنو وزملاؤه (١٩٥٠) من تحديد المكونات النفسية « للشخصية التسلطية » باستخدام قوائم الشخصية وفنيات التحليل النفسى ، والاختبارات الإسقاطية لتعرف أهم سمات هذه الشخصية ، التى وجد أنها تتميز بدرجة عالية من التعصب والعدوان والجمود العقلى ، وتحيا نهباً لمشاعر الإثم والقلق وفقدان الأمن والتناقض الوجدانى .

ويصف أدورنو (١٩٥٠) هذه الشخصية بأنها تتميز « بمجموعة من السمات التى تتصف بالامتثال المطلق لقيم وأحكام الجماعة (التعصب الفكرى) والخضوع لأحكامها ومعاييرها ، والحض على العدوان « الذى يظهر فى ميل الفرد إلى التحفز والعدوان ضد كل من تسول له نفسه الخروج على قيم واتجاهات الجماعة » ، والإيمان

المطلق بالغيبيات ، وفرض الرأى السائد فى الجماعة على الآخرين بايجاد النسخ المتماثلة من الأفراد، التى تؤمن بفكر واحد ورأى واحد بغض النظر عن معقولية هذا الرأى أو الفكر ، وتمجيد القوة والمغالاة فى تأكيدها ، أو التعامل مع الواقع وفق نماذج سلطوية متقابلة . الخضوع فى مقابل الهيمنة) ، والميل إلى التدمير والاستخفاف بالآخرين (أى الميل إلى تدمير الآخر ، والنظر إليه بوصفه كائناً شريراً ينبغى تدميره) ، والتصرف مع الآخرين على نحو إسقاطى (أى إسقاط ما فى داخل المتسلط من مشكلات واضطرابات نفسية ومواطن ضعف على الآخرين) ، والانشغال بالجنس (على نحو يحول فيه المتسلط قلقه ومشاعر ذنبه وصراعاته الداخلية إلى العالم فيتصوره عالما مليئاً بالانحرافات الجنسية ، وإلى الآخرين بوصفهم منحلين ومنحرفين جنسياً وينبغى إدانتهم وتعقبهم ومحاربتهم) (ص ٢٢٨) .

وقد اسفرت دراستهم عن نتائج بعضها يميز سمات المتسلط ، منها أنه شخص يمجد ويضخمها ، ويهتم بالمركز الاجتماعى والنجاح الخارجى أكثر من غيره ، وربما يسبب نشأته فى أسرة تهتم بالمركز الاجتماعى - بسبب عدم الإحساس بالأمن والتهديد الداخلى - كما تبين أن الآباء المتسلطين يميلون إلى القلق والقمع الشديد ، ويؤدى هذا القمع إلى خوف الأبناء ، وقلقهم وتوحدهم مع آبائهم قلقاً وخوفاً ، وعدواناً.

هذا ، ولم تكن دراسة أدورنو وزملائه الأولى فى مجال البحث عن سمات الشخصية التسلطية ، بل سبقتها وواكبتها وتلتها دراسات عديدة لعلماء النفس الاجتماعى والتربية عن الشخصية التسلطية مثل (ريتش ، Reich ١٩٣٥ - ١٩٧٠ ، فروم ١٩٤١ ، ١٩٧١ ، ميرفى Murphy ١٩٤٧ ، أندروسكى Andresky ١٩٥٤ ، سويف ، ١٩٨٤ ، عبد الستار إبراهيم ، ١٩٨٤ وغيرهم) .

وتعتبر دراسة ريتش Reich (١٩٣٥ ، ١٩٧٠) من الدراسات الرائدة فى مجال البحث عن جذور التسلطية فى طبيعة الإنسان المعاصر ؛ إذ إن ريتش (١٩٣٥) قد انتهى من كتابة دراسته بعد استيلاء النازيين على السلطة فى ألمانيا بثلاث سنوات ، وقد أوضح ما يمكن أن ينجرف إليه العالم من عنف ودمار وتعصب إذا ما سادت الفاشية واستحكمت ، ولهذا يرى أن التسلطية قد وجدت تعبيراً لها فى الفاشية كنظام قيمى وأيديولوچى ، غير معقول يتصف بالعدوان والتعصب وعشق القوة ومعاداة الأفكار والآراء المناهضة . وأن الفاشية كتعبير عن التسلطية « ظاهرة عالمية » ليس لها وطن معين ؛ لأنها مكون من مكونات الإنسان ، وقد تنتشر إذا ما وجدت الظروف المهيئة لها نفسياً واجتماعياً واقتصادياً ، وهى أشد انتشاراً بين صفوف الرجل العادى ،

وأن هناك عوامل وظروفاً تساعد على ظهور التسلطية ، من أهمها : طبيعة التنشئة الاجتماعية في الأسرة ؛ فالأسرة التسلطية التي يحيا أبناؤها في قلق وخوف وتهديد تفرز الشعور بالتسلط (ص ٩ – ٢٠) .

ويرى فروم (١٩٤١ – ١٩٧١) أن هناك علاقة بين الاغتراب والتسلطية ، كإحدى آليات الدفاع الرئيسية التي تدفع الفرد إلى « التخلي عن حريته وعن استقلاله الذاتي بالاندماج مع شخص أو جماعة تمنحه الشعور بالقوة ، أو هي البحث عن روابط ثانوية جديدة كبديل للروابط الأولية المفتقدة (ص ١٦٣) .

والروابط الأولية عند فروم ، هي تلك التي تعطي الفرد الشعور بالأمن والشعور بالأمن حاجة نفسية ينبغي أن تشبع والإنسان لا يزال في المهد صبياً ، وأن إشباع هذه الحاجة يعني أن يتقدم الفرد نحو « الحرية الإيجابية » ، وأن يتعلق بالعالم على نحو تلقائي بالحب والعمل ، معبراً بذلك عن إمكاناته العاطفية والحسية والعقلية على نحو خلاق .

أما إذا حدث – كما يقول فروم (١٩٧١) – وتقطعت الروابط الأولية التي تمنح الإنسان الشعور بالأمن « فإنه يبحث » عن بدائل « ثانوية » تمنحه الشعور بالأمن ، وترد إليه الإحساس بالهوية ، وترفع عنه عبء الشعور الذي لا يطاق بالوحدة والعجز واللاجدوى بالاندماج في شيء يعطيه الإحساس بالقوة والأمان ، وهذه القوة قد تكون شخصاً أو مؤسسة ، أو أمة أو ضميراً ، أو قهراً نفسياً . (ص ١٢٠) .

والتسلطية التي يتحدث عنها فروم ، ليست « أحادية البعد » وإنما هي مركب نفسي يجمع بين الرغبة في الهيمنة والرغبة في الخضوع ، أو ما اطلق عليه فروم «الرغبات السادية ، والرغبات الماشوسية» وبيّن فروم أن هذا المركب النفسي Sado - maschostic كامن ومتأصل في الناس جميعاً – أسوياء وعصابيين – ولكن بدرجات متفاوتة ، وأن كلا من الرغبات السادية والماشوسية تميل إلى مساعدة الفرد على تجاوز شعوره ، الذي لا يطاق بالوحدة والعجز واللاجدوى .

وقد أسفرت نتائج دراسته عن التسلطية – كلينكياً وتجريبياً – عن أن التسلطيين ممتلئون إحساساً بالذنب ، وبتعذيب الذات أحياناً بطقوس وأفكار قهرية أشبه بطقوس وأفكار العصابيين القهريين وأنهم لا يشعرون بالأمن وممتلئون رعباً بشعور لا يطاق بالوحدة واللاجدوى ، وأنهم يواجهون العالم بوصفه عالما مغترباً ومعادياً ، وأن «الشخص السادي يحتاج إلى موضوع تسلطه بقدر ما يحتاج إليه الشخص الماشوسي» (ص ١٨٠) . وأن الشخصية التسلطية تحب الظروف التي تحد من الحرية الإنسانية ..

وإنها تحب الخضوع للقدر ، فيتوقف على وضعها الاجتماعى ما يعنيه القدر بالنسبة لها، (ص ١٨٥) .

وهكذا يؤكد فروم (١٩٧٥) التكوين النفسى للشخصية التسلطية ، وما تنطوى عليه من دوافع نفسية تتخذ لنفسها دلالات سلوكية فى تصرفات المتسلطين تقوم على عشق القوة ، والحض على العدوان والتوحد مع نماذج القوة ، وأن جوهر هذه التسلطية يكمن فى الحضور التلقائى للدوافع السادية والماشوسية ، (ص ١٨١) .

هذا – وقد حدد أندروسكى Androsky (١٩٥٤) عناصر ثلاثة للتسلطية تنطوى على ما هو نفسى ، وما هو أيديولوچى ، وما هو سياسى .

العنصر الأول : يشير إلى وجود استعداد عام لدى الشخص يدفعه إلى تأييد التميز الطبقى ، وتمجيد من هو أقوى ، والاستخفاف بمن هو أضعف .

العنصر الثانى : أيديولوچى يشير إلى منظومة المعتقدات والاتجاهات التى يتبناها الفرد، والتى تتميز فى معظم الأحيان بتمجيد القوة ، والسلوك الاستبدادى ومناصرة حكم الفرد القوى .

العنصر الثالث : ، سياسى ، حيث تشير التسلطية الى نمط من الحكام أو القادة أو الرؤساء ، الذين يميلون إلى اتخاذ القرارات الفردية والتهديد بالعقاب، وفرض الرأى الواحد بصورة مستبدة وفردية (ص ١٥) .

وقد حاول ميرفى Murphy ، (١٩٤٧) أن يربط التسلطية بعملية التطبيع الاجتماعى ، وأن يبين أن المتسلط نبت اجتماعى لتنشئته الاجتماعية التى قد تجعل من الفرد شخصاً يتسم بالجمود العقلى . والخضوع المطلق لمن هم أعلى منه فى مراكز القوة والسلطة ، ويتصرف مع الآخرين وفقاً لما تمليه نظرته الضيقة للواقع والقائمة على الطبقية ،.

وفى محاولة لإخضاع ظاهرة التسلطية للبحث العلمى ، قام إيزنك (١٩٥٦) بانتقاء ٥٠٠ عبارة من مقاييس التسلطية المختلفة ، وإخضاعها للتحليل العاملى الذى أسفرت نتائجه عن عاملين متعامدين ، هما : (التطرف ، المحافظة - Radicalism conservatism التشدد فى الرأى فى مقابل المرونة -Toughmind edness - Ten derinindedness .

وقد أسفرت نتائجه عن أن التسلطية ظاهرة واسعة الانتشار بين الشباب المتطرف واليسارى واليمين المحافظ ، (ص ٤٣١ – ٤٣٨) .

والمتتبع لمفهوم التسلطية يجد أن هناك تعريفات تستخدم هذا المفهوم مرادفاً لمعنى التعصب وتمجيد القوة ، والحض على العدوان (ادورنو ، (١٩٥٠) ، ليفنسون، هوفمان ، Levinson , Huffman (١٩٥٥) كوفمان Kaufman (١٩٥٧)، بندر Bunder) ١٩٦٢ ، إبراهيم عبد الستار ، (١٩٨٤) ، وبعضها الآخر ينظر إلى التسلطية بوصفها تعنى التوحد مع مراكز القوة والسلطة ، وتمجيد الذات ، والجمود فى التفاعل مع الواقع ، والتركيز على المركز الاجتماعى (فروم ، ١٩٧١ ، ميرفى ١٩٤٧ ستجنر Stagner ١٩٦١) ، وبعضها الثالث ينظر إلى التسلطية بوصفها ظاهرة عامة تكمن فى البناء المعرفى للإنسان ، وأن جذور التسلطية تكمن فى كافة مناشط الإنسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأسرية وما إلى ذلك من مناشط (ريتش Reich، ١٩٣٥ – ١٩٧٠ ، روكيتش ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٠ ، شيلز ١٩٥٤) .

ومما سبق يتضح أن التسلطية ظاهرة مركبة ، ويختلف القصد من تعريفها باختلاف الباحثين واختلاف أطرهم المرجعية – ولكن رغم ذلك ثمة أرضية مشتركة بين معظم تعريفات التسلطية تفيد أنها تشير إلى التعصب والجمود العقلى ، والعدوان ، وتمجيد الذات ، والتعلق بما هو اجتماعى مرموق والتوحد مع نماذج تجعله يتقبل الأفكار والأحكام والمعايير التسلطية .

وتبرز قيمة تعريف أدورنو وزملائه (١٩٥٠) الذى تبناه الباحث للتسلطية فى إبرازهم للدافع النفسى ، الذى يكمن وراء التسلطية وإعدادهم لأداة لقياس التسلطية وهى مقياس F الذى يعتبر إلى – حد كبير – القاسم المشترك لكافة المقاييس التى تتخذ من التسلطية موضوعاً لها .

ثانياً : الدوجماطيقية : Dogmation

حظى مفهوم الدوجماطيقية باهتمام الباحثين من علماء النفس والاجتماع والتربية فى الخمسينيات والستينيات من هذا القرن ، أى فى الحقبة التى أطلق عليها اصطلاح « الحرب الباردة » بين القوتين العظمتين ، وذلك إثر الحرب العالمية الثانية ، وهى حقبة معبئة بالقلق والخوف من عودة العالم إلى ما كان عليه فى الثلاثينيات والأربعينيات من هيمنة مطلقة للأيديولوجيات ، ومعاداة للسامية ، وتعصب عنصرى وتمجيد للقوة ، ومناهضة للأفكار والأيديولوجيات الأخرى ، ومن ثم راح العلماء والباحثون – تحت ضغط وضع عالمى يوشك أن يسفر عن أزمة عالمية – يبحثون فى جذور التعصب والتسلط فى الفكر والسلوك والمواقف .

ويرجع الفضل إلى روكيتش Rokeach (١٩٥٤ – ١٩٦٠) فى تأصيل مصطلح

الدوجماطيقية بوصفه منظومة معرفية مغلقة .

وقد بلور روكيتش مفهومه عن الدوجماطيقية من خلال بحوثه المتعددة عن الجمود العقلى ، وضيق الأفق ، وطبيعة التفكير القطعى ومعنى وطبيعة الدوجماطيقية فى الفكر والسلوك والمواقف ، ولهذا أصبحت الدوجماطيقية مفهوماً فسيحاً يشير إلى «التسلطية العامة» (شيلز ، Shills ١٩٥٤ ، روكيتش ، ١٩٦٠) ، وتمتد لتستوعب كافة مناشط الإنسان فى السياسة والدين ، والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والثقافة والأسرة حيث علاقات الآباء بالأبناء ، ولا تقتصر على جانب واحد هو تسلطية اليمين بمضمونها الأيديولوچى الفاشى كما عبر عن ذلك أدورنو ، وزملاؤه (١٩٥٠) .

وتصور روكيتش (١٩٥٤ - ١٩٦٠) عن الدوجماطيقية يقوم على تصوره عن طبيعة الإنسان ؛ فلكل إنسان « بناء معرفى » ويقوم هذا البناء المعرفى على فكرة المعتقد ، فكل منا له معتقداته الخاصة عن الله وعن النفس وعن الوجود وعن السلطة وعن العلاقات الاجتماعية والثقافية والسياسية ، وتنظيم هذه المعتقدات فى نسق كلى من المعتقدات يكوِّن خصوصية البناء المعرفى للفرد ، ويترتب على هذا البناء المعرفى أساليب تفكير وسلوك واتجاهات شتى .. قد توصف بأنها مغلقة وجامدة ومتعصبة ، وقد توصف بأنها اتجاهات وسلوكيات وتفكير منفتح ومرن وقادر على التعايش والتواصل مع أفكار الآخرين ، وما يعتقدون.

وعلى هذا .. فإن الشخص الدوجماطيقى - كما يقول روكيتش (١٩٦٠) - شخص مغلق ، جامد يتسم بتفكير قطعى ، تتحول بمقتضاه أكثر الأفكار تفتحاً إلى منظومة مغلقة من الأفكار لا تقبل الجدل أو النقاش ، وإن الدوجماطيقية تكمن فى طريقة تناول الفرد للأفكار وللآخرين وللسلطة ، وليس فى مضمون الفكرة أو الأيديولوچية ، حيث يتوافر البناء المعرفى للناس جميعاً ، ولكن بدرجات تمتد عبر متصل فى أحد طرفيه يكون الانفتاح العقلى حيث تعايش الفرد مع ما يؤمن به الآخرون ، وتقبله للمعايير المناهضة لتفكيره ، وقدرته على إيجاد قنوات اتصال والتقاء بين ما يعتقده وما يعتقده الآخرون وفى الطرف الآخر يكون الانغلاق الفكرى حيث التعصب والجمود العقلى وثنائية التفكير القطعى ، ولهذا .. فإن الدوجماطيقى كما يشير روكيتش (١٩٦٠) يتسم بالاستجابة المتطرفة ، فهو إما أن يقبل الشىء قبولاً مطلقاً أو يرفضه رفضاً مطلقاً بغض النظر عن محتوى الشىء ومعقوليته .

ويفترض روكيتش (١٩٦٠) أن الدوجماطيقية نسق معرفى مغلق من المعتقدات التى تأخذ اتجاهات متأصلة لدى الفرد ، وتتميز بالعناصر الثلاثة الآتية :

١ - إن كل فرد له معتقداته الخاصة عن الله والوجود ومناشط الحياة المختلفة ، وعلى الرغم من خصوصية معتقدات كل فرد ، والتى قد تختلف عما يعتقده الآخرون .. فإنه توجد بعض جوانب الالتقاء ، التى من خلالها يمكن تعايش الفرد مع أفكار ومعتقدات الآخرين وأن الشخص الذى يرفض التعايش مع معتقدات الآخرون شخص مغلق فكرياً وعقائدياً ويدرك معتقداته بوصفها مطلقة ومعزولة عن غيرها من المعتقدات .

٢ - إن الدوجماطيقى شخص تسلطى يؤمن بالقوة ، ويرى أنها العنصر الحاكم فى تغيير الواقع ، وأن التطور رهين بوجود شخصيات فذة فى مجالات الحياة المختلفة .

٣ - يتسم الدوجماطيقى بالرفض والعداء والنفور من الآخرين ، الذين يؤمنون بعكس ما يؤمن ويعتقد ويصفهم ، بأنهم من الحمقى ، بسطاء العقول ، (روكيتش ، ١٩٦٠ ، ص ٧٧ ، ٨١) .

وتكاد تتفق سمات الدوجماطيقى - كما حددها روكيتش (١٩٦٠) مع ما يقول به نوتا Nouta (١٩٨٤) عن سمات الفاشى كما تحددها مدرسة فرنكفورت للبحوث الاجتماعية ، حيث يقول نوتا : « يتسم الفاشى بسمات أربع : على المستوى الأيديولوجى يفرق الفاشى تفرقة حاسمة بين الخير والشر ، الأعمال المنزلية وتربية الأطفال وعلى المستوى الاجتماعى يدعو الفاشى إلى الأخذ بالقيم المتعارف عليها ، وإلى عدم التمرد عليها ، وعلى المستوى السياسى يدعو الفاشى إلى طاعة الدولة وجميع أشكال السلطة ، وهذه السمات الأربع ملازمة للفاشى ، وهى فى جملتها تدفع الفاشى إلى الجمود العقلى وعدم المرونة ، ولا يقف هذا الجمود عند حد المستوى العقلى بل يتعداه إلى الحركات الجسمية ، فالفاشى يعشق الأسلوب العسكرى ، (ص٣٥) .

ويخلص نوتا (١٩٨٤) إلى أن البروفيل الفاشى بسماته الأربع تعبير عن العنف؛ لأنه ضحية للعنف ، ولهذا يريد أن يجعل من الآخر ضحية له ، ووسيلته إلى ذلك العنف.

كذلك يقرر أتريا Atreya (١٩٨٤) أن الدوجماطيقى يتميز بالجمود والعجز عن مواكبة الأنشطة الجديدة وانغلاق الذهن (ص ٥٤) .

ويرى سويف (١٩٨٤) أن الدوجماطيقية تعنى ثنائية التفكير القطعى ، وأن

الدوجماطيقى يرى الأمور على أنها إما بيضاء ، وإما سوداء ولا ظلال بينهما (ص٧٥) .

وقد أوضح ماسلو Masolo (١٩٨٤) أن الدوجماطيقية هى أقوال مطلقة من غير سند أو برهان ، فهى سلطوية ؛ لأنها مرتبطة بالسلطة ، ومرتبطة كذلك بالذات الإنسانية وانحيازتها . ومن هذه الزاوية .. فإن الأيديولوچية دوجماطيقية ، وحيث تكون الدوجماطيقية يكون جمود العقل وانغلاقه (ص ٢٥٤) .

هذا ، وقد أكدت بعض البحوث وجود علاقة موجبة بين الاغتراب والدوجماطيقية ، بوصفه انفصال الإنسان عن ثرائه الداخلى ، وعن قدراته الخلاقة ، وعن مناشط العقل فى توهجه الإبداعى ، ومرونته وتفتحه على الأفكار والمواقف يرتبط ارتباطاً موجباً والدوجماطيقية .. من حيث هى تعبير عن الجمود والانغلاق والتعصب وثنائية التفكير القطعى ، ولهذا أسفرت دراسة كينستون (١٩٦٨) عن «الراديكاليين الجدد » عن وجود علاقة موجبة بين الاغتراب والتطرف ، كذلك أسفرت دراسة أشوك Ashok (١٩٧٨) عن الشباب الهندى ، وأسفرت دراسة مراد وهبة (١٩٨٤) عن الكهف والدوجما واغتراب الإنسان .

ويتضح مما سبق أن الدوجماطيقية ظاهرة إنسانية وأنها تعبير عن أزمة عصر، وأن البحث فى مظاهرها يعنى البحث فى جذور التعصب ، والانغلاق ، وجمود العقل وثنائية التفكير القطعى ، والعدوان والتسلط وتأليه السلطة الواحدة ، والجماعة الواحدة ، والرأى الواحد ، والغاية الواحدة ، وأنها ظاهرة عالمية (ريتش ، ١٩٣٥ – ١٩٧٠ نوتا، ١٩٨٤) ، ليس لها وطن معين ، فلم تكن ألمانيا وإيطاليا وطنها الوحيد ، بل ممتدة إلى المكارثية وجماعات كلوكلاكس فى الولايات المتحدة ، وأيضاً فى السلفادور ، وشيلى ولبنان وإيران وجنوب أفريقيا . وهى تعبير عن التسلطية العامة (روكيتش ، ١٩٦٠ ، شيلز ١٩٥٤) ومن ثم يمكن دراستها بمعزل عن الأيديولوچية السياسية .. فى حياة الإنسان العادى ، وفى أسلوب تفكيره وكيفية تناوله للموضوعات والأفكار ، فالإنسان المغلق على نفسه وعلى ما يعتقده والذى يرى فى أسرته عالمه الأوحد ، والذى يحيا نهباً لمشاعر الخوف وفقدان الأمن ، ويرى فى أفكاره قيمة قصوى ، ولا يستطيع أن يتعايش مع أفكار الآخرين ، ولا يجد بين أفكاره ، وأفكار الآخرين تواصلا والتقاء ، هو شخص دوجماطيقى يدافع عما يعتقده بعدوان وخوف وتسلط.

وقد أكد ميرفى (١٩٤٧) – من قبل روكيتش – بأن الانغلاق والجمود العقلى قد يظهران بين أبناء الليبراليين بالدرجة نفسها بين أبناء المحافظين وهذا راجع إلى

طبيعة التنشئة الاجتماعية الأولى ، ومعاملة الآباء لأبنائهم ، والتى قد تجنح نحو فرض القواعد الصارمة والنواهى والأوامر والتوحد الجامد بمعايير الآباء. أما بروان (١٩٦٥) فقد بيّن أن التسلطية مفهوم واسع ، وأن تسلطية اليسار لا تختلف عن تسلطية اليمين الفاشى .

وتتبنى هذه الدراسة تعريف روكيتش (١٩٦٠) الذى يفيد بأن الدوجماطيقية نسق مغلق من المعتقدات الخاصة بالواقع والحياة ، الذى ينتظم حوله مجموعة من الأفكار الخاصة بقوة السلطة المطلقة ، وتتحول هذه بدورها إلى معايير تنظم سلوك الفرد نحو الآخرين .

وطبقاً لمفهوم روكيتش عن الدوجماطيقية ، فإن هذا التعريف يتضمن ثلاثة متغيرات أساسية :

١ - وجود نسق معرفى من المعتقدات والآراء لدى الدوجماطيقى يتسم بالجمود والانغلاق على دائرة ما يعتقد ، والاعتقاد الكامل فى هذه المعتقدات ، والنظر إلى ما يخالفها على أنه باطل .

٢ - تأليه السلطة واعتبارها مطلقة ، وقد تكون هذه السلطة : سلطة الدولة أو سلطة الحزب الواحد ، أو الرأى الواحد ، أو الغاية الواحدة ، أو المؤسسة الواحدة أو النقابة الواحدة ، أو الجماعة الواحدة أو الأسرة الواحدة أو سلطة الأبوين ، هو الاعتقاد المطلق بالسلطة أيا كان نوعها، وتمجيدها والدفاع عنها واعتبار الأفكار التى تصدر عنها وكأنها تمثل صفوة الفكر وامتيازه ولا يجوز تناولها بالنقد أو الجدل أو النقاش .. إنها تمثل حقيقة مطلقة بذاتها.

٣ - النفور من المعارضين ، والشعور بالخوف الذى يؤدى إلى العدوان والتسلط تجاه من لا يؤمنون بأفكاره ، وما يعتقد .

قياسات الاتجاهات

فى عام ١٩٢٩ ، ظهر أول وصف لقياس الاتجاهات صممه العالم النفسى الشهير ثرستون بالاشتراك مع شيف Chave وكان الهدف من محاولتهما هو وضع مقياس (وحداته متساوية الظهور) . ثم انطلق بعد ذلك ثرستون بالاشتراك مع تلاميذه يصممون مقاييس اتجاهات الناس نحو الوطنية والرقابة والكتاب المقدس والاعتماد على الله ، وحرية المرأة ، وهجرة الأفراد والشيوعية والزواج والطلاق وما إلى ذلك من موضوعات تكشف عن اتجاهات الناس نحوها .

١) طريقة ثرستون Thurston

اقترح ثرستون طريقة لقياس اتجاهات الناس نحو موضوعات متعددة ، من خلال عدد من المقاييس المتساوية البعد والظهور Equal Appearing Interval Scale .

وقد أعد المقياس من خلال تقدير أوزان للعبارات ، معتمداً فى هذا التقدير على المحكمين والخبراء فى الميدان ، وكان يطلب منهم أن يصنفوا العبارات حسب الإيجابية والسلبية فى (١١) خانة بحيث تكون أكثر العبارات إيجابية فى الخانة رقم (١) وأكثرها سلبية فى الخانة رقم (١١) ثم المتوسطة فى الخانة رقم (٦) . ثم يستبعد العبارات الغامضة وغير الواضحة بذاتها ، ومن ثم يتم تخفيض عبارات المقياس من مائة عبارة أو يزيد إلى حوالى ٢٠ – ٥٠ عبارة .

نقد طريقة ثرستون :

١) تتطلب هذه الطريقة عناءً وجهداً كبيراً حتى يصبح المقياس صالحاً للاستعمال .

٢) قد تفتقر الأوزان التى يعطيها المحكمون إلى الموضوعية .

٢) طريقة بوجاردس Bogardus

تعتبر أول محاولة ، تلك التى قام بها بوجاردس لقياس البعد الاجتماعى أو المسافة الاجتماعية بين الجماعات العنصرية أو القومية .

ويحتوى مقياس البعد الاجتماعى على وحدات أو عبارات تمثل بعض المواقف الحقيقية فى الحياة .

ويتمثل الهدف من تصميم هذا المقياس فى قياس مدى تسامح الفرد أو تعصبه ، تقبله أو نفوره ، قربه أو بعده بالنسبة لجماعة معينة أو عنصر معين أو جنس معين أو شعب معين كقياس اتجاه الأمريكان من الزنوج أو اليهود أو الإنجليز .. إلخ.

وفيما يلى مقياس البعد الاجتماعى كما صاغه بوجاردس :

أحب أن:

(١)	(٢)	(٣)	(٤)	(٥)	(٦)	(٧)
أتزوج منهم	أصادقهم	أجاورهم	أزاملهم فى العمل	أقبلهم كمواطنين فى بلدى	أقبلهم كزائرين لوطنى	أستبعدهم من وطنى

وتوضع علامة أمام الوحدة التى تمثل اتجاه الفرد .

وهكذا .. يتضح أن الاستجابات تتحرك فوق متصل من سبع درجات الاستجابة الأولى تمثل أقصى الاتجاه من الزاوية الموجبة حيث القرب الاجتماعى ، فى حين أن الاستجابة الأخيرة تمثل أقصى الاتجاه من الزاوية السلبية حيث البعد الاجتماعى .

ويلاحظ أن المقياس سهل التطبيق بيد أن وحداته لا تتدرج بطريقة متساوية.

٣) طريقة ليكرت Likert

ابتكر ليكرت (١٩٣٢) طريقة جديدة لقياس الاتجاه نحو مختلف الموضوعات مثل المرأة والتقدم والزنوج وما إلى ذلك ، ويتكون المقياس من أربع رتب بينها مركز محايد ، على النحو التالى :

موافق جداً ١	موافق ٢	محايد ٣	معارض ٤	معارض جداً ٥

يجب أن يتمتع الزنوج بكافة الحقوق التى يتمتع بها الرجل الأبيض .

ويطلب من المفحوص أن يضع علامة فى المكان الذى يدل عليه هذا ، وقد استخدم طريقة ليكرت كثير من الباحثين وعلماء النفس لقياس اتجاهات الناس نحو التعصب والجمود الفكرى ، على النحو التالى :

أولاً : مقياس أدورنو للتسلطية :

صمم أدورنو وزملاؤه (١٩٥٠) مقياس التسلطية ، وأطلقوا عليه اسم F. Scale

بهدف توفير أداة تقيس بشكل غير مباشر السمات النفسية ، التى تجعل الفرد مهيئاً لتقبل التعصب والتسلط والعدوان ، وأطلقوا على مجموع هذه السمات اسم « الشخصية التسلطية» .

وقد استند مصممو المقياس إلى ثلاثة أسس فى صياغة عبارات المقياس ومتغيراته التسعة . وهذه الأسس هى :

١ - أن تكون عبارات المقياس غير مباشرة ، بمعنى ألا تشير العبارت إلى أى مضمون أيديولوچى أو أى معنى من معانى التعصب ، وهذا لا يعنى أن تكون عبارات المقياس غامضة وغير واضحة بذاتها .

٢ - أن تتوافر لكل عبارة درجة من التوازن بين ما هو موضوعى وما هو ذاتى؛ حتى يتوافر لعبارات المقياس قوة تمييز للأفراد واتجاهاتهم وميولهم نحو التسلطية .

٣ - أن تسهم كل عبارة فى الوحدة البنائية للمقياس ككل ؛ بمعنى أن توجد عبارات ممثلة لكل متغير من متغيرات المقياس التسعة ، حتى تشارك كل عبارة بنصيب فى تغطية سمات الشخصية التسلطية .

هذا ، وقد استند مصممو المقياس إلى إطار مرجعى مستمد من نظرية التحليل النفسى ، ودراسة اتجاهات بعض الأفراد المتعصبين ، والسمات المشتركة بينهم بتطبيق فنيات التحليل النفسى وبعض الاختبارات النفسية كاختبار .T.A.T ويتكون المقياس من ٢٩ عبارة تندرج تحت تسعة متغيرات ، يذكرها عبد الستار إبراهيم (١٩٨٤) على النحو التالى (ص ٣٩ - ٤٠) :

١ - الامتثالية Conventionalism : أى الانصياع والتقبل الشكلى لمعايير الطبقة الوسطى وقيمها ، على أساس أن التسلطية تتشكل فى البيئات المحيطة بالطبقات الوسطى .

٢ - الخضوع التسلطى Authoritarian Submission ويقصد به الخضوع المطلق لمعايير واتجاهات السلطة .

٣ - العدوان التسلطى Authoritarian Aggression ويظهر فى الميل لرفض وإدانة من يحاول الخروج عن القواعد ، أو القيم التى يؤمن بها الفرد التسلطى .

٤ - معارضة الجوانب التأملية أو النظرية من النشاط الإنسانى ويقصد بها تأييد

الموضوعات العلمية والمجسمة والمحسوسة كالعلوم الطبيعية ، والنفور من الجوانب التى تتطلب معالجة فنية ، أو أدبية أو نظرية أو خيالية .

٥ – النزعة الخرافية والنمطية Superstion and Stereotypey، وتظهر فى شكل الميل إلى الإيمان بحلول ومحددات غيبية للسلوك والمصير، والاستعداد للتمسك بالآراء العامة السائدة، بغض النظر عما تحمله من خطأ أو صواب .

٦ – التعلق بالقوة والميول الصارمة Power and Toughness ؛ أى الانشغال بالقوة والتعامل مع الواقع وفق نماذج سلطوية متقابلة كالخضوع فى مقابل السيطرة ، والتبعية فى مقابل القيادة والضعف فى مقابل القوة .

٧ – النزعة التدميرية والاستخفافية Destructiveness and Synicism، وتظهر فى شكل عنوان عام ضد الجنس البشرى ، ومحاولة النيل منه والتحذير من الانتصارات البشرية ، والاستخفافات بالإمكانات الإنسانية .

٨ – الميول الإسقاطية Projectivity : بتحويل المشكلات والصراعات والعدوان والضعف الداخلى نحو الخارج ، فيتصور التسلطى أن العالم ملئ بالمخاطر والوحشية ، والصراعات ، والعدوان ، والانحلال .

٩ – الانشغال الزائد بالجنس : إذ يحول التسلطى قلقه الجنسى إلى تصور أن العالم ملئ بالانحلال والانحرافات ، وأنه لهذا يجب إدانة الانحلال الجنسى وعقاب المنحرفين.

تصحيح المقياس وحساب الدرجات :

وقد اتبع مصممو المقياس طريقة ليكرت فى قياس الاتجاهات فى تصحيح المقياس ، فهناك ثلاث رتب للموافقة ، وثلاث أخرى للمعارضة وبينهم مركز محايد .

وتتدرج الإجابة عبر متصل يمتد من موافقة تامة (٧) سبع درجات إلى معارضة تامة (درجة واحدة) .

صدق المقياس :

قام أحمد عبد العزيز سلامة (١٩٧٢) بتعريب هذا الاختبار ونقل عباراته إلى اللغة العربية . وقام عبد الستار إبراهيم (١٩٨٤) بالتأكد من صلاحية المقياس فى البيئة المصرية ، وبحساب معامل القدرة الفارقة لكل عبارة ، والهدف من هذا العامل هو تقدير صدق كل عبارة فى قياس ما وضعت لقياسه ، وقد بلغ متوسط القوى الفارقة للعبارات ١,٠٩ ، ولعينة قوامها ٨٠ طالباً .

ثبات المقياس :

يذكر عبد الستار إبراهيم (١٩٨٤) أن معامل هذا المقياس فى الدراسات الأمريكية المختلفة يتراوح بين ٠,٥٦ : ٠,٨٨ بمتوسط قدره ٠,٧٤ (ص ٤٢ – ٤٣) .

وقد قام الباحث الحالى بحساب معامل ثبات المقياس بطريقة إعادة الإجراء بفاصل زمنى قدره (٢١) يوماً ، على عينة قوامها (١٠٠) طالب من كلية التربية ، جامعة عين شمس ، وكان معامل الثبات قدره ٠,٦٦ .

ثانياً : مقياس الدوجماطيقية D. Scale

– صمم روكيتش (١٩٥٦ – ١٩٦٠) هذا المقياس كمحاولة نقدية لمقياس F.Scale ؛ إذ رأى روكيتش (١٩٦٠) أن التسلطية ينبغى دراستها بمعزل عن المعتقدات السياسية (الأيديولوچية) ، وقدم تصوراً عن طبيعة الإنسان يقوم على أساس « البناء المعرفى » الذى قد يتسم لدى الفرد إما بالجمود العقلى والعقائدى ، أو بالانفتاح العقلى ومرونته ، وركز فى هذا التصور على تعبير « التسلطية العامة » فى الفكر والسلوك والمواقف ، التى قد تنفصل عن الأيديولوچية ، وتكمن فى طريقة تناول الأفراد للأفكار والموضوعات والمعتقدات والمواقف .

ولهذا اهتم روكيتش (١٩٦٠) بتعريف التسلطية من خلال البناء المعرفى للفرد، وطريقة تناوله للأفكار والمعتقدات بغض النظر عن محتوى الفكرة أو الأيديولوچية .

وافترض روكيتش (١٩٦٠) أن الدوجماطيقية « تنظيم مغلق من المعتقدات الخاصة بالواقع والحياة ، ينتظم حول مجموعة من الأفكار الخاصة بقوة السلطة المطلقة ، وهذه بدورها تتحول إلى معايير تنظم سلوك الفرد نحو الآخرين من حيث التسامح أو النفور » (ص ١٩٥) .

وعلى هذا .. فإن روكيتش (١٩٦٠) قد اهتم بالجانب المعرفى لدى الفرد ، ووضع مقياسه ليقيس الدوجماطيقية من خلال ثلاثة أبعاد رئيسية .

ويعرض علاء كفافى (١٩٧٥) لهذه الأبعاد (ص ١٠٣ – ١٠٦) .

البعد الأول: المعتقدات واللامعتقدات Belief - Disbelief Dimension

يرى روكيتش أن كل فرد لديه مجموعة من الآراء والأفكار يؤمن بها ويعتقدها تمثل المعتقدات ، ومجموعة أخرى من الآراء والأفكار لا يؤمن بها وتمثل «اللامعتقدات» ، وكلما كانت الأفكار والآراء أقرب إلى دائرة اعتقاد الفرد ، زاد احتمال

تقبله لها كجزء من معتقداته ، وكلما كانت أقرب إلى دائرة اللامعتقدات زاد احتمال رفضه لها .

ويفترض روكيتش أن تنظيم المعتقدات واللامعتقدات يتميز بصفتين ، هما :

الانعزال والتمايز :

أ - الانعزال :

قد يوجد الانعزال بين تنظيم المعتقدات وتنظيم «اللامعتقدات» كعدم رؤية أى شبه بين فلسفتين أو اتجاهين فى الفكر السياسى أو الاقتصادى ، كما يوجد الانعزال على صورة تناقض بين الأفكار ، مثل : إيمان الفرد بالديمقراطية مع إيمانه بحق الصفوة الممتازة فى تولى السلطة . ويرى روكيتش أن نقص الاتساق الفكرى من الملامح المميزة للدوجماطيقى .

ب - التمايز :

ويقصد به أن الأفراد لديهم من المعرفة عن «المعتقدات» الخاصة بهم أكثر مما لديهم عن «اللامعتقدات» الخاصة بهم ، ويظهر هذا بصورة أكبر عند الدوجماطيقى فهو يبحث عن كل معرفة تتعلق بمعتقداته ، وقد يجهل كل شىء بالنسبة للامعتقدات.

البعد الثانى : البعد المركزى - السطحى :

يرى روكيتش أن معتقدات الفرد تتفاوت فى موقعها بالنسبة لتنظيم الفرد المعرفى ، وكأنها تمتد عبر متصل ، أو على قطر من دائرة ، يبدأ من مركز الدائرة ، ويمتد حتى يلمس محيط الدائرة . وكلما كانت المعتقدات فى مكان قريب من المركز عدت معتقدات أقرب إلى « المركزية» ، وكلما اقتربت من محيط الدائرة كانت معتقدات هامشية أو سطحية . وعلى هذا .. يقسم روكيتش إلى أنواع بحسب المنطقة التى تقع فيها المعتقدات:

أ - المنطقة المركزية Central Region

وهى تكون أساس النظام الاعتقادى لدى الفرد ، وهى المعتقدات التى تتصل بأصل الكون وخصائصه ، وبالمجتمع الذى يعيش فيه الفرد ، وبذات الفرد نفسه وارتباطه مع الآخرين ، ونوع علاقته بهم . وتدور المعتقدات المركزية عند من يحصلون على درجة مرتفعة فى مقياس الدوجماطيقية حول غربة الإنسان ووحدته فى هذا العالم الموحش والأفكار المتشائمة بشأن المستقبل ، وتبنى الفرد اتجاه بارانوى نحو الحياة كرد فعل لإحساسه بالعزلة والوحدة .

ب - المنطقة الوسطى بين المركزية والسطحية Intermediate region

وتتعلق بالسلطة التى يخضع لها الفرد ، وموقف الفرد من الآخرين وفى حالة الدوجماطيقى، فإن الذى يحدد مواقفه من الآخرين هو درجة التشابه بين التنظيم الاعتقادى للآخرين ونظامه الاعتقادى . فكلما زادت درجة التشابه بين النظامين، زادت درجة تقبله لهما ، والعكس صحيح.

جـ - المنطقة السطحية Perpheral region

وهى تمثل القضايا الهامشية بالنسبة للفرد ، وهى قضايا ليس لها كيان خاص، وإنما هى متفرعة ومشتقة من القضايا المركزية والقضايا المتوسطة بين المركزية والسطحية ، ولا يوجه الدوجماطيقيون اهتمامًا يذكر إلى هذا النوع من القضايا الهامشية؛ لأنها بعيدة عن مركز اعتقاد الفرد .

البعد الثالث : بعد إدراك الزمن Time perspective Dimension

يدرك الأفراد العاديون وحدات الزمن من ماضٍ وحاضر ومستقبل بطريقة منطقية مسلسلة ، فالماضى يؤدى إلى الحاضر ، ومعطيات الحاضر هى التى تصنع المستقبل ، ولكن الدوجماطيقى لا يدرك الزمن على هذا النحو .. إنما يبالغ فى تجسيم إحدى وحداته ، فقد يركز على الحاضر فقط ويقطع كل صلة له بالمستقبل ، ولا يدرك الصلة بين الحاضر والماضى ، كما قد يغفل الحاضر ويعيش فى الماضى معتقداً أن الحاضر فاسد ، وأن المستقبل مظلم ، وأن الماضى هو الذى يستحق التمجيد ، وأن من يحاول الإصلاح فعليه أن يعود إلى الماضى ، وقد لا يرى الدوجماطيقى فى الحاضر إلا التعاسة فيخضع كل أمله فى المستقبل ، دون أن يدرك منطق العلاقة بين الحاضر والمستقبل .

ويتكون المقياس من ٦٥ عبارة ، وقد قام أحمد عبد العزيز سلامة (١٩٧٢) بتعريبه ، ويتشابه مقياس الدوجماطيقية مع مقياس التسلطية (أدورنو ، ١٩٥٠) فى أن كلا منهما يتبع طريقة ليكرت فى قياس الاتجاهات .. فهناك ثلاث رتب للموافقة ، وثلاث أخرى للمعارضة . وتتدرج الإجابة عبر هذا المتصل من موافقة تامة (سبع درجات) إلى معارضة تامة (درجة واحدة) .

صدق المقياس :

قام روكيتش (١٩٦٠) بحساب صدق المقياس ، عن طريق حساب الصدق التلازمى باتفاق نتائج مقياسه عن الدوجماطيقية مع مقاييس أخرى ، ثبت صدقها من

قبل ، مثل : مقياس التسلطية F.Scale ومقياس التمركز السلالى E. Ethnocentrism على عينات مختلفة من طلبة بعض الجامعات الأمريكية والإنجليزية ، بالإضافة إلى بعض العمال الإنجليز .

ويوضح الجدول التالى الارتباط بين مقياس الدوجماطيقية والتسلطية والتمركز السلالى على عينات من الطلبة الجامعيين وبعض العمال .

جدول (٢) : معاملات ارتباط الدوجماطيقية D والتسلطية F والتمركز السلالى E.

م	العينة والكلية	D , F	F . F .	D, E.	(E.F) E
١	٢٠٢ طالب امريكى	٠,٦٧	٠,٥٦	٠,٣٦	٠,٦١
٢	١٣١ طالبا يهودياً	٠,٦١	٠,٦٠	٠,٤٩	٠,٤٢
٣	١٥٣ طالبا أمريكيا	٠,٦١	٠,٥٨	٠,٣٣	٠,٥٤
٤	١٨٦ طالبا أمريكيا	٠,٥٤	٠,٦٤	٠,٣١	٠,٤٧
٥	١٣٧ طالبا إنجليزيا	٠,٥٧	٠,٥٨	٠,٣٩	٠,٤٦
٦	٨٠ طالبا إنجليزيا	٠,٦٢	٠,٦٢	٠,٣٢	٠,٥٧
٧	٦٠ عاملا انجليزيا	٠,٧٧	٠,٥٦	٠,٥٣	٠,٦٧

ومن هذا الجدول يتضح صدق مقياس الدوجماطيقية لقياس ظاهرة الدوجماطيقية (ص ٤٢٢) .

وقد قامت عدة دراسات عربية للتأكد من صدق مقياس روكيتش عن الدوجماطيقية لقياس موضوع البحث ، ومن بين هذه الدراسات دراسة أحمد عمر روبى (١٩٨١)، الذى اعتمد فى التعريف على صدق المقياس بحساب الصدق الذاتى (٠,٨٨) (ص ١٤٥ – ١٤٦) .

وقام صلاح أبو ناهية (١٩٨٤) بتعرف صدق المقياس بواسطة صدق عباراته التى كانت دالة ما بين ٠,٢٦ : ٠,٧٥ فى حين تعرف عبد العال حامد (١٩٨٦) صدق المقياس بطريقة المقارنة الطرفية لقيمة النسبة المئوية الحرجة = ٢٠,٧ هى قيمة دالة عند مستوى ٠,٠١ .

ثبات المقياس :

استخدم روكيتش طريقتى إعادة الإجراء والاتساق الداخلى فى حساب معامل ثبات المقياس ، الذى وجد أنه يتراوح ما بين ٠,٦٨ و ٠,٩٣ بمتوسط قدره ٠,٨٠ .

وقد قام أحمد عمر روبى (١٩٨١) بحساب معامل ثبات للمقياس بطريقة إعادة الإجراء بفاصل زمنى قدره (١٥) يومًا على عينة قوامها ٦٤ طالبًا و٦٩ طالبة من التعليم الثانوى .

وقد تراوح معامل الثبات ما بين ٠,٣٨ إلى ٠,٧٩ بالنسبة للذكور، أما الإناث فكان ما بين ٠,٤٨ إلى ٠,٨٠ .

وقام صلاح أبو ناهية (١٩٨٤) بحساب ثبات المقياس بطريقة التجزئة التصفية على عينة قوامها ٦٠ طالباً من المرحلة الثانوية ، وكان معامل الثبات ٠,٨٤ .

وقام عبد العال حامد (١٩٨٦) أيضا بحساب معامل الثبات بطريقة إعادة الإجراء بفاصل زمنى قدره (٢١) يومًا على عينة قوامها (٢٤) طالبة من كلية التربية، جامعة المنوفية ، وكان معامل الثبات ٠,٧٦ .

طريق تغيير الاتجاهات

ولئن كانت الاتجاهات تتصف بالاستمرارية والثبات النسبى .. فإن عملية تغييرها أو تعديلها تعد عملية عسيرة ؛ لأن الاتجاهات تتحول بمرور الوقت إلى مكون من مكونات الفرد الشخصية ، ومن ثم يتعذر تغييرها أو تعديلها بسهولة .

ومع ذلك .. فقد أجريت دراسات عديدة لبحث وسائل تعديل الاتجاهات ، تبين منها أن هناك عدة طرق لتغيير اتجاهات الفرد بعضها يرجع إلى انتقال الفرد من جماعة إلى جماعة ، وبعضها يرجع إلى التغيير فى المواقف التى يمر بها الفرد ، كما أن بعضها قد يرجع إلى التأثير الذى تحدثه جهود المربين ووسائل الإعلام والدعاية.

ولعل من بين الأسباب التى تجعل الاتجاه سهل التعديل أو التغيير :

أن يكون الاتجاه ضعيفاً ، غير واضح ، هامشياً بالنسبة لأفراد الجماعة ، يختلف الأفراد كثيراً فى شأنه .

---

(١) أحمد عبد العزيز سلامه ، عبد السلام عبد الغفار : علم النفس الاجتماعى ، دار النهضة العربية، ١٩٨٢ .

(٢) Hoffer, E., The true believe, New York, 1962.

(٣) Ferrero, G., Principle of Tower, New York Putnam, 1942.

وهناك عوامل تجعل تغيير الاتجاه أمراً عسيراً ، من أهمها :

١) قوة الاتجاه ورسوخه وزيادة درجة وضوحه عند الفرد .

٢) تحوله – بمرور الوقت – إلى مكون من مكونات شخصية الفرد ، والجماعة التى ينتمى إليها ، وهنا تلعب دفاعات الفرد دوراً كبيراً فى تثبيت الاتجاه .

٣) ضيق الأفق والانغلاق العقلى عند بعض الأفراد يجعل من تغيير أو تعديل الاتجاه مسألة شبه مستحيلة ؛ لأن الشخص الدوجماطيقى تتحول عنده الأفكار الى ثنائية قطعية ، ليس فيها مساواة أو التقاء بين ما يؤمن به من اتجاهات ، وما يؤمن به الآخرون من اتجاهات .

٤) محاولة استخدام العنف أو القهر فى تغيير الاتجاهات يزيد من ثبات الاتجاهات ورسوخها .. ولهذا يؤكد أريك هوفر Hoffer « إن العنف يولد التطرف ، وإن التطرف يشجع على العنف ، وأن من الصعب تحديد أيهما أولاً : وقد بين فيرار Ferrero بوضوح شديد أن مبادئ القوة تشجع على التطرف ، وأن التطرف يشجع على اعتناق مبادئ القوة ، فالثوار فى الثورة الفرنسية كانوا كلما سفكوا مزيداً من الدماء ، زاد احتياجهم إلى اعتناق مبادئهم على أنها نتائج مطلقة » .

وثمة طرائق قد يمكن من خلالها تعديل اتجاهات الأفراد ، ولعل من أهمها :

١) تغيير الفرد للجماعة التى ينتمى إليها .

٢) تغيير المواقف .

٣) التغيير القسرى فى السلوك .

٤) الاتصال المباشر بموضوع الاتجاه .

٥) التغيرات التكنولوجية التى تكتسح كل جمود أمامها .

٦) التغيرات الاجتماعية التى تهز ثوابت المجتمع .

٧) وسائل الإعلام بأدواتها المتعددة .

٨) تأثير الدعاية المضادة فى الاتجاه .

الفصل الرابع

* في معنى التنشئة الاجتماعية
* في معنى الثقافة
* الوراثة والبيئة
* التعلم والتنشئة الاجتماعية
* وسائل التنشئة الاجتماعية

التنشئة الاجتماعية

الفصل الرابع
التنشئة الاجتماعية Socialization

تُعد عملية التنشئة الاجتماعية من العوامل التى تحدد سلوك الفرد وتشكله اجتماعياً ونفسياً وثقافياً وحضارياً .

وتتلخص عملية التنشئة الاجتماعية فى تلك الوثبة الكيفية التى تنقل الإنسان من مملكة الحيوان إلى مملكة الإنسان ؛ فالإنسان يولد مزوداً بعتاد غرائزى محض ، بيد أنه يولد أيضاً وهو مزود بإمكانات الطبيعة الإنسانية فى أرقى مراتبها ؛ لأنه مزود بتنظيم عقلى وخيال خصب وضمير أخلاقى ، ومن ثم .. فإن الغرائز عند الإنسان تعمل فى هامش ضيق محدود بينما تحتل المقدمة لديه إمكانات لا حصر لها وليس لها وجود عند سائر عالم الحيوان .

وإنسانية الإنسان ، لا تتحقق بغير تربية وتطبيع اجتماعى ، وعن طريقها تتفجر إمكاناته وقدراته ومواهبه ، ويستطيع أن يعى ذاته ، وأن يبحث لنفسه عن هوية، وعن موقع فى صميم العالم .

يقول فروم (١٩٦٩) إن الإنسان يمكن تعريفه بأنه الحيوان الذى يستطيع أن يقول « أنا » فالحيوان موجود فى باطن الطبيعة لا يتجاوزها وليس له وعى بذاته ، وليست به حاجة إلى الإحساس بهويته ، بيد أن الإنسان – بما أوتى من عقل وخيال– يستطيع الانفصال عن الطبيعة وأن يكوّن تصوراً عن نفسه ، وأن يشعر ويقول (I am I) .

وهذا الشعور بالكينونة يفجر إمكانات الإنسان ، ويحقق له الحرية والتقدم والمستقبل .

تفسير ذلك !

إن الحيوان يولد مكبلا بمسارات الغريزة وقيودها ، غير أن الإنسان يولد حراً .. ومن ثم يكون عليه أن يكتشف المعرفة من جديد وأن يصوغ ويشكل حياته فى سياق من عملية التطبيع الاجتماعى ، وعليه .. فإن مسارات الغريزة تولد مع الحيوان ، وتكون مفروضة عليه فرضاً لا يستطيع تجنبها ولا أن يحيد عنها ولا أن يبدل منها أو يغير فيها ولا أن يجدد فى جوهرها أو مظهرها فأجيال الحمير تتعاقب جيلاً بعد جيل

بغير تغير ، وخلايا النحل منذ وجد النحل وإلى أن ينقرض النحل لا تتحول ولا تتبدل. والأمر نفسه ينسحب على كافة أنواع الحيوان ، فليس فى مقدور النحل أن يصنع خلية على صورة أخرى ، أو يمتنع عن صنعها عامداً أو يعيش ليصنع شيئاً آخر .

ولكن الأمر يكون مختلفاً كل الاختلاف بالنسبة لعالم الإنسان ، فمن مكوناته أنه يستطيع أن يغير ويشكل ويصوغ حياته من جديد فى سياق من عملية التطبيع الاجتماعى ويعبر فروم Fromm فى كتابه المجتمع السليم The Sane Society عن هذا المعنى ، فيرى أن الإنسان من ناحيته العضوية ووظائفه الفسيولوجية يعتبر جزءاً من مملكة الحيوان ، والحيوان يؤدى وظائفه بما لديه من غرائز وما عنده من اتجاهات عملية معينة يحددها جهاز عصبى موروث ، وكلما ارتقى الحيوان فى سلم التطور ازداد مرونة فى اتجاهاته العملية ، وقل جموداً فى تكوينه البدنى وجهازه العصبى الموروث ، بيد أن هناك عناصر وجودية ثابتة فى جميع أنواع الحيوان برغم ارتقاء بعضها فى سلم التطور .. ويستطرد فروم فيبين أن العناصر الوجودية الثابتة التى تلازم الحيوان فى جميع مراتب تطوره خاضعة لقوانين الطبيعة البيولوجية ، فهو جزء من الطبيعة لا يتجاوزها إلى ما وراءها ليس له ضمير اخلاقى ولا يدرك نفسه أو وجوده وليس له عقل . ولا يعرف ما الحقيقة وإن كان ربما يدرك ما ينفعه .

وباختصار .. فإن الوجود الحيوانى توفيق بين الحيوان والطبيعة ، فى حين أن الوضع جد مختلف عند الإنسان ، فعندما يولد الإنسان جنسا ، أو يولد فرداً ولا أقصد به خروجه من حالة محددة مرسومة تحتلها الغرائز إلى صورة الوجود الإنسانى ، وأن الفرد فى جميع مراحله النمائية يتنازعه فى كل مرحلة اتجاهان متنازعان ، أولهما: الخروج من الرحم من صورة الوجود الحيوانى إلى صورة الوجود الإنسانى . من العبودية إلى الحرية . وثانيهما: العودة إلى الرحم ، إلى الطبيعة ، إلى حالة الأمن والثبات ، حيث يدل تاريخ الفرد وتاريخ الجنس البشرى على أن الاتجاه النمائى أقوى فى الإنسان دائماً، وأن أقوى نزوع فى الإنسان كإنسان ، وأشد حاجاته إلحاحا على نفسه لا تتصل بحاجاته العضوية وإنما تمتد الى كيانه الإنسانى ومشكلة وجوده . وأن أقوى دوافع الإنسان التى توجه سلوكه تنبثق من ظروف وجوده أو من موقفه الإنسانى، من خروج الإنسان من مملكة الحيوان إلى مملكة الإنسان .

وهنا نتساءل ! كيف يمكن لهذه الطفرة الكيفية أن تتحقق للإنسان ؟ إنها تتحقق ، كمحصلة ، تتواصل بغير انتهاء لصراع ضرورات بيئة ، ومحددات وراثة ، ومكونات نفسية من عملية التطبيع الاجتماعى.

ومعنى ذلك أن حياة الإنسان تنطوى على صراع ، وأن الصراع يكون بين أضداد ، وأن المحصلة هى ذلك الائتلاف الذى يشكل هوية الإنسان وشخصيته النفسية والاجتماعية والحضارية والثقافية .

وهنا يثور سؤالان :

الأول : ما المقصود بالثقافة فى عملية التنشئة الاجتماعية ؟

الثانى : ما المقصود بالبيئة والوراثة فى عملية التنشئة الاجتماعية ؟

أولاً : الثقافة :

لا يخلو مجتمع إنسانى – بدائيا كان أم متقدماً – من ثقافة خاصة تبلور اعتقادات الناس ونظم حياتهم وتشكل شخصياتهم ، وما يؤمنون به من عادات وتقاليد ومعايير قيمية ، وما ينتجونه من أعمال ، وما يبدعونه من فنون وآداب وعلوم . فاختراع « الصفر » فى الرياضيات قد يبدو اليوم اختراعا بسيطاً ، غير أن اختراع الصفر قد ساعد على الإقلال من رموز الأعداد وأتاح للإنسانية أن تنطلق كيفيًا إلى الأمام.

وأول من اخترع الصفر هم هنود المايا بهوندوراس جنوب جواتيمالا بأمريكا الجنوبية ، ونقل هذا الاختراع إلى الهند بعد خمسة قرون ، ثم نقله العرب الذين نقلوه بدورهم إلى أوروبا .

فالثقافة – إذاً – قاسم مشترك بين مجتمعات الإنسان جميعاً ، ودراسة مجتمعات الإنسان على اختلاف درجات ثقافتها أمر لا مناص منه لفهم طبيعة الإنسان وعوامل التنشئة الاجتماعية .

ويختلف العلماء فى وضع تحديد لما يمكن أن تكون عليه معنى كلمة ثقافة Culture ، وهذا الاختلاف مردود إلى ثراء مفهوم الثقافة وتعدد معانيه .

يعرف كروبير Kroeber الثقافة بأنها مجموع ما يتعلم وينقل من نشاط حركى وعادات وتكنولوجيا وأفكار وقيم وما ينشأ عنها من سلوك (عبد السلام عبد الغفار وآخر : ص ٨٣) .

ومعنى هذا أن المفهوم يتصف بالعمومية والشمول ، ويتسع ليستوعب كافة مناشط الإنسان حيث إنتاج الأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية واتجاهاتهم ومشاعرهم وما يؤمنون به من قيم ومعتقدات .

« وتعتبر المؤسسات والمنظمات كالأسرة ودور العبارة ونظم الدولة والمعتقدات وفكرة الصواب والخطأ .. كل هذا جزء من الثقافة ، كما أن مفهوم الثقافة يشير – كما يذكر سارجينت ووليامسون – إلى طرق التفكير والمشاعر التى يشترك فيها غالبية أفراد المجتمع الواحد » .

ويوصل فؤاد زكريا القصد من معنى الثقافة فى استخداماتها المتعددة ، فيقول: «إن كلمة الثقافة من أكبر الكلمات تداولاً وهى فى الوقت نفسه من أشدها غموضاً ، بحيث أن هناك احتمالا كبيراً فى أن يكون أى جدل حول الثقافة ، هو فى حقيقته جدل بين أشخاص لا يتحدثون جميعاً عن شيء واحد ، ومع ذلك ففى استطاعتنا أن نهتدى ، ضمن المعانى المتعددة التى يستخدم لها هذا اللفظ ، الى معنيين رئيسيين، هما :

(١) الثقافة كما يستخدمها علماء الاجتماع ، ويمكن تعريفها بأنها: « ذلك الكل المعقد الذى يشمل المعرفة ، والاعتقاد والفن ، والقانون ، والأخلاق والعرف ، وأية قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان بوصفه فرداً فى المجتمع » . ويقترب من ذلك التعريف الوارد فى قاموس أكسفورد من أنها « الاتجاهات والقيم السائدة فى مجتمع معين ، كما تعبر عنها الرموز اللغوية والأساطير والطقوس وأساليب الحياة ومؤسسات المجتمع التعليمية والدينية والسياسية » .

(٢) الثقافة بالمعنى الإنسانى الرفيع ، ويمكن تعريفها بأنها صقل الذهن والسلوك وتنميته وتهذيبه ، أو بأنها ما ينتجه العقل أو الخيال البشرى لتحقيق هذا الهدف . ويلاحظ أن هذا المعنى يرتبط بالأصل اللغوى لكلمة Culture فى اللغات الأجنبية وهى كلمة تعنى تعهد النبات وحرثه ورعايته حتى يثمر (منها جاءت كلمة زراعة Agriculture) ؛ بل إنه يرتبط بهذا المعنى نفسه فى اللغة العربية ؛ لأن الأصل «ثقف» يحمل معنى التهذيب والصقل والإعداد . وهنا تكون الثقافة عملية رعاية وإعداد مستمر للعقل والروح البشرية ، أما معناها بوصفها منتجاً يؤدى هذه الوظيفة فلم تكتسبه إلا فيما بعد .

والمثل الأعلى للثقافة – إذاً – هى العلو إلى أقصى حد بالتكوين العقلى والروحى والأخلاقى للإنسان ، وبطريقته فى التفكير وتأمل العالم وتذوقه ، أى إن الثقافة تصبح تكويناً ، تلقائيّاً فى الإنسان ، لا يعود معه محتاجاً إلى عون خارجى . وقد ذهب «

هربرت ريد ، إلى حد القول إن المثل الأعلى للثقافة هو أن تختفى الثقافة ، بمعنى أن تصبح مندمجة فى شخصية الإنسان ، حتى دون أن تعرض على مسرح أو تقدم فى كتاب .

ولا تعود الثقافة واعية بل « صامتة » تكون جزءاً من كيان الإنسان .

وعلى أية حال .. فلدينا الآن معنيان محددان للثقافة ، وعن طريق المقارنة بينهما يمكننا أن نلقى مزيدا من الضوء على كل منهما ، وإدراك العلاقات وأوجه الاختلاف بينهما .

إن المعنى الأول اجتماعى أو جمعى بطبيعته ؛ لأن الثقافة هنا توصف بأنها سمة للمجتمع نفسه ، أو صفة لا يكتسبها الفرد إلا بحكم انتمائه لمجتمع معين ، ويكاد علماء الاجتماع يقولون إن الثقافة هى ما يميز الجماعة البشرية عن أى تجمع حيوانى؛ لأن الإنسان وحده هو الذى يضع رموزاً وأنظمة ، تنعكس عليها قيمه واتجاهاته أما المعنى الثانى فهو فردى بطبيعته ؛ لأن عملية الصقل والتهذيب تتعلق بفرد معين ، أو بمجموعة من الأفراد يتسم كل منهم بطبيعة مستقلة ، كما أن الناتج الثقافى فى معناه الرفيع ، مرتبط ارتباطاً عضوياً بالفرد الذى أبدعه ، على عكس الناتج العلمى الذى يفقد ارتباطه بشخصية مكتشفه بمجرد أن يشيع ويعترف به على نطاق واسع .

ومن ناحية أخرى .. فإن الثقافة بالمعنى الذى يستخدمه الاجتماعيون تمثل الحد الذى يكتسبه الفرد بحكم انتمائه إلى المجتمع ؛ فهى تمثل نقطة البداية فى حياة الإنسان الواعية ، لأن كل فرد يبدأ بقبول ثقافة مجتمعه ، أى بقبول القيم والاتجاهات التى تسود فى ذلك المجتمع عن طريق التنشئة الاجتماعية . أما الثقافة بالمعنى الثانى فتمثل الحد الأقصى الذى لا يصل إليه إلا القليلون ، ومن هنا كانت نقطة نهاية ، أو هدفا يسعى الفرد طوال حياته إلى تحقيقه.

ومن ناحية ثالثة .. فإن الثقافة بالمعنى الأول بطيئة الحركة ، تعتمد على التطور الآلى ، بل إنها تكاد تكون ساكنة راكدة ، وبخاصة فى المجتمعات التقليدية ، أما الثقافة الرفيعة ، أو النواتج العليا للثقافة ، فهى سريعة الحركة ؛ لأن قوامها هو صقل الذات وسعيها الدائم إلى التنقل إلى مستويات أعلى .

ويترتب على هذا كله فارق أخير مهم ، هو أن الثقافة بالمعنى الأول شاملة ، توجد حيثما يوجد أى مجتمع إنسانى ، أى أن أشد المجتمعات بدائية له «ثقافة» بهذا المعنى ، أما فى معناها الثانى فهى محدودة النطاق ، انتقائية ، لا يتسنى بلوغها إلا لنخبة مختارة .

ولعل فيما قام به علماء الأنثروبولوچيا من بحوث ودراسات على المجتمعات البدائية ما يؤكد أن لكل مجتمع ثقافته ، وأن هذه الثقافة تتحول إلى مكون من مكونات، تساهم فى تشكيل شخصيته وطريقة تفكيره ونظامه القيمى ومسالكه الحياتية وتصوره لنفسه ولواقعه وللعالم المحيط به .

ويخبرنا ول ديورانت فى كتابه الفذ « تاريخ الحضارة » عن أخلاق الجنس ودور التنشئة الاجتماعية فى تشكيل شخصية الفرد فى المجتمع القديم فيقول :

« إن أهم مهمة تقوم بها الأخلاق هى دائماً تنظيم العلاقة الجنسية ؛ لأن غريزة التناسلية تخلق مشكلات قبل الزواج وبعد الزواج وإبان الزواج ، وهى تهدد فى كل لحظة بإحداث اضطرابات فى النظام الاجتماعى لإلحاحها وشدتها وازدرائها للقانون وانحرافاتها عن جادة الطبيعة ، وأولى مشكلاتها تقع قبل الزواج . أتكون العلاقات الجنسية عندئذ مقيدة أم طليقة ؟ وليست الحياة الجنسية بالطليقة من كل قيد حتى فى عالم الحيوان . فرفض الانثى للذكر إلا فى فترات التهيج ، يحصر الحياة الجنسية عند الحيوان فى دائرة أضيق جداً من مثيلتها عند الإنسان ذى الشهوة العارمة ؛ فالإنسان يختلف عن الحيوان – كما يقول بومارشيه Beaumarchais فى أنه يأكل بغير جوع ، ويشرب بغير ظمأ ، ويتصل بالجنس الآخر فى فصول السنة وأنك لتجد بين الشعوب البدائية ما يشبه قيود الحيوان أو ما يضادها . فى تحريم الاتصال بالنساء فى أيام حيضهن ، ولو استثنيت هذا القيد العام ، وجدت الاتصال الجنسى قبل الزواج طليقاً إلى حد كبير فى الجماعات البدائية الأولى ، فعند هنود أمريكا الشمالية ، يتصل الشباب بالشابات اتصالاً حراً دون أن يكون ذلك عائقاً للزواج ، هى الشيوعية الجنسية وكذلك توجد مثل هذه الحرية قبل الزواج فى قبيلة « السويوت » Soyots فى سيبريا ، وفى «ايجورت » Igorotst فى الفلبين ، وأهالى بورما العليا والبوشمن فى أفريقيا ، وقبائل نيجيريا وأوغندا وجورجيا الجديدة وجزر اندمان وتاهيتى وبرلينديا وأسام وغيرها .

فى مثل هذه الظروف لا ينتظر أن يجد عهراً كثيراً فى المجتمع فهذه المهنة التى هى « أقدم المهن » حديثة نسبيًّا؛ لأنها لم تنشا إلا مع ظهور الملكية واختفاء الحرية الجنسية قبل الزواج ، نعم لقد تجد فتيات يبعن أنفسهن حيناً ليجمعن مهورهن أو ليحصلن مبلغاً للمعابد ، لكن ذلك لا يحدث إلا إذا كان التشريع الخلقى فى الإقليم باعتباره تضحية تعبدية لمساعدة أبوين مقتصدين أو لإشباع آلهة جائعة.

وأما العفة فهى الأخرى مرحلة جاءت متأخرة فى سير التقدم ، فالذى كانت تخشاه العذراء البدائية لم يكن فقدان بكارتها ، بل أن يشيع عنها أنها عاقر ، فالمرأة إذا

ما حملت قبل زواجها كان ذلك فى معظم الحالات معيناً لها على الزواج أكثر منه عائقاً لها فى هذا السبيل ؛ لأن ذلك الحمل يقضى على كل شك فى عقمها ، ويبشر بأطفال يكسبون لوالدهم المال ، بل إن الجماعات البدائية التى قامت قبل ظهور الملكية، كانت تنظر إلى بكارة الفتاة نظرة ازدراء ؛ لأن معناها عدم إقبال الرجال عليها ، حتى كان العريس من قبيلة « كامشادل » Kamchadel إذا ما وجد عروسه بكراً ثارت ثورته و « طفق يسب أمها سباً صريحاً لهذه الطريقة المهملة التى قدمت بها ابنتها إليه» ، وفى حالات كثيرة كانت البكارة حائلاً دون الزواج ، لأنها تلقى على الزوج عبئاً ثقيلاً على النفس ، وهو أن يخالف أمر التحريم الذى يقضى عليه بألا يريق أحد دم من أعضاء قبيلته ، فكان يحدث أحياناً أن تسلم البنات أنفسهن لغريب عن القبيلة ليزيل عنهن هذا العائق الذى يحول بينهم وبين الزواج ، ففى التبت تبحث الأمهات ، فى جد عن رجال يفضون بكارة بناتهن ، وفى « مليار » ترى الفتيات أنفسهن يرجون المارة فى الطريق أن يؤدوا لهن هذه المكرمة ؛ لأنهن مادمن أبكاراً فهن لا يستطعن الزواج . وعند بعض القبائل تضطر العروس أن تسلم نفسها لأضياف العريس قبل دخولها إلى زوجها ، وعند بعضهم يستأجر العريس رجلاً ليفض له بكارة عروسه ، وقبائل أخرى فى الفلبين يقوم موظف خاص يتقاضى راتباً ضخماً تكون مهمته أن يؤدى هذا العمل نيابة عمن اعتزموا الزواج من الرجال .

ومما سبق يتضح لنا نسبية الأخلاق ، وأن الثقافة نبت اجتماعى وحضارى للمجتمع ، وأن الأفراد هم التعبير الحقيقى عن ثقافة المجتمع من خلال ما يقومون به من أدوار متعددة وأن تقسيم الأدوار قائم فى كل جماعة وكل مجتمع . فلكل شخص مكانة من ثبت الأعمار والأعمال والقرابة والجنس ، بل إن عدم انتساب الفرد إلى جماعة يتضمن وضعاً خاصاً ودوراً خاصاً .

الأدوار الاجتماعية Social Roles

ونسأل ما الدور Role : يجيب لنتون Linion بأنه جملة النماذج الثقافية المرتبطة بوضع اجتماعى معين ، وتشتمل هذه النماذج على اتجاهات وقيم ، وسبل سلوك معينة ، تصدر عن الشخص مرتبطة بوضعه الاجتماعى ، كما تشتمل على اتجاهات ، وأنواع سلوك معينة ، يتوقعها الشخص من جانب غير المنتمين إلى جهازه نفسه وثمة علاقة بين التصورين ، تتحدد فى ارتباط كل « وضع اجتماعى » بدور ، وارتباط كل « دور » بوضع ولكن الارتباط لا يبلغ حد الاندماج ، فبينما يستند الوضع الاجتماعى إلى شروط تتعلق بالسن والجنس والعمل والمركز ... إلخ ، يستند الدور إلى

الوضع ، فالدور هو الوجه الدينامى للوضع ، فهو الدليل والإثبات الواضح على وجوده وقيامه .

وفى دراستها عن قبيلة المانس Manus فى شمال غينيا الجديدة توضح مرجريت ميد Mead طبيعة الأدوار الاجتماعية التى يقوم بها أفراد هذه القبيلة ، فهم يسكنون أكواخاً من البوص ترتكز على دعائم أقيمت فى أعماق البحيرة الخضراء ، وهم يعيشون بالطريقة نفسها التى عاش بها أجدادهم منذ آلاف السنين ، والنشاط الأساسى عندهم التجارة ، ومن ثم يتحتم على كل فرد فى القبيلة أن يتصف بكفاية تجارية كبيرة . ويتميز أهل هذه القبيلة بالصرامة والجد فى عقدهم الصفقات والأعمال شأنهم فى ذلك – كما تذكر الباحثة – رجال الأعمال الأمريكيين ، وهنا يكون بمقدورنا أن نتنبأ بالكثير من سلوكيات أهل هذه القبيلة ، فهم لا يعترفون بأوقات الفراغ وما يتخللها من أحاديث أو قصص أو موسيقى أو رقص أو مطارحة الغرام ، فالأحاديث جادة تتمركز حول موضوعات محددة غالباً ما تكون تجارية ، والغناء لايسمح به إلا فى أوقات الملل ، أما الرقص فيقام احتفالاً بنجاح الصفقات التجارية ، والصداقة من وسائل الثقافة ، ولا يعرف الأهالى من أنواع الحب إلا الحب الجنسى بأساليبه البدائية .

وفى هذا المجتمع الممتلىء جداً وكفاحاً ، نجد أن الأطفال بغير دور فهم يعيشون طفولتهم بحرية مطلقة ، ويشاكسون الآباء بعناد صرف ، والأم فى هذا المجتمع تقوم بدور الأم كاملاً من حيث إرشاد الأبناء والعناية بهم .

وقد أتاحت هذه المجتمعات وغيرها أمام العلماء والباحثين الفرصة لدراسة بعض جوانب الطبيعة الإنسانية ، وما يستند إليها من تقسيم للعمل وتعدد للأدوار وتنشئة اجتماعية هى فى صميمها نسبية تختلف من مجتمع لآخر ، ففى المجتمع البدائى والمتحضر الفرد يقوم بعدد من الأدوار ، ومن ثم يتغير سلوكه نتيجة لأوضاعه ومواقفه الاجتماعية المختلفة ، فالطالب الذى يجلس أمامى الآن يقوم بدوره كطالب عليه أن يتمثل القيم الجامعية ، وأن يستمع وأن يحاور وأن يسعى لتحقيق ذاته كطالب علم ومعرفة وحينما يجلس مع رفاقه فإن دوره يختلف ، وإذا ما اختلى بصديق له أو صديقة له فإنه سيقوم بدور ثالث ، وإذا عاد من كليته إلى منزله فعليه أن يقوم بدور الابن وبدور الأخ أو الأخت ، وهكذا . عليه إذاً أن يقوم بعدة أدوار متباينة ، ونفس هذا الطالب قد تحتم عليه الظروف أن يعمل عملاً إضافياً وأن يقوم بدور جديد، كأن يشتغل بحرفة لها تقاليدها وأسلوب أفرادها فى التعامل ، وقد يتعارض هذا الدور الجديد مع

كونه ابناً وطالباً فى الجامعة ، وقد يتمخض عن هذا التعارض ما يسمى « بصراع الدور » الذى قد يسهم فى نشأة « العصاب » ، ومن هنا كان احتمال الصراع والتعارض بين الأدوار قائماً ، ومن ثم فإن فهم الشخصية يتحتم علينا أن نضع فى اعتبارنا دينامية السلوك الفردى ، بمعنى أن ندخل فى حسابنا ما يقوم به الفرد من جهد للمصالحة بين الأدوار المتعددة كى يتجاوز الصراع بين الأدوار ، وقد يخفق فى تحقيق هذه المصالحة فينشأ العصاب النفسى ، ويسهم الدور فى تحديد بعض جوانب الشخصية ، فقل لى ماذا تفعل أقل لك من أنت ! وما الإنسان إلا مجموع أفعاله التى يحققها ، والتى يتوق أيضاً إلى تحقيقها فى المستقبل .

ثانياً : الوراثة والبيئة :

١ - الوراثة :

يبدأ تأثير الوراثة منذ الإخصاب فى رحم الأم ، وتحتوى بويضة الأم المخصبة تحتوى على ٢٣ من الصبغيات التى تسمى كروموزمات Chromosomes ، ويحتوى الحيوان المنوى للذكر على ٢٣ من الصبغيات التى تسمى أيضاً كروموزمات ، وتحتوى هذه الكروموزمات على الجينات Genes وهذه الجينات هى التى تحمل الاستعدادات الوراثية . ويحتوى كل كروموزوم على ١٠٠٠ جنين ، ومعنى ذلك أن كل الخصائص البدنية التى يأخذها الطفل عن أبيه وأمه توجد ضمن هذه الكروموزمات الستة والأربعين بعد الجماع الجنسى بين الرجل والمرأة ؛ بمعنى أن الجينات الوراثية هى التى تحدد لكل كائن ما سيكون عليه من حيث طول القامة ولون البشرة ولون العينين ووزن البدن .

ولكن ينبغى التنبيه إلى أن هذه الجينات الوراثية لا تكون فعالة إلا عند توافر شروط بيئية معينة .

٢ - البيئة :

ثمة تفاعل بين ما هو وراثى وما هو بيئى ، وهذا التفاعل من شأنه أن يحدد ما يمكن أن يكون عليه الكائن الحى إلى حد كبير ؛ فالجينات الوراثية لا تتفاعل مع بعضها فحسب ، بل تتأثر بمؤثرات البيئة الخارجية .

وعلى هذا .. فالبيئة تدخل فى تفاعل مع الكائن الحى من حيث هى وسط جغرافى لا تستطيع يد الإنسان أن تناله بالتغير كالحر والبرد ، البيئة الجبلية ، والاستوائية ، الساحلية وما إلى ذلك من بيئات جغرافية ، تتحكم فيها عوامل الطبيعة من طقس ومناخ وتضاريس وكثافة سكانية وموارد اقتصادية .

وهناك البيئة الاجتماعية ، وما تمثله بالنسبة للفرد من معايير وقيم الأديان ، ومعايير ومبادىء المجتمع وعرفه وعاداته وتقاليده وثقافته وما تنطوى عليه من توجهات فى الفكر والسلوك والمواقف ، تدخل ضمن عملية التطبيع الاجتماعى وتؤثر على نمو الأفراد .

والإنسان فى مسيرته الحياتية ائتلاف من تفاعلات عوامل الوراثة ومتغيرات البيئة ، ولهذا يأمل علماء الوراثة تحسين الاستعدادات الوراثية بتوفير كل العوامل التى تساعد على ذلك ، وكذلك يأمل علماء البيئة بتحسين البيئة – طبيعيًا واقتصادياً واجتماعياً وحضاريًا – حتى يتسنى تحسين المؤثرات البيئية لتسهم بشكل إيجابى فى تهيئة الاستعدادات الوراثية لتحقيق التنشئة الاجتماعية السليمة .

وعند الحديث عن عوامل الوراثة ومؤثرات البيئة ، ينبغى أن تتجه الأهمية إلى تأثير الغدد أيضاً فى عملية النمو والتنشئة الاجتماعية .

٣ – الغدد :

يحتوى الجسم على ثلاثة أنواع من الغدد : غدد ذات قنوات تفرز إفرازاً خارجيًا، وغدد صماء تفرز إفرازا داخليًا ، وأخيراً الغدد المشتركة .

تصب الغدد الأولى إفرازاتها داخل تجاويف فى الجسم أو على سطح الجسم؛ يشترك بعضها فى عمليات الهضم والتغذية مثل الغدد اللعابية والمعدية والمعوية ، وبعضها الآخر يقوم بعمليات الإخراج والتخلص من الفضلات كالكليتين والغدد العرقية والغدد الدهنية والغدد الدمعية .

ومن الغدد المشتركة التى تفرز إفرازاً داخليًا وخارجيًا معاً البنكرياس الذى يساهم بإفرازه الخارجى فى عمليات الهضم والتمثيل وداخلياً الأنسولين والغدد الجنسية التى تكون الخلايا التناسلية : البويضات لدى الأنثى ، والحيوانات المنوية لدى الذكر ، كذلك تفرز داخلياً فى الدم الهرمونات الجنسية .

أما الغدد الصماء فليست لها قنوات ، بل هى تصب إفرازها الداخلى مباشرة فى الدم .

وتقوم الغدد الصماء بدور العوامل المساعدة والمعدلة فى العمليات وأوجه النشاط التالية :

نمو الجسم ، عمليات الهدم والبناء ، والنمو العقلى ، والسلوك الانفعالى ، ونمو الخصائص الجنسية الثانوية ، وتحقيق التكامل الكيميائى .

ومن أهم الغدد الصماء :

١ – الغدة النخامية .

٢ – الغدة الدرقية .

٣ – الغدة جارات الدرقية أو الكظرية .

٤ – الغدة الإدرينالية أو فوق الكلوية .

٥ – البنكرياس .

٦ – الغدد الجنسية (المبيضان عند الانثى والخصيتان عند الذكر) .

الغذاء :

يلعب الغذاء دوراً مهمّاً فى النمو البدنى والعقلى والانفعالى والاجتماعى لدى الفرد ؛ فسوء التغذية يعوق القدرة على التحصيل والإدراك والتذكر وما إلى ذلك من عمليات معرفية ، بالإضافة إلى إعاقته نمو الخلايا وإمداد الطفل بالطاقة اللازمة للحركة والنماء .

ومن الزاوية الوجدانية .. فإن الرضاعة الطبيعية لدى الطفل تمنحه شعوراً بأنه منتم إلى أمه ، وأنه طفل آمن وسعيد ويشعر بالتواصل والدفء والحنان ، وبأنه مرغوب فيه .

واتساع المطالب البيولوچية للفرد ومن بينها الغذاء – كمّاً وكيفاً – من شأنه أن يجعل الفرد يشعر بأنه بدأ يخرج من مملكة الحيوان ؛ حيث الرغبة الملحة للإشباع إلى مملكة الإنسان حيث الابتكار والإبداع .

ومن هنا .. فإن الغذاء يعتبر أحد العوامل الرئيسية ، التى تؤثر فى نمو الفرد وتشكيل شخصيته اجتماعياً .

وللغذاء ثلاث وظائف رئيسية :

١ – تزويد الفرد بالطاقة .

٢ – تجديد بناء الخلايا التى تلفت .

٣ – وقاية الجسم من الأمراض .

ومما سبق .. يتضح أن الوراثة تؤثر فى نمو الفرد ، وأن عوامل الوراثة تبدأ منذ الإخصاب فى رحم الأم ، وأن هناك تفاعلاً بين عوامل الوراثة ومؤثرات البيئة ، وأن البيئة هى جماع ما هو طبيعى وحضارى واجتماعى وتاريخى ، وأن الغدد بوظائفها

تقيم فى نمو الإنسان وفى ارتقائه ، وقيامه بكافة مناشطه الحياتية ، وأن الغذاء هو العامل الضرورى والرئيسى لاستمرار النمو .

فالإنسان نتاج ما هو نفسى ، وما هو اجتماعى ، حضارى ، ثقافى ، باختصار هو كل نفس عضوى اجتماعى لا يتجزأ .. تمضى حياته بوصفه « صيرورة نمائية » تتجه صوب تحقيق الذات حيث التحقق الخلاق لإمكاناته وقدراته فى الواقع .

التعلم والتنشئة الاجتماعية :

يؤكد علماء النفس دور التعلم فى التنشئة الاجتماعية ، فالنقلة الكيفية فى حياة الإنسان من مملكة الحيوان إلى مملكة الإنسان يستحيل لها أن تتحقق بغير تعلم ، والتعلم لا يتحقق إلا على أرضية من النضج ، والنضج يشير فى علم النفس إلى جملة العوامل الوراثية الفطرية التى يخرج بها الكائن إلى الحياة ، والتى تتفتح من تلقاء ذاتها فى اتجاه بعينه شريطة أن تتوافر لها شروط بيئية بعينها ، أما مصطلح التعلم فيشير إلى جملة التأثيرات البيئية ، ويعتبر مرادفاً للاكتساب والخبرة والتطبيع .. »

وبهذا يتضح أن التعلم هنا اجتماعيًا يعنى اكتساب الفرد مهارات سلوكية وقيم ومعايير اجتماعية وخبرة فى سياق من عملية التنشئة الاجتماعية .

وطبقاً لما يقوله فؤاد البهى (١٩٨١) ، فان روتر Rotter فى نظريته قد أكد ستة حاجات حققها التعلم الاجتماعى ، وهى : تأكيد المكانة الاجتماعية ، والحماية الناتجة عن التعلق ، والسيطرة ، والاستقلال والحب ، والراحة البدنية ، والتعلم الاجتماعى الذى يحقق هذه الحاجات ينحو بالتنشئة الاجتماعية إلى وجهتها الصحيحة» (ص ١٥٩) .

وطبقاً لما تقوله نظرية التحليل النفسى .. فإن الجهاز النفسى للفرد يتكون من الهى ، الأنا ، والأنا العليا .. الهى تعتبر الجزء اللاشعورى الذى يولد الإنسان مزوداً به ، فهى مستودع الغرائز والمكبوتات وكل ما هو مستهجن ، وغير أخلاقى وغير منطقى ، ولها مبدأ واحد تسعى إلى تحقيق إشباعه هو مبدأ الواقع ، بيد أن « الأنا » يتشكل من المؤثرات الاجتماعية ويتقوى بفعل التنشئة الاجتماعية ، ويسعى إلى إشباع رغبات الهى فى إطار اجتماعى ، ولذا فهو لا يكون إلا ضمن « مبدأ الواقع » وأن شخصية الفرد تتحدد قوتها أو ضعفها طبقاً لقوة الأنا أو ضعفها .

أما الأنا العليا فتمثل « الضمير » وتتشكل طبقاً لقيم ومعايير المجتمع ، التى يكتسبها الطفل من الأسرة .

وعليه .. فإن التنشئة الاجتماعية ترتبط فى نشأتها وفى تطورها بعمليتين ، هما: تشكيل « الأنا » وتشكيل وتكوين الأنا العليا .

وتنحو المدرسة السلوكية منحى آخر فى تفسير التعلم من حيث ارتباطه بعملية التنشئة الاجتماعية ، ويتحدد هذا المنحى فى رفضها ما يسمى باللاشعور ، وإنكارها له، ومن ثم لا يبقى للإنسان إلا شعوره ومسالكه الشعورية ، وما يكتسبه من خبرات وسلوكيات عن طريق العادة وبتأثير من البيئة، وما الشخصية إلا تنظيم من عادات ، وأن هذا التنظيم هو الذى يحدد سلوك الفرد ويميزه عن غيره من الأفراد .

وسواء كان التعليم عن طريق التوحد وتكوين الأنا ، والأنا العليا، أو كان نتاجا لذلك الانتظام الفريد من عادات يكتسبها الفرد عن طريق استجابته لمثيرات البيئة.. فإن التعلم يمثل العصب الرئيسى فى عملية التنشئة الاجتماعية ، والتى من خلالها يتحول الفرد من كائن عضوى إلى كائن إنسانى ينتمى إلى عالم الإنسان الفريد .

وسائل التنشئة الاجتماعية :

تُعد الأسرة الوسيلة الرئيسية فى عملية التنشئة الاجتماعية ، فمنها يخرج الطفل إلى الوجود ، وفى كنفها ينمو وتتشكل الجذور الجنسية لما يمكن أن تكون عليه شخصيته فى المستقبل ، فعن طريق الأسرة يتشكل نفسيًا واجتماعياً ، وتتأثر مكوناته النفسية والاجتماعية بالمستوى الاجتماعى والاقتصادى الذى تعيشه الأسرة وبوضعه فى الأسرة ، من حيث الذكورة أو الأنوثة ، ومن حيث ترتيب الأبناء أيضاً .

وعن طريق الأسرة يكتسب معاييره وقيمه الاجتماعية ، تتفجر طاقاته وإمكاناته ومواهبه ، متأثراً بالعلاقة بين الوالدين .

ولعل فيما كتبه أريكسون عن مراحل عمرية من خلالها يتشكل الطفل ، وتتكون ذاتيته النفسية والاجتماعية ما يلقى الضوء على أهمية الأسرة ودورها المهم فى عملية التنشئة الاجتماعية ولاسيما فى المراحل الأربع الأولى من حياة الطفل والتى تتمثل فى :

١ - الشعور بالثقة فى مقابل عدم الثقة Trust VS. Mistrust

وتحتل السنة الأولى من عمر الإنسان ، وتتميز بشعور الطفل بالثقة فى نفسه وفى غيره من الناس وفى العالم بوجه عام ، وقد يبلغ فى ثقته حداً لا نهاية له ، وقد يفقدها فقداناً تاماً ، ويتوقف ذلك على نوع الرعاية التى يتلقاها داخل الأسرة ، فالطفل الذى تلبى حاجاته ، ويجد من يدلله ومن يتحدث إليه ويشاركه اللعب والضحك ،

ويتصور العالم مكاناً آمناً ، والناس أهلاً للثقة ، أما إذا لم تتوافر الرعاية النفسية والاجتماعية والعضوية للطفل داخل أسرته .. فإنه يشعر بأن الناس غير جديرين بالثقة، وأن حياته غير آمنة ، ويتكون لديه شعور بالخوف والشك وفقدان الثقة فى نفسه، وفى الآخرين وفى العالم المحيط به .

ويؤكد أريكسون أن الشعور بالثقة أو فقدانها لا يتكون فى السنة الأولى من حياة الطفل بدرجة من الثبات يتعذر معها تغيير الاتجاه ، ويضرب بذلك مثلاً ، أن الطفل الذى يلتحق بالمدرسة يشعر بفقدان الثقة ، قد يتعلم على يد معلم أو معلمة تمنحه ما فقده من شعور بفقدان الثقة فى أسرته كما أن الطفل الذى يجد فى سنته الأولى ما يقيم دعائم الثقة بالنفس وبالناس والعالم ، قد يفقد هذه الثقة إذا ما تصدع كيان الأسرة بالخلافات بين الوالدين أو وقع الانفصال بينهما .

فثمة حركة ديناميةبين الداخل والخارج ، بين ذات الطفل والعالم المحيط به ، من شأنها أن تحقق له الأمن والثقة ، أو تفقده هذا الشعور بالأمن ، ومن ثم الثقة بنفسه وبالآخرين .

٢ - الشعور بالاستقلال مقابل الشعور بالخجل والشك :

Autonaomy Vs. Shame and Doubt

وتحتل السنة الثانية والثالثة من عمر الطفل ، وفيها يتحدد مدى قدرة الطفل على الاعتماد على نفسه ، ويرجع ذلك إلى القدرات الحسية والحركية والعقلية التى تنمو وتعبر عن نفسها عند الطفل ، وفى هذه المرحلة يستطيع الطفل أن يمشى وأن يتسلق ، وأن يفتش عن حاجاته ، وأن يفتح المغلق ويغلق المفتوح ، وأن يجذب الأشياء وأن يدفع ، ويمسك بقبضته ، والطفل بهذه القوات الجديدة فخور بنفسه ، يجب أن يعمل بنفسه كل شىء ويأكل ويرتدى ملابسه ، ونحو ذلك .. أى أن يتخلق كموجود مستقل من خلال قدراته فى كل منشط من مناشط الحياة ، ونموه كموجود مستقل يتوقف على طبيعة التنشئة الاجتماعية التى يحيا فى كنفها داخل الأسرة ، والتى قد تنمى لديه الاعتقاد بأنه قادر على التحكم فى عضلاته ، وفى دوافعه وفى بيئته ، أو قد تسلبه الشعور بالاستقلالية ومن ثم الخجل والشك .

وكل من الرعاية الزائدة أو الرعاية المتسلطة يسلب الطفل الشعور بالاستقلالية ويهيئ المسرح النفسى للطفل لدخول الشعور بالخجل من نفسه ، والشك فى قدراته وفى الواقع الخارجى . على أن هذا التوازن بين الاستقلالية من ناحية أو الشك والخجل

من ناحية أخرى قد يتغير سلباً أو إيجاباً ؛ وفقاً لما يعيشه الطفل من مراحل نمائية لاحقة فى سياق التنشئة الاجتماعية .

٣ – الشعور بالمبادأة مقابل الشعور بالذنب : Initiative Vs. Guilt

وتحتل السنة الرابعة والخامسة من عمر الطفل ، حيث يدخل إلى المرحلة الثالثة، والتى فيها تتميز قدراته الحسية، والحركية، والعقلية، والوجدانية، واللغوية ، فهو يستطيع أن يجرى ، وأن يركب دراجة ، وأن يبادر بأنشطة حركية يقوم بها من تلقاء نفسه ، محاولاً السيطرة على البيئة المحيطة ، مخترقاً حجب المجهول ، منقباً ومتفرداً فى تصرفاته ، لا يكتفى بتقليد الآخرين ، بل يقوم بكل ما من شأنه أن يقوى سيطرته على ما يحيط به ، وفى هذه المرحلة تتمايز قدراته اللغوية والتصويرية فى هيئة حوارات وتصورات يتخذ فيها فعل المبادأة بكل تلقائية الحركة ، وينمو لديه الضمير الخلقى ويستطيع إلى حد كبير أن يميز بين الصواب والخطأ ، وماهو خير وما هو شر ونحو ذلك .

ويؤكد أريكسون فى هذه المرحلة – شأنها شأن غيرها من المراحل – ديناميكية الحركة بين الطفل وبين المحيط الأسرى الذى ينشأ فيه ، ويرى أن الطفل فى هذه المرحلة يتذبذب بين طرفين : المبادأة فى طرف والشعور بالذنب فى الطرف الآخر.

وكيما تتغلب روح المبادأة على الشعور بالذنب ، يجب على الوالدين أن يستجيبا لحركة الحياة للطفل بتشجيعه على الأنشطة التى تنمى فيه المبادأة كالجرى وركوب الدراجات وممارسة الرياضة واقتحام المجهول وركوب الخطر ، ومن ثم لا يسخرا من نشاطاته ولا يصدانه عن التساؤل ؛ حتى لا ينميان لديه الشعور المستمر بالذنب ، وأنه غير مستطيع بنفسه بل بمساعدة الآخرين ، محاصراً فى تصرفاته بترسانة من الأوامر والنواهى ، أن افعل ولا تفعل .. كل ذلك من شأنه أن يسلبه روح المبادأة الجسورة ، وينمى فى أعماقه الشعور بالذنب والخوف والشك فى قدراته وفى إمكاناته ودوافعه وتساؤلاته ، وما إلى ذلك .

٤ – الشعور بالعمل مقابل الشعور بالدونية : Industry Vs. Inferiority

تمتد هذه المرحلة من السادسة حتى البلوغ ، وتأتى هذه المرحلة متممة للمرحلة السابقة وتسمى بالتعبير الفرويدى بمرحلة الكمون ، تلك التى يضمر فيها الطفل الحب لأمه ومنافسة لأبيه تلك المنافسة الأوديبية ، التى تحدث عنها فرويد ويتفق معه فيها أريكسون .

وفى هذه المرحلة تتفتح قدرات الطفل العقلية والتصورية ، ويستطيع استنتاج النتائج من المقدمات ، ويستطيع أن يمارس مناشط اللعب والتعلم وفقاً لقواعد اللعب والعمل والتعلم .

ويؤكد أريكسون دينامية التفاعل النفسى والاجتماعى، الذى تتم به هذه المرحلة فوق متصل فى إحدث طرفيه ، يكون الاجتهاد والمثابرة وفى الطرف الآخر يكون الشعور بالنقص والدونية .

والعامل المميز فى هذه المرحلة هو الاهتمام بالكيف على حساب الكم ؛ فالطفل يهتم بالكيفية التى تصنع بها الأشياء ، وجوهر حركتها ، والوظيفة التى تؤديها . ومن ثم كان الاجتهاد والمثابرة وإطلاق العنان للتصورات العقلية سمة مميزة لهذه المرحلة. ويدعونا أريكسون إلى تشجيع الأطفال على الجهد والمثابرة فى صنع أدوات الواقع الذى يعيشه بطريقة عملية (كنماذج الطائرات وبناء المنازل أو الطهو أو التطريز ونحو ذلك) ، وإذا نحن شجعنا الطفل على ذلك نمت قدراته وأحب العمل كقيمة وتفتحت قدراته وتعلم كيف يكون الجهد ويكون الإصرار لبلوغ الهدف وتعلم الكيفية ، أما إذا سخرنا من قدراته ، وصورنا له كل ما يفعله على أنه عبث فى عبث وأنه لا يتمتع بأى قدرة وليس وراء ما يفعله فائدة أو قيمة انتابه شعور عميق بالخزى من قدراته والإحساس بالدونية والعجز واللامبالاة ، وما إلى ذلك من أعراض نفسية تستمر معه إلى المراهقة وما بعدها من سنوات العمر .

وتلعب المدرسة فى هذه المرحلة دوراً كبيراً فى تشكيل وصياغة مكونات الطفل النفسية بوصفها عالماً أكبر من أسرته ، غنى وثرى بدينامياته الاجتماعية والنفسية ، ومن ثم قد تؤكد فى داخله خصائص المثابرة والعمل أو تسلبه ذلك ، وتتيح لمشاعر الدونية كى تستولى على الشخصية ومعها العجز والإحساس بأن الحياة لا تؤخذ بالمبادأة ، والملل من كل شىء وفقدان الثقة فى النفس وفى الآخرين .

٥ – الهوية مقابل عدم تعيين الهوية Identity Vs. Identity Diffusion

يعتبر أريكسون المراهقة ، مرحلة أزمة الشخصية ، فهى قمة الدراما النمائية فى الوجود الإنسانى ، ففيها تظهر التوحدات ويتشكل إلى حد كبير بناء الثقة ، والشعور بالاستقلال والإحساس بالمبادأة ، وأن الحياة تستمد مقوماتها من الاجتهاد والمثابرة. فى مقابل فقدان الثقة ، والشعور بالخزى والخجل ، والشعور بالذنب والإحساس بالدونية والعجز ، وما إلى ذلك من عدة أعراض مرضية ، تصاحب فقدان الثقة بالنفس. وفى الآخرين ، والشعور بالخوف والقلق والعدوان .

والمراهقة ، ذروة الوجود الحقيقى للشخصية تقع ما بين (١٢ - ١٨ سنة)، وهى مرحلة أزمة ، أزمة هوية ، تمضى بالشخصية كمحصلة دينامية للصراعات ، التى عاشها المراهق وهو صغير إلى الشعور بالهوية أو إلى ، عدم تعين الهوية ، حيث الشعور بالاغتراب ، وذوبان المراهق فى الآخرين ، وعدم قدرته على اكتشاف موقع فى صميم الواقع والعيش نهباً لمشاعر الإثم والقلق وفقدان الثقة ... وما إلى ذلك .

ويزيد من حدة ، الأزمة ، فى هذه المرحلة ما يحدث فى داخل المراهق من تغيرات عضوية ونفسية واجتماعية ، حيث يتم تشبيق العالم من حوله جنسياً ، ويتحول عنده الارتباط الأسرى من صلته بوالديه وإخوته إلى رغبة فى مصاحبة رفيق من الجنس نفسه أو من الجنس الآخر ، ويبدأ مرحلة الصدام مع الكبار داخل الأسرة وخارج الأسرة ، حيث يكون لنفسه وجهات نظر جديدة فى النظر إلى العالم والتفكير فيه ، فيتصور أسراً مثالية ، ومجتمعات أفضل من مجتمعه ، ويختار لنفسه أشخاصاً وفلسفات يتوحد معها ويقبل من الأشياء ما يراه متفقاً معه ويرفض ما لايجده متفقاً مع مكوناته النفسية ، فيتساءل أين هو ؟ وإلى أين يمضى وما هو واقعه ؟ وإلى متى يستمر وهكذا ويعيش ، المطلق ، فى كل شىء .. فالصحيح هو ما يراه، والخطأ هو ما يرفضه ، والتوازن النفسى فى هذه المرحلة يأتى نتيجة للصراع الدينامى بين ما هو نفسى واجتماعى وعضوى ، ومن ثم .. فإن المراحل النمائية السابقة تحدد للمراهق معنى للهوية أو عدم تعين للهوية ، ومن ثم فإن الإعداد لمراهقة ناجحة وبلوغ الشعور بالهوية النفسية والاجتماعية يجب أن يكون والطفل ما يزال فى المهد صبياً .

٦ - الألفة مقابل العزلة : Intimacy Vs. Isolation

تستند الألفة إلى الشعور بالهوية ، وبأن الفرد قادر على تحقيق التواصل بينه وبين نفسه ، وبينه وبين الآخرين ، وأن يكون قادراً على إقامة علاقة إنسانية مع الجنس الآخر ، يتعمق فيها الوجدان بالجنس بمعناه السوى ، وللألفة عند أريكسون معنى واسع يحتوى كافة مظاهر تواصل الفرد مع نفسه ومع الآخرين ، فليس بالجنس وحده تكون الألفة ، فهناك علاقات التواصل بين الأصدقاء ، والشعور بالالتزام مع الأصدقاء، والشعور بالالتزام تجاه الآخرين ، فالجنود الذين يقفون فى خندق واحد تتواصل بينهم مشاعر الألفة الحميمة ، وتقوم التفاعلات الاجتماعية من أواصر الألفة.

وعلى الطرف الآخر تكون العزلة ، فالفرد إذا ما فقد الثقة بنفسه ، فإن الألفة مع الآخرين تصبح مستحيلة ، وتظهر عليه أعراض الشعور بالشك والحزن والشعور

العميق بالدونية وعدم القدرة على المبادأة ، والخوف من فقدان الهوية .. ومن ثم العيش نهباً لمشاعر العزلة الاجتماعية والنفسية .

الإنتاجية مقابل استغراق الذات : Generativity Vs. Self Apsortion

وتستند شأنها شأن المرحلة السابقة إلى مراحل النمو السابقة ، وتمتد فوق متصل ، فى طرف منه الإنتاجية حيث الرغبة فى العطاء ، والاهتمام بما هو قادم والاهتمام بمصلحة الأجيال القادمة ، والشعور بأن الحياة تتقدم وتزدهر بجهود أبنائها، وفى الطرف الآخر من المتصل يكون استغراق الذات والاهتمام بالمصلحة الشخصية غير مبالين بما يصيب المجتمع والآخرين من أضرار. وهذه المرحلة باختصار تعنى إما أن تكون موضوعياً منفتحاً على الآخرين أو مستغرقاً داخل نفسك ، متشرنقاً فى داخلها ، ذاتى المطلب والنزوع ، وفى هذا ارتداد إلى المرحلة الطفلية على المستوى الفردى ومستوى المجتمع أيضاً .

٨ - التكامل مقابل الشعور باليأس : Integrity Vs. Disgust

وتحتل هذه المرحلة ما يمكن أن يسمى بخريف العمر ، وتأتى متممة لما سبقتها من مراحل ، ومن ثم فآثار المراحل النمائية السابقة التى تمثل منظومة بدينامية صراعاتها النفسية والاجتماعية تتجلى فى هذه المرحلة كمرحلة متممة ، تحقق للفرد الشعور بالرضا عن نفسه وتقبله لماضى حياته أو الشعور باليأس والقنوط ؛ لأنه لم يستطع أن يستفد من حياته على نحو فعال وإيجابى .

يقدم أريسكون تصوراً كاملاً عن الارتقاء النمائى للإنسان منذ أن يكون فى المهد صبياً إلى أن يبلغ أرذل العمر ، ويحتوى هذا التصور النمائى على ثمان مراحل نمائية ، لكل مرحلة إيجابياتها وأزماتها ، وتتواصل هذه المراحل بغير انقطاع مكونة صورة نمائية هى الإنسان ، ذلك الكل الدينامى الذى يعتبر محصلة للصراع بين ما هو نفسى وما هو اجتماعى ، وما هو عضوى .

ويبلغ هذا الصراع ذروته فى مرحلة المراهقة ، تلك التى يسميها أريكسون «مرحلة الهوية » أو مرحلة « أزمة الشخصية » ويتركز الصراع فى هذه المرحلة بين الشعور بالهوية ، ومن ثم المضى فى الحياة على نحو ايجابى سوى أو « عدم تعيين الهوية » ومن ثم العيش بها لمشاعر فقدان الثقة والشعور بالخزى والإحساس بالدونية والعجز واللامبالاة ، والشعور بأن الحياة لا تؤخذ بالمبادأة ، ونحو ذلك من زملة أعراض نفسية تصاحب الشعور بعدم تعيين الهوية .

ثمة تفاؤل بصحة نفسية أفضل للإنسان تترجمه نظرية أريكسون ، يتركز فى أن أزمات الطفولة يمكن حلها وتجاوزها وتخطيها ، إذا توافرت التفاعلات النفسية

والاجتماعية التى تتيح للفرد أن يتخطى حدود الأزمة ؛ ولذا يتعين على الآباء والمربيين أن يساعدوا الطفل على تجاوز أزمات النمو النفسى والاجتماعى ؛ إذ أريد لهذا الطفل أن يكون مراهقاً سوياً ممتلئاً شعوراً بالهوية والثقة بالنفس .

ويعطى أريكسون للمرحلة الأولى أهمية كبرى ، فالثقة بالنفس الأساس الذى يقوم عليه نمو الإنسان كله ، وهو قاعدة لكل مراحل النمو ، ومن ثم يتعين أزمات الطفولة قبل بلوغ مرحلة الهوية ، من حيث هى مرحلة للوجود الحقيقى للإنسان .

هذا .. وقد شغلت المرحلة الأولى من عمر الطفل كثيراً من العلماء ، من بينهم الدكتور عبد العزيز القوصى الذى يرى أن عالم الأطفال عالم الحس ، سريع التأثر ، شديد الانفعال ، قليل الإدراك ، نادر الخبرة، ضئيل الجدية ، ويؤكد بناء شخصيته فى جميع أطوار الحياة ، والثقة بالنفس عنده مرادفة للشعور بالأمن ، والشعور بالأمن – عند القوصى – قاعدة الحاجات الإنسانية جميعاً ، وفقدان الأمن يترتب عليه القلق والخوف وعدم الاستقرار ، وقد يترتب عليه تكوين الكراهية لمصدر الفقدان وتوجيه نزعات العدوان إليه ؛ ذلك أن الخوف هو ينبوع العدوان .

ويترتب على الشعور بالأمن النزوع للمخاطرة ، والنجاح فى هذا يكسب الشخص ثقة فى نفسه ؛ مما يزيد من ميله إلى المخاطرة وتأكيد ذاته .

فالحاجات الأساسية اثنتان : الحاجة إلى الأمن والحاجة إلى المخاطرة ، وهاتان النزعتان ظاهرتان فى المجتمع ، فالمجتمع يبدو وكأن فيه قوة للمحافظة ، وصون التقاليد ، وأخرى للتجديد والابتكار والإبداع والمخاطرة ، وهاتان القوتان تتنازعان

---

* الدكتور عبد العزيز القوصى علم من أعلام علم النفس والتربية فى عالمنا المعاصر ، تكشفت عبقريته العلمية منذ الثلاثينيات بحصوله على درجة الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٣٢، حين وصل إلى كشف العامل المكانى ، وهذا كان كشفاً علمياً أساسياً أكد – وما زال – يؤكد أصالة المصرى . وقد توجت الدولة جهوده بمنحه جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية عام ١٩٨٠ طاف الدكتور القوصى بجامعات مصر جميعاً معلماً وأستاذاً ومشرفاً ، ألقى محاضرات فى التربية وعلم النفس فى جامعات لندن وأدنبرة والسويد والنرويج وهولندا وواشنطن وميتشجان ، وجينزفيل وفلوريدا ، وبيركلى ، ومونتفيدو ، والأرواجواى ونيودلهى وبانجوك .. أسهم فى تحرير عدد من المجلات العلمية التى صدرت فى لندن وأمريكا وألمانيا . ونشر مئات المقالات والبحوث فى مجلات عربية وأجنبية ، وألف تسعة عشر كتاباً فى علم النفس ، وترجم أحد عشر كتاباً فى علم نفس المجال ، واشترك فى ترجمة عديد من الكتب ، وأدلى هو ومن حوله بآلاف الأحاديث الإذاعية ما بين عام ١٩٥٤ – ١٩٦٠ ، وأشرف وراجع وقدم لسلسلة دراسات سيكولوجية ، واشترك فى مئات البحوث الميدانية كمعلم ومعالج نفسى ، ومستشار لوزارة التربية والتعليم وخبير فى هيئة اليونسكو، وأنشأ أول عيادة نفسية فى العالم العربى عام ١٩٣٤ .

المجتمعات والأفراد ؛ فبحث الطفل عن الطعام والتصاقه بوالديه وهربه من الخطر ، واجتماعه بزملائه ، إنما هو اتجاه نحو الأمن ، أما اتجاه الطفل إلى المقاتلة وحل الأشياء وتركيبها ، والتجرؤ فإنه اتجاه نحو المخاطرة ، ويرى بعض الباحثين أنه يمكن الاستغناء عن التفسير المبنى على الحاجة إلى المخاطرة ، واعتبارها نتيجة للشعور بالأمن ، فالميل للمخاطرة يزداد إذا توافر الشعور بالأمن ، فالطفل الذى يهاجم غيره إنما يفعل ذلك لثقته من قوته ، ولا يجرؤ على الاتصال الاجتماعى الناجح ، إلا إذا كان مطمئناً إلى مقدرته على ذلك اطمئناناً مشتقاً من فكرته عن نفسه فى المواقف الاجتماعية المختلفة .

ولكن كيف يتم بناء الثقة لدى الطفل وهو لا يزال فى المهد صبياً ؟ إن أول ما نلاحظه أن الطفل الصغير العادى يعيش فى جو كله أمن واطمئنان ، فحاجات الطفل كلها مشبعة ورغباته مجابة .. فإذا صرخ ، فإن الأم تهرع إليه لترضعه أو لتغير له ملابسه ، أو لتدفئته من حالة البرودة إلى غير ذلك مما يحتاج إليه .

ولكن يلاحظ أن الطفل قرب السنة الثانية يتعلم المشى والكلام ويزداد نشاطه وتكثر حركته ، ويكون مملوءاً ثقة بنفسه ، وتزداد رغبته فى اللعب والصياح والحركة ، ويتضاعف شوقه للمس الأشياء وفحصها ، خصوصاً إن كانت مما يملكه الكبار ويقدرونه – تجد معارضة ومقاومة – وكلما لمس شيئاً منعه الكبار ، وكلما صاح ضربوه ، وكلما فعل مالا يروقهم زجروه ، والمنع والزجر والضرب كلها أمور جديدة بالنسبة للطفل فى هذه السن ، فلم يكن يألف منها شيئاً من قبل ، ولم يكن يعرف غير السعادة والرضا والطمأنينة ، أما الآن فهذا كله يقل أو ينعدم ويحل محله اضطراب نفسى ، وقلق داخلى وشعور بفقد السند ، وفقد ما كان عنده من قوة يسخر بها من حوله لقضاء مصالحه وإجابة مطالبه .

فكأن هذا الانتقال المفاجىء فى المعاملة .. وهو يحدث حوالى السنة الثانية من حياة الطفل ، ويحدث دون قصد سيىء من الوالدين ، بل قد يحدث وفيه قضاء التوجيه والتأديب والتربية – هو الذى ينقل الطفل من الامتلاء بالثقة إلى فقدها ، ومن الإيمان بالقوة الشخصية إلى التشكك فى وجودها ، فيجب أن تكون القاعدة الأساسية أن الانتقال فى المعاملة من السنتين الأوليين إلى ما بعدهما – بنوع خاص – يجب أن يكون انتقالاً تدريجيّاً ، وأن يعطى الطفل الفرصة الكافية ؛ لتصريف ما عنده من النشاط فى جو تتوافر فيه العوامل المحققة لحاجات الطفل النفسية من تقدير وعطف ونجاح وحرية وشعور بالأمن والاستقرار .

ولعل من أكبر أخطاء الآباء – حسبما يوضح القوصى – أنهم لا يتركون الأطفال يفكرون لأنفسهم أو يعملون لأنفسهم ، فبعض الآباء يتدخلون فى تفكير الطفل وحديثه وعمله بمناسبة وبغير مناسبة ، وهذا ما يقتل روح المبادأة والثقة بالنفس عند الطفل ، ومن ثم .. فإن الواجب أن نترك الطفل يكسب كثيراً من خبراته بنفسه ، ومعرفة أن الطفل تشتاق نفسه للعب أو استعمال بعض الأدوات مثل المقص أو الشاكوش ، ولكن منع الآباء للصغير من إجراء تجاربه ، وكسب خبراته بنفسه ، خوفاً عليه من أن يجرح نفسه يسلب الطفل ثقته بنفسه . وحتى إذا جرح الطفل نفسه ، فهذا يكون مدعاة لتعليمه الطرق الصحيحة لاستعمال هذه الأدوات ، وجرح صغير فى الأصبع يستمر أثره يومين أو ثلاثة أو أقل أثراً من جرح كبير دائم ، يتناول ثقة الطفل بنفسه ويضعف أهم ركن من أركان شخصيته .

ومن مظاهر ضعف الثقة بالنفس : الشعور بالقلق وتوقع الشر ، وعدم الاهتمام بالعمل والخوف منه ، واتهام الظروف عند الإخفاق فيه ، وكأنه مستهدف من الأقدار، وأحياناً يكون من مظاهره التشدد ، والرغبة فى الإتقان للوصول إلى درجة من الكمال، والوقوع فى أسر أحلام اليقظة ، وسوء السلوك والإحساس بالدونية والعجز ، وأن الحياة لا تؤخذ بالمبادأة ، وتقرير المصير والاختيار السليم . وقد تظهر أعراض ضعف الثقة فى زملة أعراض مرضية يتمثل بعضها فى التهتهة ، والتبول ، وبعض حالات الشلل . باختصار .. فإن الشعور بفقدان الثقة يمثل متغيراً أوليًا فى زملة الأعراض المرضية الخاصة باغتراب الفرد عن نفسه ، عن ثرائه الداخلى فى وحدة نفسية موحشة ، أو وحدة اجتماعية انسحابية ، وكلاهما يؤدى إلى الأعراض السالفة الذكر.

المدرسة وعملية التنشئة الاجتماعية :

ليس بالأسرة وحدها تكون التنشئة الاجتماعية ! فالمدرسة دورها الفعال حيث تلعب دوراً كبيراً فى التشكيل وصياغة مكونات الطفل النفسية كعالم غنى بديناميات النفسية والاجتماعية .

ويعرف أحمد سلامة وعبد السلام عبد الغفار المدرسة بأنها مؤسسة اجتماعية، اتفق المجتمع على إنشائها بقصد المحافظة على ثقافته ونقل هذه الثقة من جيل إلى جيل ، كما أنها تقوم بتوفير الفرص المناسبة للطفل كى ينمو جسمانياً وعقلياً وانفعالياً واجتماعيًا إلى المستوى المناسب ، الذى يتفق مع ما يتوقعه المجتمع من مستويات وما يستطيعه الفرد .

ويتضح من هذا التعريف أن المدرسة تقوم بوظيفتين :

الوظيفة الأولى : نقل الثقة والمحافظة على التراث الثقافى وما يطرأ عليه من تعديلات ونمو .

الوظيفة الثانية : توفير الظروف المناسبة للنمو ، وأن تزود وتعرض أطفالها للخبرات المناسبة التى تؤدى إلى نموهم جسمانياً وعقلياً وانفعالياً واجتماعياً ، والطفل حينما ينتقل من الأسرة إلى المدرسة .. فإنما ينتقل بزاد نفسى واجتماعى استمده من الأسرة ؛ أى إنه ينتقل إلى المدرسة بمكونات نفسية واتجاهات وقيم ومعايير اجتماعية، بعضها سوى يحتاج إلى تأصيل ، والبعض الآخر قد يكون غير سوى يحتاج إلى تعديل وتوجيه وإرشاد وعلاج.. فبالإضافة إلى كون المدرسة أحد الوسائل الجيدة لثقافة المجتمع وقيمه ومعاييره .. فإنه مسئولية إلى حد كبير - عن المساهمة الفعالة فى تكوين إنسان يستطيع أن يعبر عن إمكاناته وقدراته حسياً وعقلياً وانفعالياً وجسمانياً عن طريق المناشط المختلفة (كالأنشطة الرياضية مثلاً) ، التى يشارك فيها الطفل فيتعلم كيف ينتمى إلى الآخرين وكيف ينتظم ضمن جماعات معينة ، وكيف يتسلح بقوة الفريق فى عمله فالإنسان ضعيف بنفسه قوى بالآخرين ، ويتعلم كيف يؤدى واجباته ويدافع عن حقوقه ومن ثم تتحدد عنده إذا ما ساعدته المدرسة على ذلك - فكرة الحقوق والواجبات ، فالحق ينبغى الدفاع عنه والواجب ينبغى تأييده على أدق نحو مستطاع وفقاً لإمكاناته ، ويتعلم من المدرسة كيف يكون الانتماء للمجتمع خارج حدود المدرسة، كيف يكون الانتماء إلى مبادئ وقيم ، يلتف حولها الجميع ويتمركزون، وتكون لهم بوصلة توجيه وإرشاد إلى غايات ومثل عليا ومستقبل أفضل . فالأمم تتقدم كلما عمقت روح الانتماء عند الطفل الصغير وربطت هذا الطفل بقيم مجتمعه ومبادئه وجعلته يشارك مع الآخرين فى حلم اجتماعى كبير ، فلا تقدم بغير « حلم اجتماعى » يستوعب آمال وأحلام وطموحات الناس فى مستقبل اجتماعى أفضل.

والمدرسة هى الاختبار الوحيد لمكونات الطفل النفسية ، ففى المدرسة يتعلم كيف يشبع ما يمكن إشباعه من حاجات فى إطار تنظيمى وثقافى واجتماعى ، ويرجئ ما لا يمكن إشباعه ضمن هذا الإطار ، ويتعلم كيف يتجاوز الشعور بالإحباط وكيف يعلو على إلحاح الحاجة والرغبة ، وما السوية فى الحياة إلا القدرة على تحمل الإحباط وغدر الأيام وتباريح الزمان!

وهذه القدرة يتعلمها الطفل فى مجتمع المدرسة .. فليس كل ما يطلبه الطفل يتحقق ، وليس كل ما يتمناه يشبع ، وهنا تتشكل مكونات نفسية واجتماعية أشد مرونة

وارتباطاً بالواقع الاجتماعى ، ويكون عليه أن يتحرك ضمن المجموع ، ضمن الانتظام، الذى يشكل مجتمع المدرسة كانعكاس حقيقى لثقافة المجتمع .

وثمة جوانب تعتبر من صميم واجبات المدرسة « الحقة » نحو تلاميذها ، يتحدد بعضها فى :

أولاً : إبراز الإمكانات الخبيئة لطلابها ، فكل طفل يولد وهو مزود بإمكانات وقدرات ومواهب ، هى أعدل الأشياء قسمة بين الناس جميعاً ، وعلى المدرسة أن تساعد على إبراز هذا الثراء الإنسانى فى الطفل من حيز الكمون إلى حيز التحقق الخلاق فى الواقع .

ثانياً : على المدرسة الحقة أن تهتم « بثقافة الإبداع » لا أن تركز جلّ اهتمامها على « ثقافة الذاكرة » عن طريق استظهار المعلومات وحفظها وتكرارها ؛ لأن الإبداع هو الشرط الضرورى لكون الإنسان إنساناً ، فالإنسان مزود بتنظيم عقلى فريد ، وخيال خصب .. ومن ثم عليه أن يحسن توظيف عقله وخياله فى طريق الإبداع ، فبغير إبداع يحمل الواقع خطوات إلى الأمام تصبح صلاة الغائب على روح المصرى .

ثالثاً : وهذا يستلزم من المدرسة « الحقة » أن تهتم بالمتفوقين عقليّا ، وبأصحاب المواهب المتميزة ؛ لأنهم قاطرة المسيرة نحو التقدم وحينما تكون هناك قاطرة واحدة .. فإنها تكفى لجر عربات القطار إلى الأمام .

رابعاً : على المدرسة أن تنمى النواحى الجسمانية ، فالطفل كائن نمائى ونموه محصلة لما هو جسمى ونفسى واجتماعى ، وبقدر ما تهتم المدرسة بالنواحى الذهنية ، عليها أن تهتم أيضاً بالنواحى البدنية التى أصبحت معياراً يقاس عليه تقدم الأمم وازدهارها اليوم .

خامساً : وعلى المدرسة تأصيل قيم الديموقراطية ، فنحن نعيش فى عصر تسويات كبيرة .. عصر يتشكل من جديد ، وعلى نحو ديمقراطى يتشكل ، فبغير ديمقراطية لا تقدم ولا ازدهار ، والمدرسة كمؤسسة اجتماعية عليها واجب النظر إلى الطفل كقيمة إنسانية لا كشىء أو مجرد « موجود فى ذاته » ينتمى إلى عالم الأشياء .. ومن هنا عليها أن تؤصل روح المشاركة فى صنع قرار الفصل والمدرسة ، وأن تتيح للتلميذ فرص إبداء الرأى والنقد والشعور بالحرية والاستقلالية ضمن قيم واتجاهات مجتمع المدرسة كانعكاس ثقافى واجتماعى للمجتمع .

سادساً : على المدرسة أن تنمى وبغير حدود قيم ، التسامح الثقافى ، Cutlural To-lernce ، فالكل سواء فى وطن واحد وأرض واحدة وقيم واحدة متوارثة عبر آلاف السنين ، وبالتسامح الثقافى يتحقق الانتماء والوحدة والتقدم .

سابعاً : على المدرسة أن تهتم بأطفالها الذين يعانون من تأخر دراسى وتخلف عقلى واضطرابات انفعالية وانحرافات سلوكية بإنشاء مدارس للتربية الخاصة ، وعيادات نفسية للعلاج والإرشاد والتوجيه وفى القاهرة يوجد عدد غير قليل من هذه المدارس والعيادات النفسية من أشهرها العيادة النفسية التابعة لجامعة عين شمس .

وإذا لم تهتم المدرسة بهذه النواحى .. فهناك احتمال كبير لنمو الطفل نمواً غير سليم ، لا يحقق له التوافق الإيجابى مع مجتمعه ، ولا يتيح لقدراته فرص التعبير عن إمكاناتها ، ولا يؤصل فيه معانى السعى والاستمرارية والدافعية ولا يمكنه من تجاوز الإحباط والارتفاع فوقه ، وهذا مردود إلى أن المدرسة على الرغم من دورها فى نقل المعرفة وثقافة المجتمع والتعريف بقيم المجتمع .. فإن لها دوراً كبيراً فى تشكيل سمات شخصية الطفل .

الفصل الخامس

القيـــادة

* في معنى القيادة
* نظريات القيادة
* السمات والفروق الفردية
* الدوافع وطبيعتها
* القدرة على إدارة الغير
* القدرة على إدارة المواقف
* القدرة على ضبط الذات
* الكفاءة الشخصية
* الخلاصة
* أنواع القيادة

الفصل الخامس

القيـــــــادة

القيادة ظاهرة ذات أهمية قصوى فى حياة الجماعة ، فالجماعة يستحيل أن تكون بغير قيادة تنظم عملها وترهص لمستقبلها وتدفع بإمكانات الجماعة إلى الأمام . وهذا يتطلب أن تكون الجماعة ذات استجابة واعية لمطالب أفرادها فى الحياة والمستقبل والتماسك وقوة الانتماء .

تُعد ظاهرة القيادة مشكلة ذات أهمية قصوى فى حياة المجتمع ، ومن ثم ينبغى التمييز بين القيادة كأعلى درجة فى انتظام هرمى ، ضمن جهاز اجتماعى مستقر ، وبين قيادة الغير كظاهرة دينامية من الظواهر السيكولوجية الاجتماعية ، أو قل كظاهرة دائبة التغير يصعب الإمساك بها ؛ من حيث إنها تعكس وتحكم الأفعال البينية داخل الجماعة ، فى لحظة معينة من لحظات حياتها ، فالقائد فى الحالة الأولى هو الزعيم ، ينبثق من صميم الجماعة ، بينما هو قائد يفرض على الجماعة فى الحالة الثانية .

القيادة تنبثق من صميم الجماعة وتكون استجابة لمطالب أفرادها.وسلطة القائد فيها نابعة بشكل تلقائى من أفراد الجماعة الذين يختارونه قائدا لهم .

«الرئاسة» ضرورة تحتمها استمرارية الجماعة ، وتقوم نتيجة لنظام وليس نتيجة لاعتراف تلقائى ، ويمكن أن يختار الرئيس الهدف ولا تحدده الجماعة نفسها ، وتتميز الجماعة بمشاعر مشتركة أو عمل مشترك ضئيل وهى تسعى لتحقيق هدف الجماعة . «لويس مليكه» (ص ٧٠) .

وتتعدد النظريات الخاصة بالقيادة بتعدد النظريات النفسية والأطر المرجعية للباحثين وعلماء النفس والاجتماع ، ومن أهم هذه النظريات :

نظرية السمات Traits Theory

الفكرة الأساسية فى هذه النظرية أن للقادة سمات شخصية متميزة تؤهلهم لأن يكونوا قادة ، وأن القادة من الآحاد من البشر الذين يتمتعون بتفرد فى مكوناتهم النفسية ، وتركز هذه النظرية على تحديد السمات الخاصة بالقادة ، ويعتبر كارليل من

علماء التاريخ الذين أرهصوا لعلم النفس لدراسة سمات العظماء من القادة والأبطال التاريخيين والبطولة عنده هى العروة المقدسة التى تعقد بين الرجل العظيم وسائر الناس . وفى كتابه عن الأبطال اتخذ من الرسول «محمد بن عبد الله» رمزا للبطولة الفذة ، وعلى قمة أبطال التاريخ جميعاً .

وثمة خصائص مشتركة للمكونات النفسية والجسمية والعقلية والوجدانية للقادة حيث وجد استودجل Stodgill ١٩٤٨ ما لا يقل عن عشرين سمة تمت دراستها وتتضمن هذه السمات العمر الزمنى والتكوين الجسمى ، والثقة بالنفس ، والقدرة على التحكم الذاتى وما إلى ذلك من سمات تميز القادة ، وأسفرت النتائج عن أن الشخص الذى يشغل مركزا قياديا يزيد عن متوسط الجماعة فى الذكاء والمسئولية والمشاركة الاجتماعية والقدرة على المثابرة والمبادأة ... وأشارت بعض الدراسات إلى أن المواقف هى التى تحدد أى السمات تكون مهمة بالنسبة للقيادة .

ويقرر استودجل أن هناك قاسما مشتركا بين الأفراد الذين يتسمون بالقيادة دون غيرهم ، يتحدد فى المكانة الاجتماعية والاقتصادية والذكاء والعلم والاعتماد على النفس وتحمل المسئولية والمشاركة الاجتماعية .

ويقدم بكى Bucky مجموعة من السمات تضع فى اعتبارها العلاقة بين القائد ومن يقودهم كالقدرة على التعاون ، والتعبير عن الهدف ، والقدرة على أن ينوب عن الجماعة وأن يعكس تقدمها . ويذهب تردجول Tredgoil فى كتابه «العلاقات الإنسانية فى الصناعة الحديثة »، إلى أن بعض هذه السمات لا توجد فى أكثر القادة نجاحا فى التاريخ أو الذين كان نجاحهم مؤقتاً . فمن غير المجدى أن يقول : إن القائد لابد وأن يكون متزنا ؛ لأن معظم القادة الناجحين فى التاريخ كانوا مرضى نفسيين وضيقى الأفق والإدراك ولديهم هذاءات اضطهادية كهتلر .

وهذا يعنى أن سمات القيادة نسبية وليست مطلقة ، وأن القيادة الحقة تلك التى تنبثق من إرادة الجماهير ، وتكون استجابة لها ومحركاً لها أيضاً ، وتنشأ نتيجة للتفاعل الدينامى بين القائد والجماهير .

نظرية الرجل الكارزمى : (الملهم)

وهذ نظرية مستمدة من كتابات ماكس فيبر Weber عن القيادة ؛ حيث يشير هذا المصطلح Charisma كارزما عند الإغريق إلى النعمة الإلهية ، واستخدمه لأول مرة ارنست ترولتش Troeltsch ويقصد بالكاريزما سمة خارقة تتميز بها شخصية فرد معين ، تجعل صاحبها كأنه يمتلك قدرات ومواهب تفوق ما هو إنسانى وما هو

طبيعى، ولهذا فإن المصطلح فى نطاق الأدب يستخدم للإشارة إلى الهبة الإلهية Gift of Grace . وقد انتقل هذا المصطلح إلى علم الاجتماع ؛ ليشير إلى مجموعة صفات تتحقق عند أولئك الذين يملكون قوة القيادة ويمارسونها بصورة خارقة للعادة . ولقد كان فيبر أول من استخدم هذا المصطلح فى العلوم الاجتماعية ، حيث يعتقد أن القيادة الملهمة تعمل على فرض النظام والصمة والالتزام خلال فترة معينة من الزمن . غير أنه يقرر أن الكاريزما تستحيل إلى روتين حينما تنتهى حياة القائد الملهم ولا يجد أتباعه من طريق أمامهم ، سوى الالتزام بالتنظيم البيروقراطى المستند إلى قواعد محكمة وبناء رئاسى للسلطة .

ويؤكد ديكمجيان فى كتابه «مصر فى ظل ناصر» أن القائد الكارزمى هو صانع أساطير Myth - maker أو خرافات، والأسطورة (أو الخرافة) لا تخضع للتحليل العقلانى ؛ لأنها تعتمد على الحدس والغريزة والعقيدة ، سواء فى أصلها أو فى استخداماتها السياسية ؛ فالقيادة الملهمة والأسطورة متشابكتان بكثافة وتشتركان فى أصولهما غير العقلانية ، وفى أبعادهما الحدسية والعقيدية والوجدانية .

ومعنى هذه العبارة أن القائد الملهم يستند إلى قدرة فائقة على صنع الأساطير ، وأن هذه الأساطير والقيادة الملهمة ذاتها هما من الظواهر التى لا يمكن تحليلها عقليا . وهذا معناه التوقف عن الحكم أو التحليل أو التفسير العلمى .وعندما تتحول الزعامة الحقة إلى دوجما Dogma أى إلى شيء ثابت وقطعى ، تصح صلاة الغائب على روح العلم وروح التطور .

وهذه النظرية تتفق ونظرية أخرى هى نظرية الرجل العظيم ، تلك التى دعا إليها عالم النفس جالتون Galton ، والتى تشير إلى أن القائد يبرز بوصفه يتسم بقدرات ومواهب وإمكانات فائقة وغير عادية تجعل منه قائداً ، مهما كانت الظروف والأسباب.

النظرية الموقفية Situational Theory :

وتركز هذه النظرية على حقيقة مؤادها إلى أن الإنسان يتلخص فى مواقف ، وأن المواقف هى التى تبرز السمات القيادية فى الأفراد وأن السمات القيادية تبرز استجابة للمواقف ؛ ولهذا يرى ميرفى Murphy أن سمات الفرد تتغير بتغير المواقف، فالفرد المسيطر قد يصبح خجولا إذا وضع فى موقف غير ملائم . ولقد تدعمت وجهة النظر الموقفية خلال الحرب العالمية الثانية ، فلقد قامت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية Central Intelligence Agency (CIA) بتدريب الأفراد الذين يقومون

بمهمات سرية فى أرض العدو على المواقف الصعبة وملاحظة استجاباتهم فى هذه المواقف .

النظرية التفاعلية : Interactional Theory

ويرى أصحاب هذه النظرية أن القيادة تنشأ نتيجة لتفاعل القائد والأتباع والجماعة ضمن مواقف معينة ، ومن ثم فالقائد ينبثق من صميم الجماعة ، مدركا لتوجهاتها وأهدافها ، والجماعة تكون على وعى بقدراته وإمكاناته التى يحددها تفاعله معها ضمن الموقف الاجتماعى ، وهكذا «تقوم النظرية فى أساسها على أن القيادة عملية تفاعل اجتماعى» فالقائد يجب أن يكون عضوا فى الجماعة يشاركها معاييرها وقيمها واتجاهاتها وأهدافها وآمالها ومشكلاتها وسلوكها الاجتماعى (زهران ٣٠٦) .

النظرية الوظيفية :

وقد ظهرت هذه النظرية كرد فعل نقدى لنظرية السمات ، حيث يؤكد أصحاب هذه النظرية أن القيادة عبارة عن مجموعة من الوظائف التى تتحدد بخصائص داخلية وخصائص خارجية . وتتضمن هذه النظرية جانبين أولهما وأهمهما يشير إلى أن سمات القائد الضرورية لفاعلية عمل الجماعة سوف تختلف أو تتغير حسب خصائص الجماعة ، كذلك فإن الجماعة تتطلب قيادة تتفق ونوعية أهدافها ومصالحها، وأن هذه الأهداف تختلف باختلاف الظروف ، أما الثانى فيتعلق بمدى تعاون الفرد مع الجماعة على الاستمرارية فى تحقيق أهدافها .

القيادة طبقا لهذه النظرية وظيفية تتحدد بقدرة القائد على وضع الخطط والسياسات وصياغة الإطار الأيديولوجى للجماعة .

وتتلخص أهم وظائف القائد فى الجماعة فيما يلى :

(١) **التخطيط** : للأهداف القريبة المدى والبعيدة المدى .

(٢) **وضع السياسة** : والقائد هنا يتحرك فى إطار تحدد فيه الأهداف من ثلاثة مصادر «فوقية» من السلطات العليا للجماعة (كما فى الجماعات العسكرية) ومصادر «تحتية» نابعة من قرار أعضاء الجماعة ككل ، ومن القائد نفسه حيث تفوضه السلطة العليا أو الجماعة نفسها – فى حالة الثقة فيه – فينفرد بوضع السياسة .

(٣) **الأيديولوجية** : وهنا ينظر إلى القائد كأيديولوجى ، فهو فى كثير من الأحيان قد يعمل كمصدر لأفكار ومعتقدات وقيم الأعضاء .

(٤) **الإدارة والتنفيذ** : أى تحريك التفاعل الاجتماعى وتنسيق سياسة وأهداف الجماعة ومراقبة تنفيذ السياسة وتحقيق الأهداف.

وطبقاً لهذه النظرية فإن القائد يكون مصدراً للسلطات وللثواب والعقاب ، ووجهاً أبويًا يمثل القدوة لأفراد الجماعة بما يتصف به من سلوك يدفع بالجماعة إلى الاستمرارية .

السمات والفروق الفردية للقادة :

لئن اختلفت النظريات النفسية والاجتماعية وتعددت فى وضع تصور محدد لمعنى القيادة ، فإنها تتفق فيما بينها فى أن القيادة ظاهرة من ظواهر التفاعل بين الفرد والجماعة فلا يكفى أن يجتمع الأفراد فى مكان وزمان معينين كيما تكون جماعة ، فمثل هذا التجمع لا يعدو مستوى الجمهرة ، فلكى تتخذ الجماعة بنية لها ، ينبغى أن يتواجد الأفراد فى موقف مشكل ، يتطلب وسائل مشتركة لبلوغ هدف بعينه، فأثر الدوافع والأهداف واضح لا ينكر فى نظمه لبنية الجماعة . وبالإضافة إلى ذلك فإن القائد يعد شرطا أساسيا لانتظام بنية الجماعة . إذ هو النواة التى تتيح للأفراد الالتفاف والتمركز حوله ، ولا شك أن السمات الشخصية للأفراد تلعب دورا واضحا فى القيادة ، إذ يصبح بعض الأشخاص قادة دون سواهم ، ومعنى هذا أن الجماعة بإزاء موقف معين يكشف عن رغبات معينة ، وأن السمات الشخصية للفرد التى تستطيع أن ترضى الحاجات هى وحدها التى يمكن أن تصبح سمات للقائد . باختصار .. فإن الشخص الذى يصبح قائداً فى وقت ما ، هو ذلك الشخص الذى يستطيع أن يقدم للجماعة الحل لتوتراتها أو لحاجاتها ودوافعها ومطالبها . ومن ثم فإن هناك سمات ثلاث تعتبر قاسماً مشتركا لسمات وخصائص القادة ، تتمثل فى :

١- المبادأة فى الصلات الاجتماعية .

٢- القدرة على التنظيم .

٣- التشابه من حيث هو مجاراة للجماعة .

وفيما يتعلق بالتشابه من حيث هو مجاراة للجماعة ، يذكر «مخيمر دراسة هولنجورث Hollingworth، وتتعلق بدراسة طفل عمره عشر سنوات منعزل فى فصله عن سائر زملائه . كان الطفل متفوقاً تفوقا كبيرا على أقرانه من حيث العمر العقلى ، وكانت عزلته بالتالى ترجع إلى هذا الاختلاف وعندما نقل إلى فصل دراسى أعلى ، وصل بسرعة إلى القيادة نظرا لتحقيق التشابه بينه وبين أقرانه من ناحية

العمر العقلى ومن ثم يتضح أنه لابد من قدر من التشابه بين القائد والأفراد . وفى عزلة العلماء والفلاسفة ما قد يوضح ذلك .

ورغم ذلك فليس هناك طبيعة قبلية ثابتة لما يمكن أن يكون عليه القائد ؛ أى لاتوجد قدرة خاصة بالقيادة تصلح فى كل زمان ومكان ، فى غير ما اعتبار للمواقف العيانية الخاصة ، ومن ثم فالقائد لا يكون إلا ضمن مواقف ، فالمواقف هى المحك الذى تقاس عليه سمات القائد وخصائص زعامته ، وانتقاء القائد من حيث هو زعيم إنما يكون ضمن ما يتمتع من إدارة للصراع وللمواقف وما يتسلح به من قدرات وظيفية معينة .

والآن ، هل لنا مع ذلك أن نتساءل عن أكثر السمات قابلية للتحول فى المواقف العيانية إلى صفات لازمة لدور القيادة ؟ إن بوسعنا أن نذكر كثيرا من السمات الشخصية ، وإن تعذر علينا أن نرصدها من حيث الأهمية . ومما يكن من أمر .. فإن السمات الأساسية التى تميز شخصية القائد رغم تباين المواقف ، يمكن أن تنحصر فى طبيعة دوافعه ، وقدرته على إدارة الغير ، وعلى إدارة المواقف والسيطرة على ذاته، بالإضافة إلى قدرته من حيث كفاءة التخصص .

١- طبيعة الدوافع :

لابد لكل قائد من دافع انفعالى ، ويختلف هذا الدافع من اهتمام القائد بحاجته إلى تأكيد ذاته وتحقيق إمكانياته ، إلى اهتمامه بحاجة الغير والمساهمة معهم فى قيم مشتركة والظفر بتقديرهم ، ومعنى هذا أن القائد ، من هذا الوجه ، تابع للغير ومعتمد عليهم . وينظر البعض إلى موقف التابع نظرة تسيئ إليه بالقياس إلى موقف المستقل عن كل تبعية ، ومع ذلك فلابد لنا من الاعتراف بأن قدرا كبيرا من التبعية لابد وأن يتوافر فى كل شخص يبلغ مرتبة القيادة .

٢- القدرة على إدارة الغير :

لابد لإدارة الغير بصورة فعالة من النظر إليهم كقيمة إنسانية فليس الأفراد فى واقع الحياة مجرد أشياء خالية من الإرادة .. وإنما هم أشخاص بمعنى أشياء تتميز أكثر ما تتميز بحرصها على القيم ؛ فالرغبة فى التسلط لا تكفى لإدارة الغير ، إذ إن تغلب هذه الرغبة يتمخض عن إنكار الغير كأشخاص ، لما تنطوى عليه هذه الرغبة فى التسلط من إحباط للغير ، وتهديد لذواتهم . ومن هنا فإن القيادة التسلطية تثير عدائية الأفراد على نحو صريح أو ضمنى ، ويتخذ العدوان صورة المقاومة الإيجابية أو السلبية، اللهم إلا أن يطبع الخضوع بنية الأفراد .

أما فيما عدا هذه الحالات العارضة فإنه يستحيل على المتسلط المستبد أن يحيا بغير قوة تسنده ، وخوف يدعمه . وحتى فى جماعات الأطفال يضطر المستبد إلى أن يعدل سريعا عن محاولاته لفرض نفسه على الغير ، وإلا ذهبت عنه القيادة . وبديهى أن القيادة التسلطية ، إذ تثير سخط الأفراد ، وتسيئ إلى معنوية الجماعة ، وليس معنى ذلك أن القيادة الفوضوية التى تترك الحبل على الغارب لا تسيئ إلى الروح المعنوية للجماعة ، بل إنها تحرم الأفراد مما يطمحون إليه من الشعور بالأمن .

فلئن كان الاستبداد بغيضا إلى النفس ، فإن الأفراد مع ذلك فى حاجة إلى شيء من السلطة التى يركنون إليها فى أمن ، مما يستلزم وجود القائد كضرورة ملحة للجماعة . وباختصار ، فإن القيادة الفعالة هى تلك التى تضع حاجات الغير موضع الاعتبار . وبديهى من الناحية النظرية أن القيادة تتخذ واحداً من مسلكين : هى إما أن تميل إلى إكراه الواقع أو فرض حل جاهز عليه ، وإما أن تميل إلى التكيف فى مرونة تجاه الواقع . ففى الحالة الأولى ينظر القائد إلى المواقف الحالية نظرته إلى المواقف السابقة ، بحسبانها مماثلة مما نجده فى القيادة التسلطية ،وفى الحالة الثانية تسمح القدرة على التكيف باحترام فردية الموقف الجديد ، مما يتضح فى القيادة الديمقراطية. ولعل خير قيادة هى تلك التى تقوم على تكامل عمليتى المماثلة والتوفيق بالنسبة إلى المواقف ، وتضع موضع الاعتبار حاجة الأفراد أن تغفل حاجة القائد *

٣- القدرة على إدارة المواقف :

يعد قيام الحاجات والأهداف من العوامل الأساسية لانتظام بنية الجماعة ، فلابد من موقف مشكل كيما تكون جماعة ، وقد رأينا أن الشخص الذى يجد الحل للمشكل يتحول إلى قائد ، ومن هنا تبدو أهمية الذكاء بالمعنى الوظيفى للكلمة ، أى من حيث هو قدرة على تحقيق التكيف مع المواقف الجديدة : وهى قدرة تنكشف فى السلوك العادى.

ويؤيد ذلك ما نجده من تفوق الأفراد ، الذين ينتقون للقيادة على أقرانهم من حيث الذكاء والاستعداد الاجتماعى والقدرة على التكيف .

٤- السيطرة على الذات :

ليس من شك فى أن الشخص الذى تتحقق له السيطرة على ذاته يعد أكثر صلاحية لقيادة الغير . فكلما عظم حظ الفرد من السيطرة على ذاته ازداد حظه من السيطرة على المواقف المادية والاجتماعية . ويتطلب فهم السيطرة على الذات فهم

(*) لمزيد من التفاصيل ، اقرأ المدخل إلى علم النفس الاجتماعى (صلاح مخيمر) .

الدافع ، من حيث هو توتر يطرأ على وحدة الشخص فينالها بالتفكك .. حتى يتم إرضاء هذا الدافع . ومعنى هذا أن الدافع حين ينطوى على توتر شديد فإنه يهدد تبعا لهذه الشدة وحدة الشخصية ، وتكشف مثل هذه الاعتبارات الخاصة بدينامية الشخصية عن أن قدرة الشخص على التكيف الخارجى تتوقف على ما يتمتع به من حرية داخلية ، بمعنى الاتزان الداخلى ، أضف إلى هذا إن للسلوك أثاراً «ذاتية التعديل» autoplastic وأخرى «غيرية التعديل» alloptastic؛ بمعنى أن السلوك يتمخض عن تغيرات تعمل على تشكيل الشخصية من ناحية ، وتشكيل البيئة من ناحية أخرى .

ويمكن بالنظر إلى التغيرات الذاتية أن نميز بين تغيرات مباشرة تتصف بأنها التوتر وأخرى غير مباشرة أى بعيدة تأخذ صورة التعلم . وخلاصة هذا كله أن هناك إحالة متبادلة بين الشخص والموقف ، فكلما عظمت الوحدة الداخلية للشخص زادت قدرته على إدارة المواقف الخارجية ، وكلما عظمت القدرة على إدارة المواقف الخارجية ازدادت الوحدة الداخلية للشخصية ، وعلى النقيض من ذلك الموقف الغامر الذى يمثل الوجه المرضى لظاهرة القيادة . ويكفى لفهم هذا الموقف أن نتذكر خصائص الموقف الصدمى traumatisante فبوسعنا أن نتصور موقفا يغمر القائد أو يثير فيه التوتر والقلق ، بل بوسعنا أن نتصور موقفا غاية فى التعقيد يستعصى حله حتى على القائد السوى «وقد اضطلع «لاجاش» بأبحاث كلينيكية مستخدما اختبار الأداء ليبلغ بهذه الأبحاث إلى تشخيص الشخصية دون أن يحفل بقياس القدرة الحركية . وكان فى دراسة سلوك الأفراد أثناء أدائهم للاختبار ، كموقف معين ، ما يسمح بالتشخيص ، الأمر الذى تم بالرجوع إلى معيار السيطرة على الذات . ومعنى هذا أن الملاحظة الكلينيكية قد حاولت تبين حظ الفرد من الاندفاعية ، أو السيطرة المعتدلة ، أو السيطرة المسرفة التى تبلغ حد الكبت ومن هنا كان تقسيم الأفراد إلى اندفاعى ومتزن ومتردد .

٥- القدرة الخاصة أو المقدرة أو الكفاءة : Competence

لو أخذنا جماعة فى موقف مشكل ، فتساوت دوافع الأفراد وقدراتهم أو قل السمات الأربع التى عرضنا لها، لوجدنا أن أكثر الأفراد كفاءة من حيث القدرة هو أعظمهم فرصة للوصول إلى القيادة ولكن كيف لنا أن نفهم دلالة «المقدرة» فى شىء من الدقة ؟

ذلك أن اللفظة تشمل دلالة واسعة تجعل منها مرادفة للثقافة العامة ، فالثقافة العامة للقائد ينبغى أن تعدل ، إن لم تزد عن متوسط ثقافة الأفراد . وغنى عن البيان

أن الثقافة العامة تنقلب إلى عائق فى سبيل القيادة ، حين تسرف فى غزارتها أو ضعفها . ولكن للمقدرة فى الواقع دلالة ضيقة تنصب على القدرة الفنية ، فكلما تعقد نشاط الجماعة ازداد الالتجاء إلى الفنيين من الإخصائيين . ومعنى هذا أن الفرصة تسنح أمام الإخصائى لبلوغ القيادة بقدر ما يمعن نشاط جماعته فى التخصص الفنى ومعنى هذا بعبارة أخرى ، أن المشكل حين يصعب من جانبه الفنى يسهل من ناحيته الاجتماعية ؛ أى من حيث اختيار القائد فالمقدرة المهنية تجعل من صاحبها فى هذا الموقف زعيما لجماعته .

وبالإضافة إلى الدلالتين السابقتين .. فإن اللفظة تشتمل على دلالة اجتماعية تشير إلى ما للشخص من زاوية بحياة الجماعات ؛ فالشخص الذى سبقت له المساهمة فى حياة جماعة ما ، وتمخضت تجاربه السابقة عن خبرات فى هذا الميدان ، يعد أقدر وأصلح من غيره للاضطلاع بأعباء القيادة .

ومما سبق يتضح

إن المجتمع انتظام للأفراد فى مواجهة الطبيعة ، ومن شأن هذا الانتظام إن يوحد الجماعة صوب هدف بعينه ، ومن الهدف إلى الأيديولوجية (الإطار الفكرى) والقيمى والمرجعى الذى يوحد الجماعة ، ومن ثم يجمع الأفراد نحو إطار يقيم وحدة السلوك . فى تنظيم يتصدى للمشكلة . ومن هنا فالجماعة ابتداء من وحدة المشكلة والحاجة والهدف إلى وحدة الإيديولوجية إلى النمط الموحد للسلوك ، حول «نواة» هو القائد الذى يجسد إمكانة الوصول بالجماعة إلى هدفها .

أنواع القيادة :

ينبغى أن نميز بين قيادة تستند إلى السيطرة والهيمنة وقيادة تستند إلى التكامل ، فى الحالة الأولى تتحقق فى قائد لا يقيم وزناً لحاجات الجماعة ، بينما فى الحالة الثانية فإن القائد يتوجه إلى المقودين بالحرص والعمل على إرضاء حاجات الجماعة . وهذه التفرقة يلزم عنها التمييز بين قيادة الآخرين من حيث هى رئاسة ففى الحالة الأخيرة تستند الرئاسة فى هيمنتها إلى جهاز منظم راسخ ، فسلطة الرئاسة هى التى تحدد للجماعة أهدافها .

وتعتبر دراسة كيرت ليفن Lewin وليبيت Lippit وهوايت White من الدراسات الرائدة فى مجال البحث الاجتماعى وبخاصة فى تحديد أنواع القيادة ؛ حيث انتهى ليفين وزملاؤه إلى ثلاثة أنواع للقيادة : الديمقراطية ، التسلطية (الدكتاتورية) والفوضوية وتعتبر دراسة ليفين وزملائه من الدراسات الرائدة فى

البحث فى مكونات الشخصية التسلطية ، تلك التى تحدد معناها ومكوناتها فى دراسات ادورنو Adorno وريتش Reich وفروم Fromm وغيرهم .

وقد أسفرت دراسة ليفين وزملائه على أن القيادة التسلطية تركز كل القوة والسلطة فى يد قائد واحد ينفرد بالسلطة دون غيره ، وهو الذى يقوم بوضع سياسة الجماعة ويوجه نشاط أفرادها ويرسم لهم أهدافهم ويحدد توجيهاتهم دون مشاركة من أفراد الجماعة .. باختصار هو قائد لا يقيم وزناً لأفراد جماعته . أما القائد الديمقراطى فقيادته تقوم على التكامل ؛ حيث يشرك الجماعة فى اتخاذ القرارات ويرهف السمع لآرائهم وأفكارهم ولمشاكلهم وما يتصورونه من حلول وما يقترحونه من أفكار .. إنه باختصار ينظر إلى أفراد جماعته بوصفهم قيماً إنسانية . أما فى حالة القائد الفوضوى فهو يختلف عن النمطين السابقين من القيادة فى أنه يلتقى بالجماعة دون أن يرسم أهدافا معينة لهذا اللقاء ، ودون تحديد للأدوار داخل الجماعة ويترك كل شيء يمضى داخل جماعته بشكل فوضوى عشوائى .

ويمكن تحديد الفرق بين القيادة الديمقراطية والقيادة التسلطية فى أن القيادة التسلطية تستند إلى عملية «المماثلة» فالأفراد أشياء ، وبالتالى الأساليب نفسها وهى استبدادية ، سيان عادلة أو ظالمة ، أما القيادة الديمقراطية فتستند إلى المماثلة والملاءمة ، فللأفراد دوافعهم المعينة وبالتالى ضرورة ملاءمة الأساليب مع الأساليب الخاصة للأفراد .

ومع ذلك فإن المسألة ليست بهذه السهولة ؛ فالقيادة تسلطية أو ديمقراطية لاتكون بحسب النظر إليها من خارج بل كما يعيشها الأفراد أى لا من حيث تنظيم هرمى ، بل من حيث إنها تجيب أو لا تجيب عن دوافعهم وحاجاتهم وتطلعاتهم نحو المستقبل ، فالتوتر والإحباط ينتجان من اختلاف الدوافع والتوجيهات بين القائد والأفراد .

الفصل السادس

* الهوية الثقافية
* التسامح الثقافى

الفصل السادس
الهوية الثقافية المصرية

مقدمة :

مع نهاية هذا القرن ، وبزوغ قرن جديد ، يتواصل زمنياً مع قرن يوشك أن يسدل ستائره ، أصبحت مشكلة « الهوية الثقافية » المحور الأساسى للأمم والشعوب ، ولتوكيدها انفجرت صراعات عرقية وثقافية فى أنحاء شتى من العالم تبيد وتدمر ، وتقتلع جذوراً كانت راسخة فى دول البلقان، والصومال، وروواندا حيث عمليات الإبادة الجماعية على نحو غير مسبوق ، وظهور الحركات الفاشية الجديدة فى أوروبا.

وفى الثمانينيات من هذا القرن ، وبالتحديد فى عام ١٩٨٩ ، سقط حائط برلين، وكان سقوطه بداية منبئة بأفول الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق ووسط أوربا ، حيث اندلعت الثورة فى كل مكان من هذه الدول تنشد الحرية والديمقراطية والفردية والتحول إلى الاقتصاد الحر ، وبدا واضحاً أن العالم فى حاجة إلى رؤية مستقبلية تستهدف إيجاد حلول جديدة لمشكلات غير تقليدية .

ولعل من بين المفكرين – الذين اعتبروا عام ١٩٨٩ بدء تاريخ جديد للإنسانية فى هذا القرن (فوكوياما Fukuyama ، ١٩٩٢ ، هنتنجتون Huntington ، ١٩٩٦ ، برستون Preston ، بينى Penny ، ١٩٩٧ ، فرينك Ferenc ، ١٩٩٨ ، وغيرهم كثيرون) .

وبزغت مفاهيم جديدة تحاول بلورة مظاهر الثورة المعلوماتية ، والتقدم التكنولوجى المتسارع ، وحركة المتغيرات فى عالم اليوم ، تمثلت فى الكوكبية Glo-balism ، الكونية Universalism ، والاعتماد المتبادل Interdependence .

وتفجرت صراعات ثقافية وعرقية كانت مؤجلة بحكم تلك التسويات الكبرى التى صاحبت انتهاء الحرب العالمية الثانية والأولى أيضاً .

وفى التسعينيات من هذا القرن ظهر كتابان : الأول « نهاية التاريخ وخاتم البشر» "The End of The History, and The Last Man" ، ومؤلفه فرانسيس فوكوياما (١٩٩٢) ، والثانى « صدام الحضارات » The Clash of Civilizations ومؤلفه هنتنجتون (١٩٩٤) .

والكتابان دعوة صريحة للقضاء على الهويات الثقافية المباينة للهوية الثقافية الغربية .

يقول فوكوياما فى مفتتح كتابه ملخصاً رؤيته فى هذا الكتاب : « ثمة إجماع بدا واضحاً فى السنوات القليلة الماضية ، فى العالم بأسره حول شرعية الديمقراطية الليبرالية ، بعد أن لحقت الهزيمة بالأيديولوچيات المنافسة ، مثل الملكية الوراثية ، والفاشية والشيوعية ، غير أنى أضيف إلى ذلك قولى : إن الديمقراطية الليبرالية قد تشكل « نقطة النهاية فى التطور الأيديولوچى للإنسانية » والصورة النهائية لنظام الحكم البشرى » ، ومن ثم فهى تمثل « نهاية التاريخ » (ص ٨) .

ويستند فوكوياما فى رؤيته إلى تصورات هيجلية مؤداها أن الدولة الليبرالية هى نهاية التاريخ ، وذلك مردود إلى سببين : الأول يتصل بالاقتصاد، والثانى يتصل بالصراع من أجل نيل التقدير والاحترام .

وتمضى هذه الرؤية فى تعصبها وجمودها القطعى ، مصنفة شعوب العالم إلى صنفين : السادة والعبيد ، السادة هم الغرب ، أما العبيد فهم بقية شعوب الدنيا ، وأن «أرض الميعاد » هى الديمقراطية الغربية ، وإن خاتم البشر هو الإنسان الغربى .

أما رؤية هنتنجتون (١٩٩٦) ، فتقوم على أن الثقافة والهويات الثقافية التى هى على المستوى العام هويات حضارية ، هى التى تشكل أنماط التمسك والتفسخ فى عالم ما بعد الحرب الباردة (ص ٣٧٢) .

وتاريخ الصراعات عنده بدأ بين الملوك الأباطرة ، ثم بين الشعوب ، ثم بين الأيديولوچيات فى الحرب الباردة ، والآن هو صدام بين حضارات وثقافات وأن الغلبة ستكون حتماً للثقافة الغربية .

ويستند هنتنجتون فى رؤيته إلى تصورات مستمدة من كتابات هافيل Havel (١٩٩٤) ، وديلورز Delors (١٩٩٣) ، وشبنجلر . يقول هافيل: « إن الصراعات الثقافية تتزايد الآن على نحو غير مسبوق » (٢٧) ، ويقول ديلور: « إن الصراعات المستقبلية سوف تشكلها عوامل ثقافية أكثر منها أيديولوچية أو اقتصادية » (ص ٢) .

أما شبنجلر فيقول للحضارة نهر واحد هو حضارتنا وعلى الآخرين إما أن يكونوا روافد لهذا النهر ، أو يضيعوا فى رمال الصحراء » (ص ٩٢) .

وتصورات هنتنجتون وما تستند إليه من آراء تحض على العدوان وتدعو إلى الصدام بين الحضارات وبين الثقافات ، غافلة عن أن التفاعل بين التمايزات الثقافية ،

وليس « الصراع » هو الذى يقدم إبداعاً ينطوى على حلول جديدة ، لمواجهة مشكلات عالمية غير تقليدية ، فلكل مجتمع هويته الثقافية ، وإرثه الحضارى الفريد الذى لايذوب أو يتلاشى بتلاشى المسافات بين الأمم ، وإن للثقافة جاذبيتها القطبية التى تجمع بين الأمم . فما مزقته الأيديولوچيات جمعته الثقافة كما حدث فى الألمانيتين ، الذى كان انهيار حائط الفصل بينهما بدء تاريخ جديد فى عالم الإنسان .

والشعوب فى سعيها لتحديد معنى لهويتها الثقافية ، إنما تعى ذاتها ، وتعى تفردها ، مدركة أن التباين فى الهويات الثقافية هو الذى يتيح ثراء فى المحتوى الثقافى العالمى ، وأن هذا التباين يستلزم قدراً كبيراً من التسامح للالتقاء والحوار بين الأمم والشعوب .

وها هنا يصبح الكشف عن منابت الهوية الثقافية المصرية ، واستجلاء محتوياتها أمراً لا مناص منه للحفاظ على هذه الهوية الثقافية التى تتمتع بخصائص لصيقة بها ، تميزها عن غيرها من الثقافات ، وهذه الخصائص راسخة ، بيد أنها غير جامدة أو مغلقة ، نسبية غير مطلقة ، وهذا سر قدرتها على التجدد والاستمرارية .

تتسم بحيوية دافقة ووحدة عضوية لا شتات فيها ، قديمة وغائرة فى عمق الزمان ، شكلتها « ثوابت جغرافية » سرية التنوع و« متغيرات تاريخية » الرجوع إليها يتيح فهماً أعمق للمستقبل ، و « تراث مركب » تسيطر عليه قوة الاعتقاد ، وديناميه فى التفاعل بغير جمود أو انغلاق ، وتجانس فى البشر متواصل بتواصل حلقات الزمان، ووسطية فى السلوك ، تترجم معانى التسامح رغم التباين فى الأعراق والأنساب والمعتقدات ، فأنساق القيم والعادات والتقاليد ظلت راسخة رغم تعدد الغزوات ، ورغم التحول من دين إلى آخر ، ورغم تغير اللغة من هيروغليفية إلى قبطية إلى عربية .

وتمثل الهوية الثقافية المصرية قطباً له جاذبيته ، سواء فى العصور القديمة أم فى عصرنا الحالى .

وهذه الجاذبية القطبية هى التى منحت مصر قيمة « الدور التاريخى » عبر عصورها القديمة والحاضرة أيضاً ، فكانت –وما زالت – محركة للأحداث ومركزاً للعلم والحضارة يؤثر فى الأمم من حوله ، ومطمعاً للغزاة من الشمال والجنوب والشرق والغرب ، بيد أنها كانت – ومازالت – تملك خاصية الاحتواء والامتصاص والتمصير Egyptianizing لدرجة بلغ الولع لهذه الثقافة حد الهوس Egyptomania كما يقول «برنال » الذى يوضح فى كتابه « أثينا السوداء » : « إن الحضارة المصرية أصل

الحضارة الإغريقية ، وأن ٢٠ – ٢٥٪ من اللغة الإغريقية مستمدة من اللغة الهيروغليفية ، وأن هيرودوت هو أول من أعلن صراحة أن أصل السماء جميع الآلهة الإغريقية مصرى ، وأن الأساطير المصرية هى أصل الأساطير الإغريقية ، وأن الإسكندر نفسه ، وهو الفاتح العظيم جاء ليحج إلى معبد سيوة ، طالباً العون من كهنة أمون الذين لبوا دعوته ولقبوه « ابن الإله ») (ص ٤٠ – ٤٧) .

والهوية المصرية الثقافية متعددة الأبعاد ، ثرية المحتوى ، بما تملكه من لغة ودين وآداب وفنون رفيعة المستوى ، وتقدم معمارى وهندسى وفلكى ورياضى ، قد جعل من مصر قبلة لفلاسفة العصور القديمة ولا سيما اليونانيين .

يقول طه حسين (١٩٩٣) : « إن تبادل المنافع بين العقل المصرى والعقل اليونانى فى العصور القديمة قد كان شيئاً يشرف به اليونان ، ويمتدحون به فيما يكتبون من نثر . فمصر مذكورة أحسن الذكر فى شعر القصاص اليونانيين ، وهى مذكورة أحسن الذكر عند هيرودوت وممن جاء بعده من الكتاب والفلاسفة .

« وكان اليونان فى عصورهم الراقية ، كما كانوا فى عصورهم الأولى ، يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة وفى فنونها الرفيعة بنوع خاص » .

« ثم جاء التاريخ فلم يكذب شيئاً من هذا ولم يضعفه ، بل أيده وقواه ، فالتأثير المصرى فى فنون العمارة ، والنحت والتصوير عند اليونان شىء لا يجحد ولا يمارى فيه ، والتأثير المصرى تجاوز الفن الرفيع إلى أشياء أخرى تمس الفنون التطبيقية ، وتمس الحياة العملية اليومية وقد تمس السياسة أيضاً » (ص١٦) .

ولم تكن مصر قبلة للعلماء والمفكرين والفلاسفة فحسب ، بل كانت أيضاً قبلة للأنبياء ومسرحاً لعبور رسالات السماء ، فقد أتى إليها إبراهيم أبو الأنبياء ، وخرج منها ومعه هاجر المصرية ، زوجة له ، والتى ولدت له إسماعيل ، والذى من نسله محمد رسول الله ﷺ ومن بعد إبراهيم جاء يعقوب حفيد إسحق ، ثم يوسف بن يعقوب، ثم رجع إليها يعقوب وأبناؤه الأسباط ، وفيها ولد موسى عليه السلام واحتمى فيها المسيح عيسى عليه السلام ، ومنها تزوج محمد رسول الله ﷺ من السيدة مارية القبطية .

وكانت مصر استثناءً فريداً بين الأمم ، حيث ذكرت فى القرآن خمس مرات وفى أربعة مواضع ، وهذا الاستثناء هو أبلغ ما ظفر به موقع فى الأرض أو موطن

للناس أو بلد فى الدنيا * .

ويعبر جمال حمدان (١٩٨١) عن خاصية الاحتواء والتمصير ، مستشهداً بآراء الثقاة من المؤرخين أمثال جوستاف لوبون ، بيترى وشانتر « فى مواجهة الغزو الخارجى كانت مصر تمارس « الغزو من الداخل » ، بمعنى أنها كانت دائماً تتمتع بقوة امتصاص نادرة وحيوية بيولوچية تبتلع ، وتهضم بها معظم العناصر الوافدة حتى تصهرها – كأنها البوتقة – فى الجسم الكبير على حد تعبير جوستاف لو بون » .

وعلى حد تعبير شانتر ، فقد استطاع تراب وادى النيل بصفة خاصة أن يمتص كل الأنواع أو العناصر الأجنبية تقريباً . أو كما يصور بيترى « شعب مجد قوى ، يعتريه الضعف كل بضع مئات من السنين – طبيعة الأشياء – فتتعرض بلاده للغزاة من الجنوب والشرق ، فيتعرض هو لمؤثرات مختلفة ، ولكنه على الرغم منها ظل يحتفظ بطابعه وصفاته القومية وشخصيته البارزة المعالم » ص (٣١٧ – ٣١٨) .

ولعل من أبرز مقومات الهوية الثقافية المصرية استجابتها للتحدى ، فنهر النيل يمر بتسع دول إفريقية ، ولكن لم تستطع أى دولة من هذه الدول أن تبنى على ضفافه حضارة عظيمة ضاربة بجذورها فى عمق التاريخ ، مثلما فعل المصريون .

ويصور توينبى Toynbee (١٩٦٥) هذه الاستجابة لتحدى النهر بقوله « إن الاستجابة الخلاقة للتحدى هى فقط التى تنبت الحضارات والمدنيات ، وقد كانت الاستجابة الجماعية الخالقة لتحدى نهر عظيم مثل النيل ، هى التى خلقت المجتمع ، ومصر الحضارة . وإن نوعية التفاعل بين البشر وقوى الطبيعة ، وليس قوى الطبيعة وحدها ، هى التى ينبثق عنها المجتمع والحضارة ، فإذا كان النيل هو المسئول الوحيد عن صنع مصر وحضارتها ، لكان قد صنع حضارات أخرى متشابهة على امتداده الطويل ؛ ولكن هذا لم يحدث » (ص ٧٨) .

---

* يقول تعالى : (**وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتاً**) (سورة يونس – آية ٨٧) .

ويقول تعالى : (**وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه**) (سورة يوسف – آية ٢١).

ويقول تعالى : (**فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين**) (سورة يوسف – آية ٩٩) .

ويقول تعالى : (**ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى**) (سورة الزخرف – آية ٥١) .

ويقول (**اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتكم**) (البقرة – آية ٦١) .

وفى الإنجيل (**مبارك شعب مصر**)

وفى التوراة (**لا تكره مصرياً فقد كنت نزيلاً فى أرضه**) (سفر التثنية –الإصحاح ٢٣ – آية ٨)

وكان توينبى فى نظريته عن « التحدى والاستجابة » يرد بذلك على مقولة هيرودوت الشهيرة « إن مصر هبة النيل » ، والحق أنها هبة النيل والعقل المصرى معاً.

وتعيش الهوية المصرية فى عصرها الحالى تحديات يتمثل بعضها فى : تحدى الزمن كشىء نادر يمكن استثماره ، والكوكبية كمفهوم يهيمن على عصرنا ، وينذر بتلاشى الهويات الراسخة فى الهويات الغربية ، والتأصيل الديمقراطى ، والتنمية البشرية والاقتصادية ، والعنف والإرهاب .

ومما سبق ، يتضح أن الهوية الثقافية المصرية ثرية المحتوى ، متعددة الأبعاد ، قائمة فى الزمان متجددة منفتحة وغير منغلقة ، نسبية غير مطلقة ، وذلك سر تطورها وخلودها .

وما هذا البحث إلا محاولة تهدف إلى استجلاء بعض العوامل المعبرة عن البنية العاملية للهوية الثقافية المصرية فى عصرنا الحالى .

وهى محاولة ينبغى أن يصاحبها محاولات للكشف عن مكامن القوة فى هذه الهوية الفريدة فى نوعها .

تحديد المصطلحات :

أولاً : الهوية Identity :

الهوية مفهوم له دلالته اللغوية ، واستخداماته الفلسفية والاجتماعية والنفسية والثقافية ، فقد استخدم هذا المفهوم على أنحاء شتى للتدليل على الهوية الفردية ، وهوية الأنا ، والهوية الجماعية ، والهوية العرقية والهوية الثقافية .

ولفظ الهوية مشتق من أصل لاتينى ، ويعنى أن الشىء نفسه Sameness أو الشىء الذى هو ما هو عليه ، على نحو يجعله مبايناً لما يمكن أن يكون عليه شىء آخر.

ويؤصل مراد وهبه (١٩٧٩) معنى الهوية بالرجوع إلى اشتقاقات اللفظ فى اللغة العربية واللغات الأجنبية ، حيث يقول إن لفظ « الهوية » فى اللغة العربية مصدر صناعى مركب من « هو » ضمير الغائب المعرف بأداة التعريف « ال » ومن اللاحقة المتمثلة فى الـ « ى » المشددة وعلامة التأنيث وفى الفرنسية والإنجليزية واللاتينية يعنى لفظ « id-idem » ضمير الإشارة للغائب بمعنى ذاته ، ويستعمل هذا الضمير للدلالة أحياناً على الاختصار وعدم التكرار عند الإشارة إلى شىء محدد .

ويوضح الاستخدامات الفلسفية لهذا المصطلح فى التراث العربى فيقول « عرفها الجرجانى بأنه الأمر المتعقل من حيث امتيازه عن الاعتبار والهوية عند ابن رشد تقال بالترادف على المعنى الذى يطلق عليه اسم الموجود ، وعند الفارابى هوية الشيء عينه ، وتشخصه وخصوصية وجوده المتفرد الذى لا يقع فى إشراك .

وفى الغرب كان چورچ جروديك Grodeck أول من استخدم Id كمصطلح فى التحليل النفسى ليدل على أمر غير شخصى فى الطبيعة الإنسانية ، ويقوم « مبدأ الهوية» على أن الموجود هو ذاته ، أو هو ما هو عليه كما أن الهوية هى أيضاً : عبارة عن الشخص وقد تطلق على الوجود على الماهية مع التشخص ، وهى جهة ما هو واحد وفلسفة الهوية هى مصطلح يعنى عموماً كل نظرية لا تفرق بين المادة والروح ، ولا بين الذات وموضوعها ، وتنظر إليهما على أنهما وحدة لا تنفصل » (ص ٤٦٠ - ٤٦١) .

واشتقاقات لفظ الهوية فى اللغة الإنجليزية توضح إلى حد كبير ما ينطوى عليه لفظ « Identity » من معان ، فكلمة « identical » التماثل » تعنى - كما يقول دريفر فى معجمه - « الشيء نفسه أو المشابه من كل النواحى » (ص ٢٧) .

وقد استخدم هذا اللفظ فى إطار علم الوراثة لتوضيح التصنيف البيولوچى عند وصف التوائم المتماثلة من كافة الجوانب ، والتى تكون مغايرة عن غيره . أما لفظ identification فقد استخدمه بالينت Balint (١٩٤٥) بمعنى « التقمص » أو التوحد أو التطابق ، وفى التحليل النفسى يعرف التقمص بأنه : « العملية التى يسلك أحد الأفراد أو يتخيل نفسه فى حالة سلوك لا شعورى أو ببعض اللاشعور كما لو أنه الشخص الذى يوجد له ارتباط به » (دريفر ، ص ١٢٨) .

وينطوى « التقمص » أو « التوحد » فى التحليل النفسى على أنواع أربعة ، أولى، وثانوى ، وإسقاطى ، واستدماجى .. وهذه الأنواع تتدرج بتدرج مراحل النمو الإنسانى.

وعلى أية حال ، فإن هوية الشيء تعنى ماهيته essence ، أى جوهره ولبابه الذى يعبر عن حقيقته فى كل متفرد لا إشراك فيه .

وعلى المستوى النفسى يرجع الفضل إلى أريك أريكسون (١٩٥٠ ، ١٩٦٧) فى شيوع استخدام هذا المصطلح على نحو نفسى بوصفه « هوية أو ذاتية الفرد بحيث يكون للمرء باستمرار كيان متميز عن الآخرين » (ص ٣٨) .

وقد طور أريكسون هذا المفهوم ، وجعله مفهوماً مركزياً فى تصوراته النفسية ، فتحدث عن هوية الأنا ego identity وعرفه بأنها: « ذلك الشعور بالهوية الذى يهيىء القدرة على تجربة ذات المرء كشىء له استمراريته ، وكونه هو هو نفس الشىء نفسه، ثم التصرف تبعاً لذلك » (ص ٣٩) .

وأرجع أريكسون نمو الأنا إلى نمو الهوية ، واعتبر المراهقة مرحلة أزمة الهوية identity crisis ، ففيها تتقمم الصراعات وتبلغ حد الذروة . إما إلى تعيين الهوية ، حيث الثقة بالنفس وبالآخرين ، والشعور بالاستقلال والمبادأة ، وأن الحياة تستمد مقوماتها من الاجتهاد والمثابرة ، وإما إلى عدم تعيين الهوية identity diffusion حيث فقدان الثقة ، والشعور بالخزى والخجل والشك ، والعيش نهباً لمشاعر الذنب والدونية والعجز وبأن الحياة لا تؤخذ بالمبادأة ولا تمضى من خلال الثقة والاستقلالية.

ولعل التساؤل الرئيسى الذى يعايشه المراهق - كما يقول أريكسون - " Who am I" هو تساؤل ينطوى على بحث عن كينونته ، وعن معنى فريد للوجود وعن «هوية » تتمايز عن هوية الآخرين ، وفى استمرارية تجعل من الأنا هوية فريدة ومغايرة لهويات الآخرين .

وقد ركز أريكسون على العلاج النفسى بوصفه تحليلاً نفسيًا واجتماعياً لأزمات الهوية التى قد تتمثل فى : عدم تعيين الهوية ، انغلاق الهوية Identity foreclou-sure ، والتعليق النفسى والاجتماعى للهوية Pyschosocial moratorium.

وقد تأثر ميرشيا Mercia (١٩٦٦) بأوضاع الهوية الأربعة وصاغ استبيانه الشهير عن « تشتت الهوية » Identity confusion Inventory (١٩٦٦) .

وفى مفتتح كتاب « الهوية والقلق » يبين اشتين وفيدش ، Stein & Vidich (١٩٦٠) « أن كتابات فرانز كافكا ، وجيمس جويس Joyce . وصمويل بيكيت Beck-ett ، وسارتر وغيرهم كثيرون ، كانت فى صميمها عن تحديد هوية للإنسان ، وعن موقع اهتمام له فى صميم العالم » (ص ٢٥) .

والمتأمل لكتابات هؤلاء الأدباء والمفكرين والفلاسفة ، يتبين له بوضوح أن أفكارهم كانت تدور حول البحث عن كينونة وهوية متفردة للإنسان ، فى عصر هيمنت عليه أفكار قطعية ومذاهب فلسفية وأيديولوجيات كبرى حولت جميعاً الإنسان إلى كائن لا وزن له ولا معنى لوجوده إلى « موجود فى ذاته » كما يقول سارتر .. لاحول ولا معنى ولا هوية حقيقية له .

وعلى نحو أنطولوجى ، يتخذ فروم Fromm من الهوية تصوراً لتفسير مسيرة الإنسان الحضارية ، فيعرف الإنسان بوصفه « الحيوان الذى يستطيع أن يقول « أنا » ، والذى يستطيع أن يكون واعياً بذاته ككيان منفصل Entity عن الطبيعة ، فالحيوان موجود داخل الطبيعة لا يتجاوزها ، فليس له وعى بذاته ، وليست به حاجة إلى الإحساس بهويته ، أما الإنسان فهو مجاوز للطبيعة ، وهذا التجاوز مردود إلى تمتعه بالوعى والعقل والخيال ، ومن ثم فهو فى حاجة لتكوين مفهوم عن ذاته ، وبحاجة إلى أن يشعر وأن يقول « أنا أكون أنا » ؛ ولأنه فقد وحدته الأولية Original unity مع الطبيعة ، كان عليه أن يتخذ القرارات ، وأن يعى ذاته كشىء مباين عن الآخر ، وأن يكون قادراً على الإحساس بذاته كموضوع لأفعاله » (ص ٦٢) .

ويفرق بين الوجود الحيوانى والوجود الإنسانى من خلال الإحساس بالهوية فيقول : « إن الوجود الحيوانى قائم على « التناغم » Harmony مع الطبيعة ، فى حين أن الوجود الإنسانى قائم على التنافر مع الطبيعة ؛ الأمر الذى يفقده الانسجام الذى يتصف به الوجود الحيوانى » (ص ٦٣) ، وعنده ترتبط الحاجة إلى الهوية ، بالحاجة إلى الانتماء relatedness والتجذر rootedness والتسامى transcendence كالحاجة إلى الإحساس بالهوية ، حيوية وملازمة للإنسان .

ويؤكد إن إحساس الإنسان بهويته ينمو منذ خروجه من فلك « الروابط الأولية» التى تربطه بأمه وبالطبيعة ، فالطفل الذى لا يزال يشعر بتوحده مع أمه ، لا يستطيع إطلاقاً أن يقول « أنا » فليس به حاجة إلى أن يقول ذلك ، وهو لا يستطيع أن يعى ذاته، إلا بعد أن يعى أن العالم الخارجى منفصل ومختلف عنه ، ومن الكلمات التى يتعلم الطفل استعمالها متأخراً كلمة « أنا » مشيراً إلى نفسه .

ويؤكد فروم أن « مشكلة الإحساس بالهوية تنبثق من ظروف الوجود الإنسانى نفسه ، وهى مصدر أقوى وأعمق ما يبذله الإنسان من نضال فى حياته » (ص ٦٤) .

ورغم شيوع استخدام مفهوم الهوية وفقاً لتصورات أريكسون عنه فى الدراسات النفسية ، إلا أن حقبة الثمانينيات ولا سيما بعد سقوط حائط برلين ١٩٨٩ ، قد شهدت تطوراً فى استخدام مفهوم الهوية بربطها بالتصورات العرقية والسلالية والقومية والثقافية ، لدرجة تقلصت معها الدراسات التى تتخذ من مفاهيم أريكسون موضوعاً لها عن هوية الأنا ، وعدم تعيين الهوية ، وأزمات الهوية وانغلاقها ، وتعلقيها اجتماعياً ونفسياً .

ودليل ذلك أن برنامجاً على الإنترنت (Psyclit) قد عرض ١٠٤٣ دراسة فى

سنتى (٩٦ – ١٩٩٨) عن الهوية الثقافية العربية ، والمجتمعات المتعددة الهويات والثقافات .. إلخ ، ولم يعرض لدراسة واحدة عن هوية الأنا أو أزمات الهوية على النحو الفردى .

وهذه الكثرة من البحوث دليل على تجاوز الباحثين لمفهوم الهوية بالمعنى الفردى ، وإلى الهوية بالمعنى القومى والثقافى ، وذلك الذى يمثل القاسم المشترك أو الرمز الذى يلتف حوله جماهير الأمة أو الشعب ، فى كل لا اشتراك فيه .. ميادين لغيره من الأمم والشعوب ، فى عصر تهيمن عليه مفاهيم الكوكبية والكونية والدعوة إلى انصهار الهويات الإقليمية فى هوية عالمية واحدة .

والهوية بالمعنى القومى أو الثقافى ، لا يولد الإنسان وهو مزود بها ، بل يكتسبها ولهذا يعرّف بسام طيبى الهوية بأنها: « مفهوم اجتماعى – نفسى يشير إلى كيفية إدراك شعب ما لذاته وكيفية تمايزه عن الآخرين ، وهى تستند إلى مسلمات ثقافية عامة ، مرتبطة تاريخياً بقيمة اجتماعية وسياسية واقتصادية لمجتمع » .

ومن هذه الزاوية فالهوية الثقافية « نسبية غير مطلقة » قائمة فى الزمان ، غير خارجة عن نسيجه » وأية ثقافة هى قبل كل شىء استثمار متميز للزمان » (بو غالى ١٣٧) ذلك أن الزمان شىء نادر يمكن استثماره ، قد تتصف بالجمود ، وقد تصف بالحيوية والقدرة على التعايش مع متطلبات العصر ومتغيراته .

وهنا يثور سؤال :

ما الثقافة ؟

ثانياً : الثقافة Culture :

الثقافة من أكثر الكلمات استخداما ، ومن أشدها غموضاً ، وقد يرجع هذا الغموض إلى تعدد معانى الثقافة وتباينها فى كثير من الأحيان .

بيد أن الأمر الذى لا ريب فيه أن لكل مجتمع ثقافة تميزه وتبلور معتقداته وقيمه ومبادئه وعلاقاته الاجتماعية وأنماط سلوكه وتحيزاته الأيديولوجية .

وقد تتشابه بعض المجتمعات فى بعض أشكال الثقافة وأنماط السلوك ، غير أنها تتباين عند فحص الخصوصيات المميزة لهذه الثقافة .

ولعل فى الكشف عن منابت كلمة « ثقافة » فى استخداماتها اللغوية ، ما يعين على استجلاء القصد منها ، فكلمة « ثقافة » من ثَقِفَ ثَقْفاً ، بمعنى صار حاذقاً فطنا .

أما ثقف الشيء ، فمعناه أقام المعوج منه وسواه ، وثقف الإنسان ، أدبه وهذبه وعلمه، ومن ثم فإن الثقافة هى العلوم والمعارف والفنون التى يطلب الحذق فيها ، واشتقت كلمة Cultura اللاتينية ومشتقاتها فى اللغات الأوربية الحديثة من الفعل اللاتينى Colo era ui cultum وهى تعنى فى الأصل الفلاحة Agriculture والعبادة Cults .

وهذان المعنيان من أصل كلمة ثقافة ليسا متناقضين أو متباعدين ، بل هما فى الواقع يمثلان الركنين الأساسيين لمعنى الثقافة ، ففلاحة الأرض تعنى العناية بها ، وتهذيب تربتها ، وتشذيب أشجارها ورعاية براعمها ، وعلى الجانب الآخر تنهض الثقافة بمهمة صقل العقل ، وتهذيب النفس وتنمية الأخلاق والتنوير ، وشحذ الطاقات الخالقة على الإبداع » ، وذلك هو المعنى الوارد فى معجم ويبستير Webster ، ١٩٦٥ (ص ٢٠٢) .

وتتضمن الثقافة سواء فى أصولها اللغوية العربية وفى اللغات الأخرى مجموعة من القيم ، يتمثل بعضها فى الإيمان ، والطهارة ، والجمال ، والفطنة والتقدم ، والإتقان ، فدون هذه القيم لا يمكن للإنسان أن يفلح فى زراعة الأرض أو العبادة بشعائرها وأماكنها .

ومن هذه الاشتقاقات اللغوية تقف الثقافة عند المستوى الرفيع من التكوين الإنسانى ، من حيث هى صقل للذهن وتهذيب للسلوك وتنمية أخلاقية وروحية له ، أو بأنها ما ينتجه العقل أو الخيال الإنسانى ، وكون وظيفتها إعداد وتهذيب وصقل للروح والعقل معاً .

وهذا المعنى من معانى الثقافة يتصف به الآحاد من الناس الذين يمثلون النخبة الممتازة ، أو القاطرة التى عليها أن تجر بقية العربات إلى أقصى حد ، سموا بالتكوين العقلى والروحى والأخلاقى للإنسان ، ذلك الذى يتمثل فى إبداعاته الخلاقة ، وإشراقاته الروحية ، وصروحه العلمية التفسيرية .

وتظل هذه الجوانب المضيئة قائمة بشخوص مبدعيها ، مرتبطة بهم ارتباطاً عضوياً بغير افتراق .

والوجه الآخر للثقافة يتمثل فى الجانب الاجتماعى ، والذى يتضح من تعريف تيلور Taylor (١٨٧٠) ، وهو تعريف شائع على المستوى الاجتماعى ، وينص على أن الثقافة « ذلك الكل المركب الذى يتضمن المعرفة والاعتقاد والفن والقانون والأخلاق والعرف وأية قدرات أو عادات ، يكتسبها الفرد بوصفه عضواً فى المجتمع » (ص٤٦) .

وعلى هذا المنحى قدم بيرستند تعريفه للثقافة باعتبارها « ذلك الكل المركب الذى يتألف من كل ما نفكر فيه ، أو ننهض بعمله أو نملكه كأعضاء فى المجتمع » (ص٢٥) .

وعلى نحو أكثر توضيحاً لعناصر الثقافة فى تكوين الأمة ، يرى (جوكالب) أن العنصر الرابط فى كل أمة هو الدين ، ومن جهة أخرى .. فإن العناصر الموحدة للأمة هى اللغة والأخلاق والقوانين والمؤسسات الاقتصادية والعلوم والفلسفة والتكنولوجية ، وهذه المجالات فى كل أمة لابد وأن تكون متسقة وموحدة ، وكلها يطلق عليها لفظ ثقافة (ص ٢٢٢ - ٢٢٤) .

ويركز جوكالب على اللغة بوصفها جوهر الحياة الاجتماعية فى جميع أنحائها ، شأنها فى ذلك شأن الدين والأخلاق والسياسة والاقتصاد والعلم والفنون الجميلة .

وعلى الرغم من عمومية تعريف جوكالب للثقافة وما تنطوى عليه من عناصر ، إلا أنه أغفل الثوابت الجغرافية والمتغيرات التاريخية ، التى تمثل فى تفاعلها مع المكان بوتقة الانصهار لكافة عناصر الثقافة الأخرى فى تميز فريد لا إشراك فيه .

ويقترب من هذه التعريفات تعريف معجم اكسفورد (١٩٨٢) للثقافة بأنها «الاتجاهات والقيم السائدة فى مجتمع معين ، كما تنعكس فى الرموز اللغوية والأساطير وأساليب الحياة ومؤسسات المجتمع التعليمية والدينية والسياسية » (ص ٢٣١) .

وهذا الجانب الاجتماعى من الثقافة يمثل نقطة البدء فى حياة الإنسان الواعية، والتى يكتسبها الإنسان بما تنطوى عليه من قيم وأساليب حياة ولغة ورموز وعادات وعرف ، بفضل وجوده داخل المجتمع ، بفعل التنشئة الاجتماعية والتعلم .

وينعكس هذا الكل المركب من المكونات الفريدة لثقافة المجتمع فى سلوكه ، وفى حركته ووجوده وتحيزاته الأيديولوچية وعلاقاته الاجتماعية .

الثقافة - إذاً - هى ذلك الائتلاف الفريد من كل ما هو روحى سامٍ مجاوز للواقع ، ومن كل ما هو مادى لصيق بالأرض وبمعترك الحياة .

الثقافة هى اللغة بوصفها وجداناً يعبر عن مشاعر وآمال ورؤى شعب ، وبوصفها أداة للتفكير والتواصل .

الثقافة هى الكلمة Logos وبالكلمة أصبح الإنسان إنساناً ، والثقافة ثقافة ! الثقافة هى تلك المكونات الفريدة التى تميز شعباً وأمة عن غيرها من الأمم . الثقافة كائن حى اجتماعى نامٍ ومتطور ، لا يعرف الجمود ، ولا يحيا بغير سند من «موروثات

تراكمت عبر العصور ، ، متمتعاً بتلك القابلية للتطور والنماء مع حركة وإيقاع العصر ولا سيما للشعوب التى تتسم بالحيوية والديناميةوالعراقة التاريخية.

الثقافة نواة الشخصية بالنسبة للفرد والأمة ، فهى التى تحرك الإنسان فى الحقل وفى المصنع والمدرسة والجامعة والمسجد والكنيسة ، وهى التى تتحكم فى حركة الحياة فى الشارع والأسواق .. بتقدم الثقافة تستقيم الحياة على المستوى الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، وبالتعمق الثقافى ترقى الآداب والفنون والعلوم والذوق العام.

الثقافة أرض ووطن وكيان له ، ثوابته الجغرافية ، ، و ، متغيراته التاريخية ، .

ومن جميع ما سبق نستخلص بعض الأسس التى يمكن أن يستند إليها تعريف ،الهوية الثقافية المصرية ، وما تنطوى عليه من عوامل :

أولاً : إن تعريفات الهوية والثقافة ، سواء فى أصولهما اللغوية أم المعجمية تكاد تكون نقطة التقاء بين الشرق والغرب .

ثانياً : إن الهوية هى ماهية الشىء essence أى جوهره الذى يعبر عن حقيقته فى كل منفرد لا إشراك فيه .

ثالثاً : إن هوية الشىء تتحدد بالصفة التى تنعت عليه ، بحيث تصبح الصفة والموصوف كلاً واحداً ، يدل معناه عن شىء كلى ، يميزه عن غيره من الأكلال .

رابعاً : ومن جماع (٢ ، ٣) فإن الهوية تعنى مجموعة الصفات الجوهرية والثابتة فى الأشياء والأحياء ، فللمكان هويته الخاصة ، كما للإنسان هويته المتفردة عن غيره من الناس ، ومن ثم فإن الثوابت الجغرافية ، والمتغيرات التاريخية ، والموروثات الثقافية ، عناصر مكونة للهوية .

خامساً : إن للهوية الثقافية هى الرمز أو القاسم المشترك ، أو النمط الراسخ Stereo-type الذى يميز فرداً أو مجموعة من الأفراد أو شعباً من الشعوب عن غيره.

ومن خلال هذه الأسس يمكن تحديد الهوية الثقافية المصرية بأنها : هوية ثقافية متفردة ، شكلتها ، ثوابت جغرافية ، ، ومتغيرات تاريخية ، وتراث ثقافى تراكم عبر السنين ، ووسطية فى السلوك والاعتقاد ، ووجود زمنى يتصف بالحيوية والقدرة على التجدد ، . ويعبر عن هذا التعريف عدد من العوامل التى قد تتمثل فى :

١ – المصرية ٢– الانتماء ٣ – السلام

٤ – التسامح ٥ – العنف

دراسات سابقة عن الهوية :

إن موضوع الهوية محورى فى الدراسات النفسية والاجتماعية والسياسية والثقافية ، ويمكن تقسيم الدراسات التى تتصل بهذا الموضوع إلى قسمين : ما قبل سقوط حائط برلين ، وما بعد سقوطه .

ما قبل سقوط حائط برلين ، كانت الدراسات الثقافية تدور – إلى حدٍّ كبير – حول الهوية من حيث أبعادها ومكوناتها النفسية ، وقوتها وضعفها ، وما يرتبط بها من متغيرات لدى الفرد والجماعة التى ينتمى إليها . وبعد سقوط حائط برلين ، بدا واضحاً أن عالماً جديداً يتشكل ، تهيمن عليه مفاهيم الكوكبية والكونية والاعتماد المتبادل والإبداع لمن أراد أن يكون له موقع متميز فى صميم العالم .

وهنا بدأت الدراسات النفسية ، والتى تتخذ من الهوية موضوعاً لها ، تدور حول الهوية العرقية والهوية العنصرية ، والمجتمعات المتعددة الهويات والعرقيات والثقافات، وكيفية انصهار الهويات الثقافية الإقليمية فى هوية ثقافية واحدة ، ذات طابع كوكبى .

وانتقل الصراع الماهوى من داخل الذات إلى خارجها ، ومن الأنا إلى الآخر ، ومن الهوية من حيث الضعف أو القوة الفردية إلى الصراع الثقافى .

وقد يرجع ذلك إلى انهيار الأبنية الأيديولوچية الكبرى ، التى كانت تبلغ بالأيديولوچية حد المعتقد والمقدس ، والتى كانت تملك خاصية الاحتواء والاستقطاب الأيديولوچى لما عداها من هويات ثقافية . فبعد أفول الأيديولوچية – الماركسية وانهيارها بتفكك الاتحاد السوفيتى وسقوط حائط برلين ، واندلاع الثورة فى دول شرق ووسط أوربا مطالبة بالحرية والديمقراطية والتحول الاقتصادى ، أصبح لزاماً على إنسان هذه الحقبة أن يعود باحثاً عن هويته الثقافية وهويته العرقية وعن أبعاد التميز الثقافى ومحاولة تحديده .

وفى محاولته هذه ، تفجرت صراعات شتى فى أنحاء العالم ، فى البوسنة والهرسك وكوسوفا ورواندا والشيشان وغيرها من بلدان العالم ، ففى عام واحد ، وهو عام ١٩٩٣ تفجر ما يقرب من ٤٨ حربا عرقية فى العالم ، ١٦٤ شكوى وصراعاً عرقيا على الحدود فى الاتحاد السوفيتى السابق ، كان من بينها ثلاثين حرباً تضمنت شكلاً من أشكال الصراع المسلح » (هنتنجتون ، ١٩٩٤ ، ١٤٠) .

وهنا بدأت الكتابات على نحو غير مسبوق تتعرض لموضوع الهوية ، فكتب هنتنجتون عن الصراع الثقافى وعن صدام الحضارات ، وكتب فوكوياما عن ضرورة انصهار الثقافات المحلية والإقليمية فى ثقافة العالم الغربى حيث الديمقراطية الليبرالية .

ويتخذ أوزيرمان وساكاموتو ، Oyserman & Sakamoto ، (١٩٩٧) من الولايات المتحدة نموذجاً للمجتمع الذى يعيش فى ظل تعدد ثقافى وعرقى منصهر فى بوتقة واحدة بقوله أمريكا مجتمع « متعدد الثقافات ، متعدد العرقيات ، بيد أنه مجتمع واحد » (ص٤٣٥) .

ويحذر فيلبس جيرى Jerry (١٩٩٧) فى كتابه « مصير الأرض The fate of The Earth » من وهم التمسك بالهوية الثقافية ، مؤكداً أن « مصير الأرض مرتبط بتجاوز وهم الهوية الثقافية » (ص ١٨) .

ويؤكد بيرجر وآخرون « أن الهوية الحديثة منفتحة وعابرة ومتغيرة على الدوام» (ص٣٤) ، وهذا لا يعنى أن تفجر الصراعات الثقافية كان شيئاً « غائباً » بل كان كامناً ومتحفزاً للانطلاق ، ولعل هذا ما يفسر هذه الصراعات المتفجرة فى أنحاء شتى من العالم ، ويفسر أيضاً تلك الكثرة من البحوث والدراسات التى تناولت الهوية الثقافية والعرقية .

وهنا تثور عدة أسئلة :

* هل تفجر صراعات الهوية الثقافية راجع إلى الخوف من طبيعة العصر الحالى؟
* وهل الهويات الثقافية مكونات راسخة تستعصى على الانصهار فى بوتقة عالمية واحدة ذات توجه كوكبى منفرد ؟
* وهل القول بهوية ثقافية عالمية احتوائية ضد طبيعة الإنسان ككائن متفرد ومباين ، وأن تفرده وتباينه هما سر تقدمه ، وأن تقدمه قائم على حوار التباينات الثقافية وليس الصدام بينها ؟
* وهل ما مزقته الأيديولوچية ، تجمعه اليوم الهوية الثقافية ، وما استقطبته الأيديولوچية تمزقه الآن الثقافة كما هو الحال فى « الألمانيتين » ودول الاتحاد السوفيتى السابق ؟
* وهل التطور والتفجر المعرفى المتواصل والذى يتجاوز كل قدرة على التنبؤ بما هو قادم ، يلزم عنه تطوراً موازياً فى هويات الأمم والشعوب ، أو كما

يقول نوفلر (١٩٧٤) حينما تتغير الأشياء من حولك فإن تغيرا موازياً يحدث فى داخلك ،؟ (ص٣٦).

وتحاول الدراسات التالية الإجابة عن بعض هذه التساؤلات : وهى تنقسم إلى قسمين ، قسم خاص بالهوية الثقافية ، والآخر خاص بالهوية من حيث القوة والضعف، وما يرتبط بها من متغيرات وما تنطوى عليه من خصائص . وفيما يلى عرض لأهم هذه الدراسات :

قام أوزيرمان وساكوموتو Oyserman & Sakamoto (١٩٩٧) بمحاولة لاستجلاء نوعية التفاعل بين التوجهات الفردية والجماعية والهوية العرقية Ethnic والمعتقدات الخاصة بالنمط الثقافى Stereotype لدى الآسيو أمريكان .

وقد افترض الباحثان أن للهوية الآسيو أمريكية أربعة مكونات :

الأول : يكمن فى مشاعر الاعتماد المتبادل Interdependence بين الفرد وأسرته.

والثانى : يكمن فى الإحساس بالانتماء إلى التقاليد والموروثات الثقافية الآسيوية.

والثالث : يكمن فى الاعتقاد بأن كل إنجاز يحققه الفرد ينعكس بالضرورة على أسرته بصفة خاصة وجماعته ، التى ينتمى إليها بصفة عامة .

والرابع : يكمن فى الوعى بالحدود العنصرية التى تفصل الآسيوى عن الآخرين، وتؤكد اشتراكه مع جماعته فى مصير مشترك واحد .

وفى محاولتهما للتحقق من صحة هذه الفروض ، استخدم الباحثان مجموعة المقاييس على عينة قوامها ١٦٢ آسيو أمريكيا (٨٥ إناثاً ، ٧٥ ذكوراً) ، ينتمون جميعاً إلى شرق وجنوب آسيا (هونج كونج ، الصين ، كوريا ، وفيتنام ، واليابان) واستبعدا من العينة أى آسيوى لا ينتمى إلى هذه البلدان مثل الهند أو باكستان ، وتشكلت عينة الدراسة من ثلاث مجموعات : الأولى ٣٣,٣ ٪ من الصينيين ، و٣٥,٨ من اليابانيين والفلبينيين والفيتناميين والتيوانيين ، و٢٨,٤ ٪ من الكوريين .

واستخدما مجموعة من المقاييس تتمثل فى :

مقياس الهوية الآسيو أمريكية ASAMID *:

وهو من إعداد (Oyserman ، ١٩٩٥) وقد أُعيدت صياغة عباراته لتلائم عينة البحث ، وأخضع للتحليل العاملى ، فأسفر عن أربعة عوامل :

* The Asian American Idenitiy Scale

* قوة الترابط ، التواصل ، Connectedness .
* الاهتمام الأسرى Family focus .
* الإنجاز القائم على الاعتماد المتبادل Interdependent achievement .
* الوعى بالنزعة العنصرية Awareness of Racism .

ثم طبق الباحثان مجموعة أخرى من المقاييس ، تتمثل فى :

* أخلاق العمل Work ethic ، إعداد Katz and Hass, (1988) .
* الفردية Individualism إعداد Oyserman (١٩٩٣) .
* النزعة الجماعية Collectivism إعداد Oyserman (١٩٩٣) .
* تقدير الذات الجمعى Collective Self - Esteem (CSE) إعداد Luthanen and Crocker (1992)
* العنصر والعرق كحدود للنجاح Race / Ethnicity as Barrier to Success إعداد الباحثين .
* نموذج الأقلية Stereotype and Model Minority
* النمطيات والاستراتيجيات Stereotypes and Strategies

للتعبير عن السلوك المفعم بالانفعال ، والذى يبلغ حد التعصب لسلالة معينة أو توجه عرقى بذاته .

وقد أسفرت النتائج عن أن الطلبة الآسيو أمريكان يتصفون بروح جماعية التوجه ، وأن الروح الجماعية لديهم أشد من الروح الفردية ، وأن الفردية والجماعية مستقلتان وغير مرتبطتين .

وأن ثمة ارتباطاً موجباً بين النزعة الجماعية COL وتقدير الذات الاجتماعى CES ، وأن الفردية IND ترتبط بتقدير الذات الجماعى CES ، وأن النزعة الجماعية ترتبط ارتباطاً قوياً بالنزعة العرقية والإحساس بالتمييز العنصرى وجميعها مكونات مميزة للهوية الآسيو أمريكية ، التى تشكل منظومة موحدة من التوجه والسلوك والاعتماد ، تتكون من ذلك الانتماء الذى يبلغ حد الافتخار Pride Heritage بالموروث الثقافى الأسيوى ، والارتباط الأسرى البالغ الحميمية ، والإنجاز القائم على الاعتماد المتبادل ، والوعى بالتميز العنصرى الذى يميز الآسيو أمريكان عن غيره من الأجناس والسلالات .

وأسفرت النتائج عن ارتباط بين النزعة الفردية والجماعية (٠,٠١) غير أنها لم تسفر عن ارتباط النزعة الفردية بمكونات الهوية الآسيو أمريكية .

وثمة نتيجة أخرى محورية أسفر عنها البحث ، وهى أن هناك ارتباطاً دالاً بين أخلاق العمل والنزعة الجماعية على كافة الأنحاء (عند مستوى دلالة ٠,٠٥) وقد بلغ (٠,٠١) مع مكونات الهوية الآسيو أمريكية ، بيد أنه لم يكن دالاً بين أخلاق العمل والنزعة الفردية ، وتقدير الذات الجماعى ، وأن ثمة ارتباطاً دالاً بين الإنجاز القائم على الاعتماد المتبادل ، والإحساس بالهوية العرقية والارتباط الأسرى وغيرهما من مكونات الهوية الآسيو أمريكية .

وهذه النتائج تعنى أولاً أن هناك نمطاً راسخ التكوين ، شكلته عوامل ثقافية وعرقية وسلالية ، منحت الهوية الآسيو أمريكية طابعها الفريد والمتميز ، كهوية ثقافية وعرقية ضاربة بجذورها فى عمق التاريخ ، استمدت مقوماتها من حضارة صينية رائدة ، وأن المكونات الأصيلة لهذه الهوية تتسم بثبات بلغ حد الرسوخ Stereotype مفعم بتمركز عرقى وسلالى وقيمى ، يجعل من الأسرة معنى مرجعيًا ، ومن النزعة الجماعية وروح الفريق قيمة قصوى فى العمل ، وأن تحقيق الفردية لا يتم إلا فى إطار الجماعية حتى يبلغ الفرد إلى تقدير الذات ، ليس على المستوى الفردى فحسب ، بل على المستوى الجماعى أيضاً ، وأن الارتباط بالموروث والالتزام القيمى بالتقاليد هما دافعان للتقدم وللحفاظ على الهوية .

وثانياً: إن العينة التى اختارها الباحثان دليل وعى منهما على أن للتقدم معطياته الثقافية ، فأفراد العينة ينتمون إلى حضارة صينية ، لها ثوابتها الجغرافية ومتغيراتها التاريخية ، وتراثها الفكرى والحضارى المتميز فى العالم القديم ، واليوم حققت مجتمعات عينة الدراسة وثبات كيفية فى عالم الاقتصاد والمعرفة والاستخدام الرفيع المستوى للتكنولوجيا المعاصرة ، وإنتاجها وتسويقها ، لدرجة أصبحت هذه المجتمعات المنافس الحقيقى للعالم الغربى، بل تجاوزت الغرب فى كثير من المجالات.

ثم إن وعى الفرد بأنه يعمل فى إطار من الجماعية يجعله يشعر بأنه مسئول وملتزم ومدفوع بقوة دفع إلى الأمام ، متى تمسك بهويته الثقافية فى إطار من معطيات عصره التكنولوجية والمعرفية والثقافية أيضاً .

وتتفق نتائج دراسة روثرمان Rotherman وآخرون (١٩٩٨) مع دراسة Oy-serman وآخر (١٩٩٧) فى الاعتزاز بالهوية الثقافية والعرقية لدى الآسيويين ، واتخاذهم الأسرة كجماعة مرجعية وتمركزهم حول التقاليد والتمسك بها ، من خلال

دراسة أوزيرمان وآخرين عن الفروق النمائية والعرقية والجنسية Gender من حيث الذكورة والأنوثة ، لدى مجموعة من المراهقين (ن : ٣٢٥) ، تشكلت من خمس مجموعات عرقية متباينة تتمثل فى : الأفرو أمريكان ، والبريطانيين ، والفلبينيين ، ومجموعتين من أمريكا اللاتينية .

وصمم الباحثون مقياساً لقياس الهوية العرقية ، يحتوى على أبعاد تتمثل فى :

١ – الاعتزاز العرقى Ethnic pride .

٢ – الجماعة المرجعية .

٣ – التقولب داخل الجماعات العرقية Stereotyping of ethnic groups .

٤ – القيم والتوقعات الاجتماعية .

وقد كشفت النتائج أن ثمة (انفصالاً) أو استقلالاً بين أبعاد الهوية العرقية ، ولاتوجد ارتباطات دالة بين مكونات الهوية العرقية ، بيد أن النتائج كشفت عن وجود ارتباط بين بنية الهوية العرقية كعامل عام وبقية العوامل ، وكانت هذه النتائج متشابهة لدى الجنسين فى المراحل الدراسية (١١ – ١٦) ، غير أنها كانت منخفضة لدى المراحل (٩ – ١٠) .

وأظهرت النتائج أن الإناث أشد تمسكاً بالمعايير القيمية للجماعة العرقية عن الذكور .

وفى بحثهم عن المتغيرات النفسية كمنبئات لإدراك التميز العرقى لدى الأقليات والمهاجرين من المراهقين ، أوضح فينى Phinney (١٩٩٨) وآخرون ، أن التميز العرقى قضية مركبة تستعصى على التحديد موضوعياً فى أمريكا ، وهذا مردود إلى أن جزءاً من تعريفها يخضع لنوايا intentions الأفراد ، ومن ثم فإن إدراك التمييز العرقى يتأثر بنوايا الآخرين ، ونظرتهم التى تفتقر إلى الموضوعية إلى هذه الجماعات والموصومة بخصائص خاصة بهم Stigmatized group تنطوى على خصائص عرقية مثل لون الجلد وطول القامة ، وملامح فيزيقية أخرى مميزة ولغة مباينة ، وسمات ثقافية مغايرة للسمات الثقافية للأغلبية الأمريكية .

ويستهل الباحثون دراستهم بتأكيد أن التمييز العرقى ظاهرة موثقة تماماً فى أمريكا ، وتأتى نتيجة ملازمة للكثرة من البحوث الاجتماعية والنفسية التى أكدت نتائجها تدنيًا فى الرواتب ونقصاً فى الوظائف التى توفر لهذه الأقليات ، وعلى المستوى النفسى ، ثمة مؤثرات سلبية يحدثها التمييز العرقى تمثل ضغطاً نفسيًا فى مجرى حياة هذه الجماعات بخاصة ما يتصل بأدائهم ودافعيتهم للإنجاز .

ولمعرفة المتغيرات النفسية التى تؤثر فى إدراك التميز العرقى لدى عينة قوامها ١٦٤ مراهقاً (٦٠ ذكوراً ، ١٠٤ إناث) ، وتوزعت العينة على النحو التالى : ٥٩ مكسيكو أمريكياً ، ٥٥ فيتنامياً ، ٥٠ أرمينياً ، ٦٧ من أفراد العينة ولدوا فى أمريكا من آباء مهاجرين ، ٨٨ مكسيكو أمريكيا ولدوا فى الولايات المتحدة ، وتتراوح أعمار أفراد العينة (١٤ – ١٩ عاماً) ، (م : ١٦,١ – انحراف معيارى ١,٢) .

واستخدم الباحثون بطارية من الاختبارات ، تمثلت فى :

* إدراك التميز العرقى (Perceived Discrimination (PD إعداد الباحثين.

* قياس الهيمنة Mastery Scale .

* الاكتئاب / القلق : إعداد Beiser & Fleming.

* الكفاية بين الجماعات Intergroup competence .

* الهوية العرقية Ethnic identity .

* إضافة إلى المتغيرات الديموجرافية الخاصة بعينة الدراسة .

وأسفرت النتائج على أن هناك علاقة دالة بين الإدراك الحسى للتمييز العرقى وتقدير الذات ، والقدرة على التحكم فى الذات ، والكفاية بين الجماعات والاكتئاب والقلق.

بمعنى أنه كلما ارتفع حدة الشعور بالقلق ، تضاءلت قدرة الفرد على التحكم فى ذاته وقل تقدير ملذاته ، وأضحى أشد إدراكاً للتمييز العرقى ، الأمر الذى يدفعه إلى التقوقع داخل ذاته ، ومن ثم العيش فى كنف عزلة نفسية واجتماعية تترجم ما يعانيه من اكتئاب وإحساس ضاغط بالتمييز العرقى .

وأكدت النتائج أن العلاقة بين إدراك التمييز العرقى ، وتقدير الذات علاقة عكسية ، فكلما ارتفع نصيب الفرد من الثقة فى نفسه وفى قدراته بلغ الإحساس بتقدير الذات ، ومن ثم لا يخبر التمييز العرقى بينه وبين الآخرين .

وقد استخدم الباحثون تحليل الانحدار المتعدد للتنبؤ بما قد يسفر عنه إدراك التمييز العرقى من متغيرات نفسية (تقدير الذات ، الهوية العرقية ، القلق ، والاكتئاب . والهيمنة والكفاية الاجتماعية) ، وأسفرت نتائج تحليل الانحدار عن أن المراهقين الأشد قلقاً واكتئاباً هم أكثر أفراد العينة شعوراً بالتمييز العرقى وأن الذين يحققون تفاعلاً إيجابياً بين أفراد الجماعة أقل شعوراً بالتمييز العرقى ، وأن المتغيرات الديموجرافية ليست لها أى قيمة تنبئوية .

ويؤخذ على هذه الدراسة استخدامها لفظ Stigmatized groups لوصف بعض الأقليات العرقية داخل أمريكا لسببين :

الأول : إن استخدامها هذا اللفظ ينطوى على تحقير لهذه الجماعات ؛ لأنه يوصمها بخصائص بدنية وفيزيقية كطول القامة ولون الجلد واختلاف اللغة للتمييز بينها وبين الجماعات غير الموصومة بهذه الخصائص البدنية ، والتى يسميها Non stigmatized باعتبارها تمثل الأغلبية .

الثانى : إن التحقير الذى ينطوى عليه استخدام هذا اللفظ وقف بالباحثين عن حدود الملامح الجسمية والخصائص النفسية ، ولم يتجاوزهما إلى التأكيد على الإمكانة والقدرة والطاقة الإبداعية .

ثم إن هذه التباينات التى يصفها الباحثون بأنها Stigmatized إنما هى تباينات شكلتها عوامل جغرافية وطبيعية لبلدان تتصف بالقدم فى التاريخ القديم – وهذه معان لا تعرفها أمريكا التى ليس لها تراث مركب ، ولا تسيطر عليها أية أساطير عرقية أو مفاهيم دينية قديمة ، ذات امتداد زمنى .

وفى دراسة عن السكان الأصليين لأمريكا Indigenous فى مجتمع تصفه Weaver (١٩٩٨) بأنه مجتمع متعدد الثقافات وفريد فى نوعه ، وتوضح الباحثة أن السكان الأصليين فى أمريكا يختلف تاريخهم وثقافتهم عن تاريخ المهاجرين إلى الولايات المتحدة ، فهم أبناء شرعيون لهذا المجتمع ، ونبت طبيعى لهذا المجتمع ، وأن الحكومة الأمريكية تضع ضمن أولياتها الحفاظ على ذاتية هؤلاء السكان وحمايتهم ، رغم العزلة والانفصال عن المجتمع .

وتؤكد أن كثيرين من هؤلاء السكان يجهلون أن الحكومة الفيدرالية تمنح هؤلاء السكان حقوقاً شرعية ، وتحدد مسئوليات إزاء هؤلاء السكان صحياً وإنسانياً .

وأن المشكلة المحورية لهؤلاء السكان – كما تقول الكاتبة – أنهم يشعرون بهويتهم الثقافية ، وبأنهم يعيشون صدمة تاريخية Historical trauma وأن لهم طموحات فى دولة ذات سيادة Sovereignty .

وتتجلى الهوية الثقافية للسكان الأصليين فى أنساق القيم والعادات والرموز المعتقدات ، التى تعبر عن تراث ثقافى متراكم عبر العصور مازال يعيش معهم حتى اليوم .. وهذا سر عزلتهم المطبقة وعزوفهم عن الاندماج فى المجتمع الأمريكى .

ولعل فى الدراسة التى قام بها Dijk وآخرون (١٩٩٧) ما يوضح الاعتزاز

بالجذور العرقية والجنسية والثقافية للأفروأمريكيين ، وهم من جذور أفريقية تمّ شحنهم إلى الولايات المتحدة وظلوا حتى أوائل الستينيات من هذا القرن يعانون من التفرقة العنصرية ، التى خلقت لديهم ما يشبه الجيتو الأفريقى فى المجتمع الأمريكى .

وهدفت هذه الدراسة تحليل كلام Talk النسوة الأفرو أمريكان لمعرفة تأثير الهوية العرقية والجذور العنصرية Racism والثقافية على الخطاب Discourse الأفروأمريكان ، وكشف تحليل مضمون هذا الخطاب عما يكمن خلفه من علاقات بين شخصية لدى الجماعة الأفريقية ، وأن ثمة تأثيراً كبيراً للهوية الثقافية والعرقية على الممارسات الحياتية لدى الأفارقة .

وأسفرت النتيجة المحورية لهذا التحليل أن الخطاب الأفروأمريكان لا يحتوى على تعبيرات ، تعبر عن الهوية الثقافية والعرقية فحسب باستخدام مفردات وأصول لغوية مستمدة من التراث الأفريقى ، وأيضاً الإصرار على أهمية الارتباط والخضوع للهوية العرقية والثقافية ، وأن هذه الهوية تظهر بوضوح فى الكلام الشائع بين الأفارقة الأمريكان ، وفى التواصل الاجتماعى بينهم ، وأن لديهم إصراراً للمحافظة على النقاء العرقى والسلالى للهوية الأفريقية .

ويتجلى هذا الإصرار فى الحفاظ على الهوية الثقافية من خلال اللغة لدى طلاب جزيرة بورتوريكو .

فقد هدفت دراسة إيرلين Arlene (١٩٩٧) معرفة انعكاسات تعلم اللغة الإنجليزية على البناء الاجتماعى والسياسى والأيديولوجى لدى طلاب بورتوريكو، على عينة قوامها (٨١٨) طالباً تتراوح أعمارهم ما بين (١٨ – ٢٢ سنة) .

وحددت الباحثة المشكلة المحورية لبحثها فى ذلك التناقض الوجدانى -ambiva lence الذى يعانيه طلاب هذه الجزيرة تجاه اللغة الإنجليزية ، ولاسيما وأن تعلم اللغة الإنجليزية يتم فى سياق صداقة بورتوريكو كمستعمرة مع الولايات المتحدة الأمريكية. ومن المعروف أن بورتوريكو جزيرة على المحيط الأطلسى لها ثقافتها الخاصة وإرثها الثقافى الذى تعتز به ، ومن ثم يشعر شبابها أن تعلم الإنجليزية من شأنه أن يطمس معالم لغتهم الأصلية ويغربهم عن جذورهم الثقافية ، ولهذا أسفرت نتائج البحث عن خمس مشكلات أساسية لدى الشباب :

المشكلة الأولى تكمن فى أهمية تعلم اللغة الإنجليزية كلغة عالمية بالمقارنة باللغة الإسبانية ، والمشكلة الثانية تتركز فى أن المركز الاجتماعى والقيمة العالمية التى يصبو الشباب إلى بلوغهما مرتبطان بتعلم الإنجليزية ، والمشكلة الثالثة تدور حول

موقع اللغة الإنجليزية كلغة عالمية كوكبية فى وسائل الإعلام ، وضرورة ربط الجزيرة بالعالم ، ومعرفة ما يدور حولها من أحداث عالمية ودولية .

وتدور المشكلة الرابعة حول اللغة الإنجليزية بوصفها تهديداً للهوية الثقافية لهذه الجزيرة من شأنه أن يحتوى الجزيرة ثقافياً ، أما المشكلة الخامسة فتدور حول الصراع بين المستقبل السياسى للجزيرة ودور اللغة الإنجليزية فى ذلك .

وأشارت النتائج إلى أن تعلم الإنجليزية يمثل التحدى الحقيقى أمام طلاب بورتوريكو للدفاع عن إرثهم الثقافى ولغتهم المحلية verna-cular ، ومن ثم فتعلم اللغة الإنجليزية قد يكون فعلاً مضاداً للوجود الاجتماعى والسياسى والأيديولوجى لجزيرة بورتوريكو .

وفى دراسة عن التواصل بين الأمم والهوية الثقافية عبر ثقافات متباينة ، يطرح Dolores & Aiberto (١٩٩٨) تساؤلات ثلاثة : الأول يدور عن معنى الهوية المتعددة الثقافات ، والثانى أين يمكن أن توجد تلك الهوية المتعددة الثقافات؟ والسؤال الثالث يدور حول الكيفية التى تتشكل بها هذه الهوية فى عصر الكوكبية Globalism وتلاشى المسافات بين الأمم .

وفى محاولتهما للإجابة عن هذه التساؤلات، بينا أن الهوية الثقافية تستند إلى ثوابت جغرافية طبيعية ، وأبنية معرفية ، وتوجهات اجتماعية ، واتجاهات وتحيزات سياسية ، وأن هذه الثوابت قد تتصف بالمرونة والقدرة على التعايش مع طبيعة العصر الكوكبى ؛ الأمر الذى يسهم فى تطوير الهوية بأبعادها الثقافية والمعرفية والسياسية والاجتماعية ، وتتصف بالجمود ومن ثم التقوقع داخل الذات والتخلف ، وأن العصر الكوكبى يفترض أن تنصهر الثقافات لتشكل بنية المجتمع ذات الثقافات المتعددة .

تفسير ذلك أن العولمة والتقدم التكنولوجى ، والأخذ بآليات السوق وحرية التجارة جعلت من العالم قرية كونية واحدة قائمة على التقدم التكنولوجى وتجاوز المسافات بين الأمم والاعتماد المتبادل بين الشعوب ؛ الأمر الذى يسهم فى تحقيق التواصل من خلال الوحدة الكوكبية للإنسان .

وتتفق هذه الرؤية إلى حد كبير مع ما طرحه بيتر برستون Preston من رؤية متعددة الجوانب Interdisciplinary للهوية الثقافية من خلال منظور سياسى اتخذ من انهيار حائط برلين ١٩٨٩ بدء تاريخ جديد للعالم ، فبعد انهيار الحائط اندلعت الثورة فى وسط وشرق أوربا مطالبة بالحرية والديمقراطية والاقتصاد الحر ، وتفكك الاتحاد السوفيتى ، وبدا واضحاً أن حقبة كوكبية تهيمن على العالم بأممه وشعوبه ،

وأن كافة الأيديولوچيات التى كان مسلماً بها ، اجتاحها التغيير لدرجة أصبحت الهوية السياسية والثقافية ذات طابع كوكبى ، ينبغى أن يكون له السيادة المطلقة على كافة الهويات الثقافية فى عالم اليوم . بيد أن هذه الحقبة واكبها إعادة بزوغ Re-emergence الصين كقوة إقليمية وعالمية .

ومن خلال هذا السياق يقدم بيتر بترسون تحليلاً ثقافيًا وسياسيًا واقتصادياً للهوية من خلال أقطاب دولية ثلاثة : أوربا حيث تعيش إعادة ترتيب أوضاعها بما يتفق مع المرحلة الكوكبية ، ودول آسيا المطلة على المحيط الباسيفكى (المحيط الهادى) ، والتى تمثل دول جنوب وشرق آسيا حيث الصين واليابان . وقد حققت هذه الدول وثبات تقدمية وتكنولوجية مذهلة فى كافة مناشط الحياة ، واستطاعت بإنتاجها المتميز أن تجد لنفسها أسواقاً عبر العالم أجمع ، وفوق كل هذا تمتاز هذه الدول باعتزازها بتراثها الثقافى وهويتها العرقية ، ورسوخها فى عالم اليوم ، ورغم ما بينها من تناقضات إلا أنها تناقضات فى سبيلها إلى الحل ، وعلى قمة هذه الدول تقف الصين كقوة عسكرية وبشرية واقتصادية تحتل لها مكانتها ، أما أمريكا ، فإنها تمثل القطب الأوحد الذى لا شريك له فى عالم اليوم .

وتدور دراسة بيركوتز وبارينجتون Berkowitz & Barrington (١٩٩٨) حول العنصر النزعة العرقية ، كما تظهر فى الصلات البينية للجماعات فى مجتمع متعدد العرقيات .

يوضح المؤلفان أن لفظ عنصر Race استخدم على أنحاء شتى ، بيولوچيًا واجتماعيًا وثقافيًا ، وكان الهدف من استخدامه تمييز عنصر من البشر عن عنصر آخر، بيد أن هذا اللفظ قد أصبح موضع جدل كبير بسبب الاستثناءات على قاعدة ما عساه يشكل أى عنصر بذاته ، فثمة تباينات فى لون الجلد ونوعية الشعر والبنية ومحيط الوجه ، فلا توجد طبيعة واحدة تشكل معياراً أو محكاً لسلالة ، ومن المؤكد تقريباً – حسبما يؤكد علماء الأنثروبولوچيا الطبيعية أنه لا يوجد شعب ولا قبيلة ولاأمة تمثل عنصراً نقيًا Pure race .

ثم إن اللفظ استخدم فى كثير من الأحيان لتبرير تعالى أمة على أمة وشعب على شعب ، الأمر الذى فجر حروباً شتى فى العالم ، تحت وهم النقاء العنصرى الذى لا وجود له أصلاً .

ويذكر المؤلفان أن المصطلح فى استخداماته المعاصرة ، إنما يشير إلى المكونات الاجتماعية المركبة Complex Social Formations التى تشير إلى الجماعات العرقية .

وقد حاول المجتمع الأمريكى – وهو مجتمع متعدد العرقيات – أن يصهر هذه العرقيات المتباينة فى بوتقة واحدة ، بيد أن الانصهار لم يكن كليًا ، فتاريخ كل الأقليات العرقية الأمريكية إنما يشير إلى عنصرين متضادين ، هما : التكيف والتمثيل Assimilation فى مقابل الرفض والصراع ، فالبعض وذلك يمثل الأغلبية ، يتمثل ثقافة المجتمع بما تنطوى عليه من خصائص ويتحد مع الآخرين فى حياة ثقافية مشتركة ، يتيح لإمكاناته وقدراته أن تتجلى (والبعض يواجه ثقافة المجتمع بالرفض والصراع ؛ لأن مكوناته الثقافية لم تستطع أن تتشرب ثقافة المجتمع ، والبعض الآخر على الضد من ذلك ، حيث يواجه ثقافة المجتمع من خلال الرفض والصراع) . ولهذا يقرر بينى Penny (١٩٩٧) بأن التباينات الثقافية شيء قائم يستحيل حتى فى المجتمعات المتعددة الثقافات والعرقيات ، ففى دراسة له عن التعدد الثقافى والكوكبية Globalism فى إطار من العلاج النفسى ، بين بينى من خلال رحلته العلمية كعالم نفس ، مارس فنيات العلاج النفسى لدى حالات تنتمى إلى ثقافات متعددة وعرقيات شتى ، أن ثمة علاقة بين النزعة العرقية Ethnocentrism والعلاج النفسى ، وأن العلاج النفسى القائم على افتراضات ثقافية غربية التوجه لا يحقق الشفاء المأمول ، ولهذا ينبغى أن يتمتع المعالج النفسى بحس ثقافى Culturally sensitive ، يمكنه من التعامل مع « الحالة » من خلال مكوناتها الثقافية والعرقية .

وانتهى إلى نتائج مؤداها أن تطور الهوية العرقية مردود ليس إلى وعى الفرد بهويته الثقافية فحسب ، بل أيضاً إلى وعيه بحركة المتغيرات فى عالم اليوم ، والتى أصبحت ذات طابع كوكبى ، فى عالم تجاوز فيه التطور المسافات الزمنية بين الناس وتهيمن عليه الكوكبية التى من شأنها أن توفر رؤية كوكبية تتجاوز الحدود العنصرية والعرقية التى تشكل الهويات الثقافية .

وتتخذ ارما بيودرى Beaudry (١٩٩٧) من التحليل النفسى مدخلاً لتفسير كيفية تجسيد Embodying الهوية الثقافية لدى الفرد ، فتبين أن ثمة عملية استدخال أو إدماج Internalization بين الأنا والآخر ، يتم من خلالها استدخال الآخر الذى يمثل الأب والأم والأسرة بوصفهم جماعة مرجعية Reference groups للفرد وعن طريقهم يتشرب الطفل سلوك ومعايير مجتمعه لدرجة تصبح معه ثقافة المجتمع مكوناً من مكونات الفرد الداخلية Interiorize .. وبهذا ننصح بضرورة استناد العلاج النفسى إلى فهم للهوية الثقافية للفرد ، ودون معرفة بتلك الهوية يصبح العلاج النفسى وهماً لا معنى له .

وثمة دراستان تظهر أن البحث عن هوية يمثل أزمة كبرى وإشكالية بغير جواب داخل إسرائيل .

والدراسة الأولى منشورة فى دورية Israel Affairs (١٩٩٨) التى خصصت عدة أعداد منها لمناقشة أزمة البحث عن الهوية : الجوانب اليهودية فى الثقافة الإسرائيلية ، إليعازر سكفير (١٩٩٨) ، والثانية عن « الصدمة المتوارثة عبر الأجيال ، فرينك Ferenc وآخرون (١٩٩٨) .

وفى الدراسة الأولى : يؤكد إليعازر سكفير Eliezer Schwever (١٩٩٨) أن ثمة تطوراً واكب تأسيس الدولة الإسرائيلية ، وهو أن المؤسسين لم يكن فى نيتهم ، بعد ألفى عام من الخروج ، إقامة الدولة على أسس الثقافة العبرية ، ولذلك سميت الدولة بالاسم القديم لشعب إسرائيل للإشارة إلى ثقافة متميزة وهوية قومية ، وطبقاً لإعلان الاستقلال مايو ١٩٤٨ أقيمت الدولة لتكون : ليس فقط دولة لليهود State of Jews ولكن أيضاً ، دولة يهودية A Jewish State ، بوصفها مركزاً للوحدة الرمزية التى تجسد التراث الروحى للشعب اليهودى ككل ، وارتكازاً على هذا النهج .. فإن قوانين الدولة صيغت لتشكل سياسة قومية من شأنها تجميع شتات اليهود بمختلف تبايناتهم الثقافية والاجتماعية وصهرهم فى بوتقة انصهار melting pot من خلال تعليم قومى، يهدف تشكيل هوية ثقافية قومية قائمة على الثقافة العبرية المستمدة من فترة اليوشيف Yishuv .

وهنا تكمن مشكلة البحث عن هوية ثقافية لليهود *

ويرى الكاتب أن الثقافة الغربية لجماعة Yishuv تطورت من خلال الروافد الرئيسية للصهيونية Zionism ، الذين يعتبرون الرواد الاجتماعيين للصهيونية ، وقادة النزعة الروحية القومية الرومانيكية للصهيونية ، ومتدينى الصهيونية ، تحت تأثير النزعات القومية والإنسانية والاشتراكية والأوروبية فى النصف الأول من القرن العشرين.

ذلك إن الإعلان السابق لقيام الدولة اليهودية جعلها لا تقتصر على مواطنيها ، بل جعلها دولة للشعب اليهودى داخل وخارج فلسطين ، الأمر الذى استتبعه ظهور

---

* Yishuv : يعرف معجم Middle East هذا المصطلح بأنه الجماعة اليهودية فى فلسطين ابتداء من ١٨٨٢ حتى تأسيس دولة إسرائيل فى مايو ١٩٤٨ . ويستخدم هذا اللفظ فى مقابل الشتات وينظر إليهم بوصفهم طليعة العالم اليهودى التى أسست دولة إسرائيل فى فلسطين(ص٣٤٨).

تناقضات ثقافية شتى تفصل بالهوية الثقافية اليهودية ، ويمكن تحديد أهم هذه التناقضات التى يراها الكاتب حول تحديد من هو اليهودى Who is a jew .

١ – بعد إقامة الدولة أصبحت الصهيونية الأيديولوچية الرسمية للدولة وللنظام التعليمى ، بيد أن حرب الأيام الستة * وحرب يوم كيبور ** قد فجرا أزمة روحية تكمن فى ضرورة العودة إلى الدين وإلى الجذور الثقافية ، ومن ثم ضرورة :

٢ – قيام الهوية اليهودية على الهالاخاه Halacha *** الشريعة اليهودية ، وهذا يعنى ضرورة أن تقام الدولة على السلطة الدينية ، وأن اليهودى هو يهودى بحسب الشريعة فقط ، أى من ولد لأم يهودية وتلك وجهة نظر اليهود الأرثوذكس .

٣ – ويرفض القوميون والعلمانيون واللامتدينون من اليهود هذا التعريف ويرون أنه ينطوى على نزعة عرقية ، تتجاوز حدود النزعة القومية لليهودى ، كما أن العلمانيين سيرفضون اتخاذ الدين طريقاً للحياة؛ فلهذا فهم يرفضون ذلك التعريف لليهودى ، ويصرون على تأكيد الطابع القومى لليهودى ، يكون اليهودى من تهود.

٤ – وقد تكشفت حدة التناقضات فى تعريف من هو اليهودى فى أواخر الثمانينيات وقبل انهيار حائط برلين مباشرة وبعده ، حيث هاجر عدد كبير من اليهود السوفيت ومن دول أوربا الشرقى وجاءوا إلى إسرائيل بزاد ثقافى واجتماعى ولغوى مباين للثقافة الإسرائيلية ، وبالإضافة إلى هذا التباين الثقافى .. فهناك مشكلات خاصة بالعرقية اليهودية أو بمن تهود ، ولم تكن أمه يهودية .

٥ – ثم هناك المهاجرون الجدد لإسرائيل من يهود الفلاشا واليهود العرب .

٦ – بالإضافة إلى التناقضات القائمة فى المجتمع الإسرائيلى ، والخاصة بتحديد الهوية الثقافية ، أضاف المهاجرون الجدد بعداً كبيراً إلى أزمة

---

* حرب الأيام الستة ، حرب ١٩٧٦ .

** يوم كيبور : حرب ١٩٧٣ .

*** هالاخاه Halacha وفقاً لمعجم الشرق الأوسط تعني الشريعة أو جملة القوانين ، التي تحكم الطقوس والحياة اليومية لليهود (ص ١٠٥) .

البحث عن هوية بانتماءاتهم إلى جذور ثقافية واجتماعية مرتبطة بالدول التى هاجروا منها ، وليس بالدولة التى هاجروا إليها .

والحل فيما يتصوره الباحث يكمن فى :

١ – التركيز على ميكانيزم الخطر : فهو الميكانيزم الوحيد الموحد لليهود ، على الرغم من كل تبايناتهم ، فإسرائيل محاطة بسياج من ثقافات مضادة ومتحفزة لها ، ومن ثم ضرورة شحن الناس بالخوف مما يحيط بإسرائيل ، وبالمستقبل بالرجوع إلى آلام الماضى حيث التذكير المستمر بالهولوكست Holocust (المحرقة أو الإبادة النازية) ، وبالدياسبورا Diaspora (الشتات اليهودى الذى وقع فى العصر البابلى) ، وأن ذلك يمكن أن يحدث لإسرائيل الآن وفى عواصم شتى من العالم كباريس ولندن ونيويورك.

٢ – التركيز على الاحتفالات الرسمية كيوم الاستقلال وتحرير القدس وإحياء ذكرى الدياسبور والهولوكوست .

٣ – الحفاظ على اللغة العبرية بوصفها بوتقة الانصهار القومى والوجودى للشعب اليهودى ، وأنها اللغة الرسمية للدولة الإسرائيلية .

٤ – تعهد الدولة بالحفاظ على المطالب والاحتياجات الدينية باعتبار الدين هو المقوم الأساسى للهوية العبرية ، وبالحفاظ على المؤسسات الدينية والتوسع فى إنشاء المعابد اليهودية .

ورغم هذا جميعه لم يستطع الكاتب أن يصل إلى تعريف من هو اليهودى .

وتدور دراسة فرينك Ferenc وآخرين (١٩٩٨) حول التساؤل نفسه من هو اليهودى ؟ وماذا يكون ؟ وماذا يعنى أن تكون يهودياً فى بلد كالمجر ؟

المراجع

١ - أحمد تيمور (١٩٨٦) : الأمثال العامية (ط : ٤) ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة .

٢ - إدوارد يونس (١٩٩٢) : الهوية . أسطورة أم حقيقة . فى : الهوية الثقافية فى الزمان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .

٣ - أرجون أوزبودون (١٩٩٢) : من الهوية الدينية إلى الهوية العلمانية القومية . فى : الهوية الثقافية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .

٤ - ألفين توفلر (١٩٧٤) : صدمة المستقبل ، ترجمة : محمد على ناصف ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة .

٥ - بسام طيبى (١٩٩٢) : الهوية والرؤية العالمية فى عالم متغير . فى : مراد وهبة (١٩٩٢) ، الهوية الثقافية فى الزمان . مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة .

٦ - بو غالى (١٩٩٢) : الثقافية والزمانية . فى : مراد وهبة : الهوية الثقافية فى الزمان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .

٧ - بول هايست وجورج يونج (١٩٨٤) : الاستبيان الشامل للشخصية - ترجمة : عادل عز الدين الأشول وآخر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة.

٨ - جمال حمدان (١٩٨٤) : شخصية مصر . دراسة فى عبقرية المكان (جزء ٢) ، عالم الكتب .

٩ - جوردن ألبورت (١٩٨٨) : مقياس الوعى الدينى . إعداد : عبد الرقيب البحيرى وعادل الدمرداش . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

١٠ - روكيتش (١٩٧٢) : اختبار الدوجماطيقية ، تعريب : أحمد عبد العزيز سلامة ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

١١ - سامية عويس (١٩٨٧) : الأمثال الشعبية المصرية ، مكتبة مدبولى ، القاهرة .

١٢ - سيد عويس (١٩٨٧) : التسامح الثقافى فى مجتمع حضرى مصرى . فى مراد وهبه : التسامح الثقافى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .

١٣ – طه حسين (١٩٩٣) : مستقبل الثقافة فى مصر . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

١٤ – عبد السلام عبد الغفار (١٩٨٢) : الابتكار والتفوق العقلى ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

١٥ – على بن الحسن بن عساكر (١٣٥١ هـ) : تهذيب التاريخ بـــ ، تحقيق عبد القادر بدران ، روضة الشام ، دمشق .

١٦ – فاروق خورشيد (١٩٩٤) : الأدب الشعبى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

١٧ – مارتن برنال (١٩٩٧) : أثينا السوداء (جـ : ١) ، تحرير أحمد عثمان ، وترجمة لطفى عبد الوهاب وآخرون ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة .

١٨ – محمد إبراهيم عيد (١٩٩٠) : الاغتراب النفسى ، الرسالة الدولية للإعلان ، القاهرة .

١٩ – محمد إبراهيم عيد (١٩٩٨) : أزمات الشباب النفسية ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة .

٢٠ – مراد وهبه (١٩٧٩) : المعجم الفلسفى . (ط٣) ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة .

٢١ – مراد وهبه (١٩٩٧) : فلسفة الإبداع ، دار العالم الثالث ، القاهرة .

المراجع الأجنبية

22 - Arlene, C., (1997) : Students reflections on the social. In Political, and ideological role of English in Puertorico; Hispanic-Journal of Behavioural Science, Nov.; Vol. 19(4) : 461 - 478.

23 - Balint, A., (1945) : Identification, The Yearbook of Psychoanalysis.

24 - Beaudry, Irma (1997) : Embodying a culutral identity, Arts - in - Psychotherapy, Vol. 24(2) : 129-135 .

25 - Berkowitz, S., & Barrington, D., (1998). Race and ethnicity: Intergroup relations in a multi-ethnic society in : Howard, Ball (Ed), Berkowitz, S.D. (Ed), *et al*. (1998) Multicultural education in colleges and universities: A transdisciplinary approach. (pp 3 - 33) . Mahwal , NJ, USA : Lawrence Erbium Associates, Inc., publishers.

26 - Berger P., Berger, B., kellner, H., (1974) : The Homeless Mind. Harmonds Worth, Penguin Books.

27 - Biersted, R. (1963) : The Social Order, New York, McGraw Hill.

28 - Cote, J. (1986) : Identity crisis modality : A technique for assessing the structure of the Identity crisis, Journal of Adolescence, Dec.; Vol. 9 (4) : 321 - 335.

29 - Delors J. (1993) : Questions concerning European Security, International Institute for Strategic Studies, Burssels (10); Sep., P.2.

30 - Dijk, V. (1997) : Discourse as social interaction : Discourse studies : Amultidisciplinary introduction, Vol. 2 : (pp. 144 - 180). London, England, U.K. : Sage Publications.

31 - Dolores, T., & Alberto G. (1998) : Communication and identity across cultures . International and Intercultural Communications Annual, Vol. 21, P. 240 - 250 .

32 - Drever, J. (1968) : A Dictionary of Psychology. Penguin Books.

33 - Erikson, E. (1968) : Identity : Youth And Crisis. New York, W.W. Norton .

34 - Erikson, E. (1950) : Childhood And Society, New York, Norton.

35 - Ference, E., Vajda, J., & Kovacs, E. (1998) : Intergenerational responses to social and political changes : Transformation of Jewish Identity in Hungary. In Yael, D., (Ed) etal. (1998) . International Handbook Of Multigenerational Legacies of Trauma. The Plenum

Series on Stress and Copying (PP. 315 - 324), New York, U.S.A. : Plenum Press.

36 - Fregeau, D., & Barker M. (1986) : A measurement of the process of adolescence: Standardization and interpretation, Adolescence, Win.; Vol. 2(84): 913 - 919.

37 - Fromm, E. (1969) : The Sane Society. New York, Fawcett Premier.

38 - Fromm, E. (1971) : Escape From Freedom, New York, Avon Books.

39 - Fukuyama, F. (1992) : The End of The History And The Last Man. New York. U.S.A.

40 - Havel, V. (1994) : The new measure of man. New York, Times, 8 July, P. 27 .

41 - Hiro, D. (1996) : Dictionary of The Middle East, Macmillan, U.S.A.

42 - Huntington, S. (1996) : The Clash of Civilizations And The Remaking of World Order. Simon & Schuster Rokefeller Centre, New York, U.S.A.

43 - Jerry, P. (1997) : The Fate of the Earth : "each and all" or nothing, Literature - and - Psychology. Vol. 43 (3) : 1 - 23 .

44 - Melgosa, J. (1987) : Development and validation of the occupational identity scale, Journal of Adolescence, Dec.; Vol. 10 (4) : 385 - 397 .

45 - Larkin, L. (1987) : Identity and fear of success, Journal of Counseling Psychology, Jun; Vol. 34 (1) : 38 - 45 .

46 - Marcia, J. (1987) : The identity status approach to the study of ego identity development, in : Honess T. *et al.,* Self and Identity. Perspectives across the Lifespan. (PP. 161 - 171) . Boston M.A., U.S.A. : Routledge.

47 - Oyserman, D. & Sakamoto, I. (1997) : Being Asian American : Identity. Cultural constructs, and stereotype perception, Journal of Applied. Behavioral Science, Dec.; Vol. 33(4) : 435 - 453 .

48 - Penney, L. (1997) : Multiculturalism and globalism in the arts in Psychotherapy, Arts - in - Psychotherapy, Vol. 24(2) : 123 - 127 .

49 - Phinney, J. (1998) : Psychological variables as predictors of perceived ethnic discrimination among minority and immigrant adolescents. Journal of Applied Social Psychology. Jun.; Vol. 28 (11) : 937 - 953 .

50 - Preston, P. (1997) : Political, cultural identity : Citizens and nations in a global era, London, England, U.K.: Sage Publication.

51 - Rokeach, M. (1960) : The Open and Closed Mind, New York : Basic Books.

52 - Rotheman, B. (1998) : Development, ethnic, and gender differences in ethnic identity among adolescents, Journal of Adolescent - Research, OCT: Vol. 13 (4) : 487 - 507 .

53 - Schweid, E. (1998) : Judaism in Israell culture in : Urian D.; and Karsh E. : Israel Affairs, Vol. 4 (3 & 4) , Spring, (pp. 9 - 28) . A Frank Cass Journal, Israel.

54 - Stein, M., Vidich, (1962) : Identity And Anxiety, The Free Press of Glencoe, U.S.A.

55 - Taylor, J. (1871) : Primitive culture. London, Jhon Murriecay London.

56 - Toynbee, A. (1965) : Between Niger and Nile. New York oxford University, Press.

57 - Weaver, H. (1998) : Indigcnous people in a multicultural society : Unique Issues for Human Services, Social - Work. Vol. 43 (3) : 203 - 211 .

التسامح الثقافى

مقدمة :

مع بداية قرن جديد ، يتواصل زمنياً مع قرن مضى ، اختلطت فيه المسميات ، واحتار المفكرون والسياسيون ، فى وضع تسمية تميزه ، أسوة بقرون وعصور مضت ، فهل هو عصر العلم والتكنولوجيا ، أم عصر القوميات والعرقيات والحروب الثقافية ، هل هو عصر الاغتراب والقلق ؟ أم عصر الإرهاب والأفكار المطلقة ، والمذاهب الجامدة ، هل هو عصر الأيديولوچيات الكبرى ؟ أم عصر انهيار الأيديولوچيات الكبرى ونفيها وبزوغ الهويات الثقافية والعرقية وتأكيدها ، هل هو عصر الزحام والجماهير ، أم أنه عصر تشكل من كل ذلك .

ويمكن رصد بعض مظاهر اختلافه عن غيره من العصور فى النقاط التالية :

١) حربان عالميتان كبيرتان : فجرهما الإنسان فى أقل من ثلاثين عاماً وبسببهما تمزقت معنويات الإنسان ، وجعلتاه يشعر بعجز القيم السائدة عن إنقاذه من ويلات الحرب ودمارها الرهيب .

٢) تفجر معرفى استلزمته ضرورات الحرب وضرورات السلام ، امتد ليستوى كافة مناشط الإنسان ، وتمثل فى ثورة المعلومات وثورة الاتصالات والمواصلات، وفى الطاقة الجبارة بكل إيجابياتها ومخاطرها ، وفى تكنولوجيا المعلومات ، وفى اقتصادياتها ، وفى القدرة على إنتاجها وتخزينها ، فلم تعد الصناعة مجرد تطويع للمادة بكفاءة ، بل أصبحت مرتبطة أشد الارتباط بالقدرة على معالجة المعلومات وتصنيفها وحسن استخدامها .. إضافة إلى ذلك التقدم فى علوم الفضاء ، وفى الهندسة الوراثية، والإنترنت ، وغير ذلك من وثبات علمية كيفية تجعل من الصعب التنبؤ بما هو قادم .

٣) مذاهب فلسفية وفكرية اتسمت بالكلية والشمول ، كفلسفة الحضارة والفلسفة المادية ، وفلسفة التطور ، وقد أسهمت جميعاً بشكل أو بآخر فى تحول الإنسان إلى كائن لا وزن له ، إلى إنسان لا حول ولا قوة له ، ومهدت

---

* قسم الصحة النفسية ، كلية التربية ، جامعة عين شمس

الطريق لظهور : أيديولوچيات عقائدية ومذهبية ، اتسمت بالتسلط وجمود الفكر والتعصب والتمييز العرقى ، والعنصرى ، والحض على العدوان ، وتمجيد القوة ، ومعاداة الأفكار المناهضة لهذه الأيديولوچيات ، وتمثلت هذه الأيديولوچيات المذهبية فى الفاشية والنازية فى الثلاثينيات والأربعينيات ، وفى الخمسينيات كانت « الحرب الباردة » وبلغ فيها الصراع بين الأيديولوچيتين : الماركسية والرأسمالية ، حد الانفجار ، ثم ظهرت بعد ذلك أشكال متعددة من التعصب وجمود العقل والتفكير القطعى ، وكلها أشكال ومظاهر للدوجماطيقية فى أنحاء شتى من العالم .

٤) احتجاجات على وضع الإنسان وموقفه ، تمثلت فى كتابات المفكرين وعلماء النفس والاجتماع ، وتمثلت فى البحث عن الجوانب الإيجابية فى الإنسان حيث الفاعلية والاستمرارية وتأصيل القيم ، واستثارة كوامن المعنى، وتأكيد حرية الإنسان وتساميه وسعيه نحو توكيد ذاته وتحقيقها من خلال التسامح رغم التباين ، ونفى الأيديولوچيات والعمل من أجل مستقبل يشترك فى صنعه الناس جميعاً .

٥) أيديولوچيات جديدة ، ومراكز قوة ظهرت بعد الحرب العالمية الكبرى ، صاحبها حروب هنا وهناك وبؤر للصراع والتوتر فى أنحاء شتى من العالم، فى فيتنام ، وكوريا الشمالية وإيران والعراق ، والعراق والكويت والعالم .

٦) ومع نهاية الثمانينيات من هذا القرن ، بدا أن هذا العالم يعيد ، ومن جديد تشكيل أوضاعه ، وأن هناك حركة تسويات كبرى لأوضاع اجتماعية وسياسية راسخة . ففى عام ١٩٨٩ سقط حائط برلين ، وكان سقوطه بداية منبئة بانهيار الأنظمة الشمولية فى الاتحاد السوفيتى وفى شرق ووسط أوربا، ومع الانهيار الأيديولوجى ، تفجرت الحروب العرقية والثقافية فى البلقان ، ورواندا ، والشيشان وغيرهم من الدول.

٧) ظهور بؤر إرهابية فى العالم معبئة بأفكار قطعية ودوجمات ثقافية لا تتيح فرصاً للالتقاء أو الحوار فى أنحاء شتى من العالم ، تمثل بعضها فى مجزرة الحرم الإبراهيمى فى فبراير ١٩٩٤ ، ومجزرة دبلن بسكوتلاندا فى١٣/٣/١٩٩٦ ، وفى انفجار المركز التجارى فى أوكلاهوما بالولايات المتحدة (١٩٩٥) ، وحرب الكنائس فى أيرلندا ، ومجزرة الأقصر فى ١٩٩٨ ، وتفجير سفارتى أمريكا فى تنزانيا وكينيا فى العام نفسه ، والهجمة الشرسة والتعصبية الآن على المسجد الأقصى .

وهذه الأعمال الإرهابية التى ضمها العقد الأخير من القرن العشرين ، دليل على أن الإرهاب واحد ، وإن تباعدت المسافات وتباينة المواقع الجغرافية .

وقد يقف وراء ما يحدث من أعمال إرهابية أفكار توصف بالجمود والعرقية والتعصب والعدوان .

يقول بوير (١٩٩٩) « إن الأفكار (يقصد الأفكار الدوجماطيقية) قد تسببت منذ آلاف السنين فى القتل الجماعى باسم فكرة أو عقيدة ، أو نظرية أو دين » (ص ٢٢٠).

وهذه التغيرات التى يموج بها عالمنا ، نجد تعبيراً لها لدى الشباب ، فالشباب بحكم مرحلته العمرية يمثل « التوجه للمستقبل » ومن ثم يكون أولى من غيره بالإحساس بهذه التغيرات ومعايشتها والاشتراك الفعال فى تنفيذها ، ولعل ما يموج به المجتمع فى مصر من تحديات نفسية ، واجتماعية ، وسياسية ، وفكرية ما يجعل من هذه الدراسة ضرورة لا مناص منها لفهم بعض مظاهر التسامح فى علاقته بالدوجماطيقية عند الشباب .

ولهذا تهدف هذه الدراسة الكشف عن العلاقة المحتملة الوجود بين الدوجماطيقية التسامح لدى الشباب الجامعى ، ويتساءل البحث عما عساها أن تكون هذه العلاقة ؟ سلبية هى ؟ أم إيجابية ؟

وهل التسامح يمثل طرف النقيض ، وضد ، لا التقاء فيه مع الدوجماطيقية ، أم أن نقيض التسامح وهو التعصب . هو الذى يمثل الارتباط الموجب بينه وبين الدوجماطيقية ؟

وهذا ما سيحاول البحث الحالى الإجابة عليه من خلال :

تحليل البنية العاملية لكل من المتغيرين (التسامح والدوجماطيقية) ، والكشف عما قد يكون بينهما من ارتباط ، وعلى أى نحو يكون .

تحديد المصطلحات :

أولاً : التسامح Tolerance

لم يحظ مفهوم التسامح باهتمام الباحثين من علماء النفس ، بالقدر نفسه الذى حظى به « نقيض التسامح » وهو التعصب Prejudice ، كما لو كان التسامح استثناءً بشرياً ، والقاعدة هى التعصب ، على النحو الذى تترجمه الكثرة من الكتابات عن

التعصب عند رواد علم النفس أمثال ادورنو ، Adorno ، ١٩٥٠ ، والبورت ١٩٥٨ ؛ واندرسكى Andriski ، ١٩٥٤ ، وميرفى Murphy ، ١٩٥٤ .. وغيرهم .

فى عام ١٩٤٣ ، فى أثناء الحرب العالمية الثانية بدأ أدورنو وزملاؤه يخططون لدراسة الشخصية التسلطية ، كجزء من اهتمامهم بدراسة ظاهرة التعصب العنصرى الذى تمثل فى أيديولوچية الفاشية التى تقوم على تمجيد القوة ، والحض على العدوان، ومحق الضعفاء ، ومعاداة السامية ، ورفض كافة المعتقدات التى تختلف عن توجهات وأيديولوچية الفاشية .

وقد وجد أدورنو أن ثمة أشخاصاً لديهم أحكاماً مسبقة ، مصحوبة بسلطوية عميقة تجاه للآخرين ، تتصف بمجموعة من السمات التى يتميز بعضها بالامتثال المطلق لقيم وأحكام الجماعة (التعصب الفكرى) والخضوع لأحكامها ومعاييرها ، والحض على العدوان (الذى يظهر فى ميل الفرد إلى التحفز والعدوان ضد كل من تسول له الخروج على قيم واتجاهات الجماعة ، والتعامل مع الواقع وفق نماذج سلطوية متقابلة (الخضوع فى مقابل الهيمنة) ، والميل إلى التدمير والاستخفاف بالآخرين) (ص٢٢٨) .

ولعل هذا ما أكده ألبورت (١٩٦٨) عندما أكد أن التعصب هو حكم مسبق Praejudicium يقوم على معتقدات خاطئة ، تتصل بأشخاص بعينهم أو موضوعات بعينها ، تنتج عما يسميه البورت القصور المعرفى ، والذى يتمثل فى احتقار وكراهية موضوع التعصب ، وتقوم هذه الكراهية على أساس خاطىء ومتصلب إزاء شخص بعينه أو شخوص بعينها أو جماعات بعينها ، (ص ٨ – ١٢) .

ويشير ناشرا موسوعة علم النفس (١٩٧٢) إلى أن مفهوم التسامح يشير إلى الاتجاهات والاجتماعية والسلوكية ، التى تقوم على احترام حرية الرأى واستقلاله ، حتى وإن كان مبايناً لرأى الأغلبية .

وأن التسامح على الضد من التعصب أو الاتجاهات اللامتسامحة (ص ٣٣٠).

وقد صك برونزفنك مصطلح التسامح إزاء الغموض Talerance of ambiguity واعتبره نمطاً معرفيًا ، يحدد أحكام الفرد تجاه المواقف المتباينة ، على نحو يجعله متوازناً أمام المواقف الغامضة (المرجع نفسه) .

ولهذا يسترشد بآراء الكثير من الباحثين الذين يؤكدون أن ثمة علاقة موجبة بين اللاتسامح إزاء الغموض وخصائص الشخصية المتسلطة .

وهذه الآراء كانت تمثل حقبة زمنية أطلق عليها اسم « التسمم العرفى » ، فقد كانت معبئة بأفكار وأيديولوچيات تدعوا إلى العدوان ، والاستعلاء على الآخرين ، وتمجيد القوة والتمييز العرفى واستلاب الآخر وسحقه .

وفى السبعينيات حاول روبرت ماس ، Mass (١٩٧٧) أن يحدد حدود التسامح موضحاً القصد منه فى أنه يعنى « حرية الإنسان فى التعبير عن معتقداته ، مادامت لاتدعو إلى العنف ولا تتعارض مع القانون » ثم أكد رسوخ التسامح فى الأنظمة الديمقراطية (ص١٨٧) .

وهذا وهم يؤكده كتاب « نقد التسامح الخالص » ، حيث يبين مراد وهبه (١٩٩٧) أن الغاية من نقد التسامح الكشف عن الوهم الكامن فى الأنظمة السياسية ، التى تزعم أنها تتسم بالتسامح وهى ليست كذلك ، والكتاب يحتوى على ثلاث مقالات حررها ثلاثة فلاسفة . الأول هو روبرت فولف ، الذى يرى أن النظرية الليبرالية التى أسسها جون استيورت مل ليست صالحة لهذا الزمان ، ذلك أن مل يرى أن الفرد سلطان ذاته ، طالما لم يحدث ضرراً للآخر .. أما الآن فالديمقراطية التعددية ، مؤسسة على تعارض المصالح بين الجماعات الاجتماعية ، وعلى تفوق جماعة على آخرى ، ومن ثم تنتفى العدالة الاجتماعية وينتفى التسامح ، والنتيجة ضرورة مجاوزة الديمقراطية التعددية مع ما تزعمه من تسامح .

والمقالة الثالثة تدور حول أيديولوچية التسامح ، التى هى فى الحقيقة أيديولوچيا تحافظ على الوضع القائم المستند إلى الظلم والتفرقة .

وخلاصة القول أن التسامح ينطوى على نقيضه وهو عدم التسامح ، وأن تناول قضية التسامح يستلزم تناول قضية التعصب » (ص٣) .

ولعل أول رسالة فى التسامح ، تلك التى كتبها جون لوك « ١٦٨٩ » ، وكان يقصد بالتسامح « إنه ليس من حق أحد أن يقتحم باسم الدين الحقوق المدنية والأمور الدنيوية » .

وقد سئل فولتير يوماً عن معنى التسامح ، فأجاب كما يقول بوبر – إن التسامح هو النتيجة الحتمية لإدراكنا أننا لسنا معصومين من الخطأ .

وفى تعريفه للتسامح بين سيد عويس (١٩٨٤) أن التسامح ظاهرة اجتماعية ثقافية، وأنه ميل أو موقف اجتماعى يعترف بحق الآخر فى تباين السلوك والرأى ، وفى عبارة بسيطة يمكن القول بأن مفهوم التسامح يعنى « أن تحيا أنت والآخرين » (ص٢١) .

ويمكن القول بأن جوهر التسامح يكمن فى حرية الفكر وحرية الاعتقاد ، ومن أجل هذه الحرية الفكرية ، وتلك الحرية العقائدية ، اندلعت الحروب ، وأريقت الدماء ، وحوكم البعض من المفكرين ، أو عدم البعض منهم ، فقد أعدم سقراط ، وحوكم جاليليو ، وأحرق برونو فوق كتبه ، وأحرقت كتب ابن رشد ، وحوكم الشيخ على عبدالرازق وفصل من الجامعة ، وغيرهم كثيرون .

ويعنى التسامح الفكرى أن تعدد الآراء أمر مشروع ، وأن التباين فى الفكر يضفى على الأفكار والأشياء معنى وثراءً، وأن حق التباين جوهرى فى حياة الناس ، ففى التباين إقرار بتفرد الإنسان واختلافه ، وحرية الاعتقاد تعنى أن « لا إكراه فى الدين » (البقرة ، ٢٥٦) ، وأن الإيمان ثمرة للإرادة الإنسانية الحرة * بغير قهر أو إرغام أو تسلط ، وفى تعاليم المسيح المثالية ، تزخر آيات الأناجيل بالدعوة إلى العدالة والمحبة والتواضع وإنكار الذات وقبول الآخر ، والقدرة على هزيمة الخطيئة وكلها عناصر للتسامح .

والتعريف الذى نأخذ به هذه الدراسة ، ينص على أن :

« التسامح مكون نفسى ومعرفى ، نستدل عليه من خلال إيمان الفرد بأن تعدد الآراء أمر مشروع ، وأن حق التباين الفكرى والعقائدى جوهرى فى حياة الناس ، وأن الحرية الشخصية مكفولة مادامت لا تتعارض وقيم ومبادىء المجتمع والقانون » .

ثانياً : الدوجماطيقية Dogmatism

يقول هونديرك Honderich (١٩٩٥) صاحب معجم اكسفورد الفلسفى أن مصطلح دوجما Dogma استخدم للتعبير عن علم العقيدة Religious doctrine ، الذى ينبغى أن تقبل كحقيقة مطلقة ، بغض النظر عن مدى مطابقتها للعقل أو البرهان، ومن ثم استخدمت كمصطلح كتابى، توراتى يؤيد السلطة الإكليرلية أى الكنسية .

---

* يقول تعالى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين » (هود : ١١٨)
* يقول تعالى « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » (يوسف : ١٠٣)
* يقول تعالى « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (يونس:٩٩) .
* يقول تعالى : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » (القصص :٥٦).

فالحق بين والباطل بين ، والدعوة تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة ، يقول تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » (النحل : ١٢٥)

ولفظ الدوجماطيقية ، وهو من الدوجما ، يعنى فى أصله اليونانى اسماً مشتقاً من الفعل Dokeo ومعناه يفكر ، أى أن الدوجما معناها الفكر أو الظن وجمع ظن «ظنون» ، ومعناها «الأفكار الأساسية» التى تكون بناء الفكر وهى مشتقة من سلطة خارجية وليست من برهان أو قناعة . ثم تطور المصطلح فأصبح مرادفاً للفظ «أمر» ، ثم تطور معنى الدوجما إلى أن أصبح مضاداً للهرطقة (مراد وهبه، ص ٢١٤ – ٢١٥).

وقد وجد علماء النفس فى الدوجماطيقية تصوراً يعبر عن الآراء والأفكار والتوجهات ، التى تتصف بالجمود العقلى والتى لا تقبل أى نوع من الحوار أو المناقشة.

ولهذا حظى المفهوم باهتمام الباحثين من علماء النفس والاجتماع والتربية فى الخمسينيات والستينيات من هذا القرن ؛ أى فى الحقبة التى أطلق عليها اصطلاح «الحرب الباردة» بين القوتين العظميين ، وإثر الحرب العالمية الثانية ، وهى حقبة معبأة بالقلق والخوف من عودة العالم إلى ما كان عليه فى الثلاثينيات والأربعينيات من هيمنة مطلقة للأيديولوجيات ومعاداة السامية ، وتعصب عنصرى ، وتمجيد للقوة، ومناهضة للأفكار والأيديولوجيات الأخرى ، ومن ثم راح العلماء والباحثون – يبحثون فى جذور التعصب والتسلط فى الفكر والسلوك والمواقف .

ويرجع الفضل إلى روكيتش Rokeach ، (١٩٥٤ – ١٩٦٠) فى تأصيل مصطلح الدوجماطيقية بوصفه منظومة معرفية مغلقة .

وقد بلور روكيتش مفهومه عن الدوجماطيقية من خلال بحوثه المتعددة عن الجمود العقلى ، وضيق الأفق ، وطبيعة التفكير القطعى ، ومعنى وطبيعة الدوجماطيقية فى الفكر والسلوك والمواقف ، ولهذا أصبحت الدوجماطيقية مفهوماً فسيحاً يشير إلى «التسلطية العامة» (شيلز Shills ، ١٩٥٤ ، روكيتش ، ١٩٦٠) وتمتد لتستوعب كافة مناشط الإنسان فى السياسية والدين ، والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والثقافة والأسرة حيث علاقات الآباء بالأبناء ، ولا تقتصر على جانب واحد هو تسلطية اليمين بمضمونها الأيديولوجى الفاشى كما عبر عن ذلك أدورنو ، وزملاؤه (١٩٥٠) .

وتصور روكيتش (١٩٥٤ – ١٩٦٠) عن الدوجماطيقية يقوم على تصوره عن طبيعة الإنسان ، فلكل إنسان «بناء معرفى» ، ويقوم هذا البناء المعرفى على فكرة المعتقد ، فلكل منا معتقداته الخاصة عن الله وعن النفس وعن الوجود وعن السلطة وعن العلاقة الاجتماعية والثقافية والسياسية ، وتنتظم هذه المعتقدات فى نسق كلى

من المعتقدات ، يكون خصوصية البناء المعرفى للفرد ، ويترتب على هذا البناء المعرفى أساليب تفكير وسلوك واتجاهات شتى ، قد توصف بأنها مغلقة وجامدة ومتعصبة ، وقد توصف بأنها اتجاهات وسلوكيات وتفكير متفتح ومرن وقادر على التعايش والتواصل مع أفكار الآخرين وما يعتقدون .

وعلى هذا فإن الشخص الدوجماطيقى - كما يقول روكيتش (١٩٦٠) - شخص مغلق ، جامد يتسم بتفكير قطعى « تتحول بمقتضاه أكثر الأفكار تفتحاً إلى منظومة مغلقة من الأفكار التى لا تقبل الجدل أو النقاش » (ص ٥١) ، وأن الدوجماطيقية تكمن فى طريقة تناول الفرد للأفكار وللآخرين وللسلطة ، وليس فى مضمون الفكرة أو الأيديولوچية ؛ حيث يتوافر البناء المعرفى للناس جميعاً ، ولكن بدرجات تمتد عبر متصل فى أحد طرفيه يكون الانفتاح العقلى حيث تعايش الفرد مع ما يؤمن به الآخرون ، وتقبله للمعايير المناهضة لتفكيره ، وقدرته على إيجاد قنوات اتصال والتقاء بين ما يعتقده وما يعتقد الآخرون .

وفى الطرف الآخر يكون الانغلاق الفكرى حيث التعصب والجمود العقلى وثنائية التفكير القطعى ، ولهذا فإن الدوجماطيقى - كما يشير روكيتش (١٩٦٠) - يتسم بالاستجابة المتطرفة فهو « إما أن يقبل الشىء قبولاً مطلقاً أو يرفضه رفضاً مطلقاً بغض النظر عن محتوى الشىء أو معقوليته .

ويفترض روكيتش ، (١٩٦٠) أن الدوجماطيقية نسق معرفى مغلق من المعتقدات ، التى تأخذ اتجاهات متأصلة لدى الفرد ، وتتميز بالعناصر الثلاثة الآتية :

١ - إن كل فرد له معتقداته الخاصة عن الله والوجود ومناشط الحياة المختلفة ، وعلى الرغم من خصوصية معتقدات كل فرد ، والتى قد تختلف عمّا يعتقده الآخرون ، فإنه توجد بعض جوانب الالتقاء التى من خلالها يمكن تعايش الفرد مع أفكار ومعتقدات الآخرين وأن الشخص الذى يرفض التعايش مع معتقدات الآخرين ، شخص مغلق فكرياً وعقائدياً ويدرك معتقداته بوصفها مطلقة ومعزولة عن غيرها من المعتقدات .

٢ - أن الدوجماطيقى شخص تسلطى يؤمن بالقوة؛ ويرى أنها العنصر الحاسم فى تغيير الواقع ، وأن التطور رهين بوجود شخصيات فذة فى مجالات الحياة المختلفة .

٣ – يتسم الدوجماطيقى بالرفض والعداء والنفور من الآخرين الذين يؤمنون بعكس ما يؤمن ويعتقد ويصفهم « بأنهم من الحمقى بسطاء العقول » (روكيتش ، ١٩٦٠ ، ص ٨١ ، ٧٧) .

وتكاد تتفق سمات الدوجماطيقى – كما حددها روكيتش (١٩٦٠) مع ما يقول به نوتا Nauta (١٩٨٤) عن سمات الفاشى ، كما تحددها مدرسة فرنكفورت للبحوث الاجتماعية ، يقول نوتا : « يتسم الفاشى بسمات أربع : على المستوى الأيديولوچى يفرق الفاشى تفرقة حاسمة بين الخير والشر ، وعلى المستوى النفسى ينحاز الفاشى إلى القوة والعنف ، ويحصر المرأة فى الأعمال المنزلية وتربية الأطفال وعلى المستوى الاجتماعى يدعو الفاشى إلى الأخذ بالقيم المتعارف عليها ، وإلى عدم التمرد عليها ، وعلى المستوى السياسى يدعو الفاشى إلى طاعة الدولة وجميع أشكال السلطة .

وهذه السمات الأربع ملازمة للفاشى ، وهى فى جملتها تدفع الفاشى إلى الجمود العقلى وعدم المرونة ، ولا يقف هذا الجمود عند حد المستوى العقلى .. بل يتعداه إلى الحركات الجسمية ، فالفاشى يعشق الأسلوب العسكرى » (ص ٣٥) .

ويخلص نوتا (١٩٨٤) إلى أن البروفيل الفاشى بسماته الأربع تعبير عن العنف؛ لأنه ضحية للعنف ، ولهذا يريد أن يجعل من الآخر ضحية له ، ووسيلته إلى ذلك العنف .

كذلك يقرر اتريا Atreya (١٩٨٤) « أن الدوجماطيقية تعنى ثنائية التفكير القطعى ، وأن الدوجماطيقى يرى الأمور على أنها إما بيضاء ، وإما سوداء ولا ظلال بينهما » (ص٧٥) .

وقد أوضح ماسلو Masolo (١٩٨٤) « إن الدوجماطيقية هى أقوال مطلقة من غير سند أو برهان فهى سلطوية ؛ لأنها مرتبطة بالسلطة ، ومرتبطة كذلك بالذات الإنسانية وانحيازتها ، ومن هذه الزاوية فإن الأيديولوچية دوجماطيقية ، وحيث تكون الدوجماطيقية يكون جمود العقل وانغلاقه » (ص٢٥٤) .

وفى السبعينيات من القرن العشرين ، أكد ويلسون (١٩٧٢) أن الدوجماطيقية تكمن وراء الاتجاهات المحافظة Conservitism والتى يعرفها بأنها « مقاومة التغير ، والاستكانة إلى الأمن بتفضيل ما هو موروث وتقليدى فى المواقف والسلوك » (ص٣) .

وقد صمم مقياساً أبعاده تتمثل فى :

١ – الأصولية الدينية Religious Fundamentalism

٢ – التوجه السياسى اليمينى النزعة Right - Wing Political Orientation

٣ – الإصرار على العقوبات والقواعد الصارمة

Insistance on Strict Rules and Punishment

٤ – اللاتسامح (التعصب) إزاء الأقليات

Intolerance of Minority Groups

٥ – تفضيل ما هو تقليدى فى الفن والملبس والمواقف

Preference for conventional art, clothing and institutions

٦ – النظرة التشاؤمية للمستقبل Anthedonistic out look

٧ – مقاومة ذو النزعة الخرافية للعلم

Superstitious resistance for science

وأضيف إلى هذا المقياس بعداً جديداً هو

٨ – النزعة العسكرية Militarsim

ووضع ويلسون تصوراً لما يمكن أن تكون عليه خصائص شخصية المحافظ اليمينى النزعة بأنه تقليدى (١) ، وتواؤمى (٢) ، مناهض للسعادة (٣) ، تسلطى (٤) ، عقوبى (٥) ، يميل إلى الأخذ بالقصاص (غير متسامح)، عرقى النزعة (٦) ، عسكرى التوجه ، ودوجماطيقى (٧) ، خرافى (٨) يميل إلى الأسطورة والخرافة ، مناهض لما هو علمى (٩) .

وما كتبه ويلسون كان تعبيراً عن حقبة زمنية معينة بتطرف يمينى ديكالى هيمن على مقاليد الأمور فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأشعل حرب الكواكب تحت مسمى نظام دفاعى جديد وبمقتضاه تم تسليح الفضاء الخارجى .

وفى التسعينيات بدا واضحاً أن أشكال الإرهاب التى يموج بها العالم تنطوى على دوجمات ثقافية ؛ أى على أفكار مطلقة تبلغ حد التقديس فى بعض الأحيان .

---

(1) Conventional
(2) Conforming
(3) Antihedoniotic
(4) Authoritarian
(5) Punitive
(6) Miliaristic
(7) Dogmatic
(8) Superstitious
(9) Antiscientific

ولهذا فإن الصلة وثيقة بين الدوجما والإرهاب .

يقول ريبنشتين Rubenstien (١٩٧٢) إن الأرهاب انعكاس لانحيازات أيديولوچية أو سياسية » (ص٤٦) ؛ أى لمنظومات من الأفكار الأيديولوچية والسياسية، فلا إرهاب بغير فكر مغلق وجامد يكمن خلفه ، متخذاً من الترويع والتخويف وسيلة لتحقيق أهدافه ، ولعل فى الرجوع إلى جذور لفظ إرهاب ما يوضح هذه المعانى .

لفظ إرهاب Terrorism مشتق من الكلمة اللاتينية Terrere بمعنى يروع أو يرهب Frighten ، والكلمة ومشتقاتها استخدمت على أنحاء شتى ، بداية من استخدامها كاسم مستعار لوصف شخص فاسد وشرير وحشى الطباع كإيفان الرهيب ، وانتهاء بوصف ما يحدث فى العالم من عنف هنا وهناك ، ويعرف باسم الإرهاب الدولى ، ومروراً بوصف عهود العنف والاضطراب السياسى كعهد الإرهاب أثناء الثورة الفرنسية ، والعنف هو وسيلة الإرهاب ووسيلته لإحداث الترويع وإرهاب الآمنين» (بولز Ploz ، A وآخرون ، ١٩٩٠ ، ص٣) .

وتكاد معظم تعريفات الإرهاب تجمع على أنه شكل من أشكال العنف ، تعرفه الموسوعة السياسية بأنه « استخدام العنف – على نحو غير قانونى – أو التهديد به بأشكاله المختلفة كالاغتيال والتشويه والتعذيب والتخريب والنسف بغية تحقيق أهداف سياسية معينة ، مثل كسر روح المقاومة والالتزام عند الأفراد ، وهدم المعنويات عند الهيئات والمؤسسات ، أو كوسيلة من وسائل الحصول على معلومات أو مال ، وبشكل عام استخدام الإكراه لإخضاع طرف مناوىء لمشيئة الجهة الإرهابية»(ص١٣٥) .

ويعرف ناشرو الموسوعة العالمية الإرهابى بأنه ذلك الشخص الذى يمارس العنف ، ولا يعمل بمفرده ، ولكنه ينخرط فى إطار جماعة أو نظام معين ، وفقاً لاستراتيجية محددة » (ص٧١٩) ، وعلى الرغم من تعدد تعريفات الإرهاب على أنها تدور على أن الإرهاب شكل من أشكال العنف ، يتسم بالخسة والغدر * ويتخذ من

---

* وعلى الرغم من إدانة الإرهاب كعمل يتسم بالغدر والترويع والتخويف والإرهاب ، إلا أننا ينبغى أن نفرق بين الإرهاب والمقاومة المشروعة ولا سيما تلك التى تحدث على الأراضى الفلسطينية ؛ لأنها تتفق ويقين الكتب المقدسة وشرعية قواعد ومبادىء القانون الدولى .

فلم تكن المقاومة الفرنسية السرية التى نشأت إبان هزيمة فرنسا ودخول قوات النازى باريس عملاً إرهابياً وإنما كانت عملاً قومياً يستهدف خلاص الأرض والوطن . وهكذا .

وفى دراسته عن تعريف الإرهاب Definitions of terrorism ، يفرق جاستون بوزول Bou-thoul (١٩٧٢) بين الإرهاب والمقاومة ، مؤكداً أن مقاومة المستعمر مشروعة وأن حركات المقاومة الأوروبية أثناء الاحتلال النازى كانت مشروعة تماماً ، واستطاعت أن توجه ضربات موجعة إلى المحتل النازى » (ص٥٥) .

الترويع والتخويف وسائل لتحقيق أهدافه ، أو أهداف الجماعة التى ينتمى إليها الإرهابى.

والإرهاب بطبيعته مناهض للعقل ، تكمن خلفه أفكار هى التى تعبئ الجماعة بقبول العنف كوسيلة لبلوغ الأهداف .

يقول بوير (١٩٦٩) إن العنف ضد العقل ، وأن العقلانية هى البديل للعنف ، (ص٥٨) وعلى هذا فإن الدوجما من حيث هى أفكار مطلقة وجمود عقل ، وتفكير قطعي يحض على العدوان ، تكمن وراء الإرهاب فى كثير من الأحيان .

ويتضح مما سبق أن الدوجماطيقية ظاهرة إنسانية وأنها تعبير عن « أزمة عصر» ، وأن البحث فى مظاهرها يعنى البحث فى جذور التعصب ، والانغلاق ، وجمود العقل وثنائية التفكير القطعي ، والعدوان والتسلط وتأليه السلطة الواحدة ، الجماعة الواحدة ، والرأى الواحد ، والغاية الواحدة وأنها ظاهرة عالمية ، ليس لها وطن معين ، فلم تكن ألمانيا وإيطاليا وطنها الوحيد ، بل هى ممتدة إلى المكارثية وجماعات كلوكلاكس فى الولايات المتحدة ، وأيضاً فى السلفادور ، وشيلى ولبنان وإيران وجنوب أفريقيا وإسرائيل ، وهى تعبير عن التسلطية العامة ، (روكيتش ، ١٩٦٠ ، شيلز، ١٩٥٤) ومن ثم يمكن دراستها بمعزل عن الأيديولوچية السياسية ، فى حياة الإنسان العادى ، وفى أسلوب تفكيره وكيفية تناوله للموضوعات والأفكار ، فالإنسان المغلق على نفسه ، على ما يعتقد والذى يرى فى أسرته عالمه الأوحد ، والذى يحيا نهباً لمشاعر الخوف وفقدان الأمن ، ويرى فى أفكاره قيمة قصوى ، ولا يستطيع أن يتعايش مع أفكار الآخرين ، ولا يجد بين أفكاره ، وأفكار الآخرين تواصلاً والتقاء هو شخص دوجماطيقى ، يدافع عما يعتقده بعدوان وخوف وتسلط .

والتعريف الذى تتبناه الدراسة يستمد مقوماته مما كتبه روكيتش وغيره من المفكرين والباحثين ، وينص على أن الدوجماطيقية : نسق مغلق من المعتقدات الخاصة بالواقع والحياة ، تنتظم حوله مجموعة من الأفكار الخاصة بقوة السلطة المطلقة ، وتتحول بمقتضى هذا النسق أشد الأفكار تفتحاً إلى منظومة مغلقة لا تقبل الحوار ، ويدافع الدوجماطيقى عما يؤمن بعنف وغضب وعدوان » .

وينطوى هذا التعريف على مقومات ثلاثة :

١ - وجود نسق معرفى من المعتقدات والآراء لدى الدوجماطيقى يتسم بالجمود والانغلاق على ما يعتقد ، والاعتقاد الكامل فى هذه المعتقدات والنظر إلى ما يخالفها على أنه باطل .

٢ - تأليـة السلطة واعتبارها مطلقة ، وقد تكون هذه السلطة؛ سلطة الدولة أو سلطة الحزب الواحد ، أو الرأى الواحد أو الغاية الواحدة أو المؤسسة الواحدة أو النقابة الواحدة ، أو الجماعة الواحدة أو الأسرة الواحدة أو سلطة الأبوين، أو أحد الأبوين ، هو الاعتقاد المطلق بالسلطة أياً كان نوعها ، وتمجيدها والدفاع عنها ، واعتبار الأفكار التى تصدر عنها وكأنها تمثل صفوة الفكر وامتيازه ، ولا يجوز تناولها بالنقد أو الجدل أو النقاش .. إنها تمثل حقيقة مطلقة بذاتها .

٣ - النفور من المعارضين والشعور بالخوف الذى يؤدى إلى العدوان والتسلط تجاه من لا يؤمنون بأفكاره ، وما يعتقد .

دراسات سابقة :

لم يحظ مفهوم التسامح Tolerance باهتمام علماء النفس ، بقدر اهتمامهم بدراسة التعصب ، ولعل ذلك راجع إلى أن التسامح يمثل الجانب المضىء من مسيرة الإنسان الحضارية ، فالتسامح بين الأمم والشعوب والأفراد ، كان وما زال مطلباً إنسانياً عسير المنال ، ولهذا انصب الاهتمام العلمى على دراسة « التعصب » كنقيض للتسامح ، وعن جذور هذا التعصب ، وما ينطوى عليه من مظاهر فى الفكر والسلوك والمواقف وما يرتبط به من تسلط ونزعات عرقية وعنصرية ودوجماطيقية .

وكان من نتيجة ذلك ، هذا الكم الكبير من الدراسات التى تناولت التسلطية والدوجماطيقية والنزعات العرقية والتوجهات المحافظة ؛ فالتسلطية تعبر عن تمجيد القوة ، والحض على العدوان والدعوة إلى سحق الضعفاء ورفض كافة المعتقدات والآراء التى تختلف عما تؤمن به ويعتقد (أدورنو وآخرون ، ١٩٥٠ ، فروم ، ١٩٧١ ميرفى ، ١٩٤٧ ، فرانيس ١٩٩٨ ، شيبازاكى وآخر ، Shibazaki ، ١٩٩٨) .

تتمثل الدوجماطيقية فى جمود الفكر وانغلاقه وثنائية قطعية وتمركز فكرى حول أفكار بعينها دون غيرها من الأفكار « روكيتش ، شيلز ، (١٩٥٤ ، ١٩٦٠ ، ليفريدو وآخر ، Lofferdo ، ١٩٩٧ ، وغيرهم كثيرون) .

وتتمثل أيضاً فى النزعات العرقية التى تقول بتفوق شعب عن آخر أو فئة اجتماعية عن أخرى مستخدمة مقاييس الذكاء لتأكيد نزوعها التعصبى (سيرل بيرت، ١٩٠ ؛ جينسن، Gensen ، ١٩٦٩ ، ايزنك ، ١٩٧٣ ، ريشتون Rushton ، ١٩٩٨ ، دوفيديو Dovidio ١٩٩٨) .

ثم هناك الاتجاهات المحافظة ، سواء أكانت يمينية متطرفة أم يسارية ، بتوجهاتها الدوجماطيقية ودعوتها إلى القوة والتسليح العسكرى ومعاداة الآخرين وما إلى ذلك (ويلسون ، ١٩٧٢ ، Sidanius وآخرون ، ١٩٩٦ ، هيئل Hiel ، ١٩٩٦) .

وفى العقدين الآخرين من القرن العشرين ، بدا واضحاً أن الجمود العقائدى الفكرى تزداد ضراوته ، وأن التعصب والنزعات العرقية تزداد حدتها ، وأن الكوكبية Globalization التى جاءت نتيجة للثورة العلمية والتكنولوجية صاحبتها حروب عرقية وثقافية وتعصبية فى أنحاء شتى من العالم ، فقد أشار « تقرير روما » ١٩٩١ العام إلى أن العالم يمر بمرحلة الثورة الكوكبية ، وهى تختلف عن الثورة الزراعية والثورة الصناعية فى أنها تخلو من وضوح الرؤية ؛ إذ هى تموج بالحركات اللاعقلانية والتعصبية والدوجماطيقية » (ص ١٥٨) .

وقد تمثلت تلك اللاعقلانية ، وذلك التعصب والدوجماطيقى فى حرب الخليج ، وبشاعة التطهير العرقى فى دول البلقان ، والعنف الوحشى فى الصومال ، وعمليات الإبادة الجماعة فى رواندا وظهور الحركات الفاشية الجديدة فى أوربا وتصاعد النزعات التعصبية على نحو غير مسبوق فى إسرائيل (محمد إبراهيم عيد ١٩٩٩ ، ٣٩ - ٤٠) .

وقد اتخذ التعصب منحى نفسيًا ومعرفيًا باتخاذه مفهوم الذكاء لتبرير التمييز العنصرى والتمييز العرقى ، ولعل من بين هذه الدراسات دراسة (ريشتون Rushton، ١٩٩٨ ، دوفيدو Dovidio ، ١٩٩٨) .

فى الدراسة الأولى يستهل ريشتون ١٩٩٨ دراسته بتأكيد ما كتبه جينر ميردل Gunnar Myrdal فى كتابه المعضلة الأمريكية American Dillemma، والذى أوضح فيه أن معضلة أمريكا تكمن فى الروابط العرقية ، فالمجتمع الأمريكى متعدد العرقيات ، متعدد الثقافات متعدد القوميات ، بيد أنه لا يعفى السود من مسئولية التعصب Prejudice والتمييز العنصرى المفروض عليهم من قبل البيض ، فهم أقل من البيض قدرة وإمكانية وذكاء ، وتكمن النقطة المحورية عند ريشتون فى أن المساواة البيئية لا تعتبر دليلاً على المساواة بين الناس ، وأن التباين بين البيض والسود يرجع إلى عدم التكافؤ بينهما فى نسبة الذكاء IQ .

وهذا التباين بين العنصرين مردود إلى أسباب جينية فى الأصل ، ويستشهد ببعض التباينات الفسيولوجية بين البيض والسود ، مؤكداً أن التباين بين السود والبيض يتجاوز نسبة الذكاء إلى التباين فى حجم المخ ، وفسيولوجية الحمل والولادة ، والشخصية ، المزاج ، وسرعة النبض الفيزيقى وطول العمر .

فالتباين بين البيض والسود يضرب بجذوره فى التطور الجينى ، وعلى قمة هذا التباين تقف معدلات الذكاء التى تؤكد امتياز البيض وتفوقهم العنصرى عن السود .

وتمضى هذه الرؤية فى صلفها العنصرى ، مؤكدة أن اللاتسامح ، واللامساواة أى التعصب والتمييز العنصرى ضرورة تحتمها التباينات الجينية وليست البيئية.

وعلى المنحى نفسه كانت دراسة دوفيديو Dovidio وآخر (١٩٩٨) عن طبيعة التعصب المعاصر ، وأسبابه ونتائجه ، وتحديات الكراهية العرقية التى تبلغ حد المقت العرفى Avirsive Race بين الجماعات المتباينة عرقياً .

فى هذه الدراسة يبين الكاتبان أن ثمة إحباطات معاصرة تحاصر السود الأمريكان ، وأن هذه الإحباطات مردودة إلى المكونات العرقية للسود .

وبغية التوصل إلى محددات طبيعة التعصب العرقى وأسبابه ونتائجه وكيف يمكن تحديه ، قام الباحثان بتطبيق استقصاء على عينة قوامها ١٢٠٠ من البيض ، كشفت النتائج أن ١٠ – ١٥ ٪ من أفراد المجموعة البيض ، لا يزالون يشعرون بأنهم أكثر امتيازاً من السود ، وأن التفرقة العنصرية لابد وأن تعود ثانية إلى أمريكا ، وأنهم يتعصبون تعصباً أعمى bigotry للعنصر الأبيض .. ويرجع الباحثان التباين بين البيض والسود إلى أسباب جبلية ، فطرية Innately فالسود من وجهة نظرهما أقل ذكاء من البيض وأن المساواة بينهما غير عادلة . ويرى أن تحدى النزعة العرقية يكمن فى تجاوز الفروق العرقية التى تدعو إلى اللامساواة بين البيض والسود ، غير أنهما يؤكدان أن التعصب الدينى Enthusiasm والتعصب العنصرى ينبعان من موروثات ثقافية .

والحل من وجهة نظره يكمن فى التسامح العرقى rocial tolerance بين الجماعات العرقية المتباينة ، وأن قوة المجتمع تكمن فى محاولته صهر هذه التباينات العرقية فى بوتقة واحدة ، لاسيما وأن أغلبية أفراد العينة كانوا يتسمون بالتسامح والإحساس بالمساواة ، وأن التسامح يتيح ثراءً إنسانياً ويقوى الروابط بين الناس رغم التباين .

ولعل الذكاء من بين الافتراضات المعرفية التى اتخذت لتبرير تفوق شعب على شعب ، أو فئة عن أخرى ، أو جماعة عرقية عن أخرى .

والدراستان السابقتان ، وغيرهما من الدراسات ، ترديد لتلك الدراسات التى افتقرت إلى اليقين العلمى ، والتى تفترض أن الذكاء – وهو محض تصور افتراضى –

وراثى ، وأن القدرة والعبقرية والإمكانة ، جينات وراثية ، يولد البعض وهو مزود بهما .

وبدأت هذه الفكرة منذ هربرت سبنسر ، وجالتون فى كتابه « العبقرية الموروثة» ، وسيرل بيرت الذى زيف نتائج دراسته ، ليؤكد أن الذكاء وراثى بنسبة ٨٠٪ وأنه حكر على الجنس الأبيض دون غيره من الأجناس .

وقد نشر أرثر جنسين Jensen ، تلميذ سريل بيرت فى عام ١٩٦٨ ، دراسة انبرى يدافع فيها عن مقاييس الذكاء ، مفسراً التباين فى نسبة الذكاء بين البيض والسود إلى فروق جينية بين الجنسين ، معلناً أنه مع النظرية الجينية ، ففى رأيه أن الجينات هى المسئولة عن اللامساواة ، وعن التخلف فى التعليم ، ومن ثم فالطبيعة هى العلة الأولى للتمييز العنصرى ، وأن الذكاء موروث بنسبة ٨٠٪ ، وتأثير البيئة لا تزيد نسبته عن ٢٠٪ .

وقد أثارت دراسة جنسين كثيراً من النقد حول وراثة الذكاء ، والتفرقة بين العرقيات على أساس جينى ، ومن أهم العلماء الذين رفضوا آراء جنسين كامين فى كتابه « العلم وبولتيكا قياس الذكاء » بقوله إن قول جنسين بوراثة الذكاء بنسبة ٨٠٪ ليس له أي سند تجريبى ، بل هو قول يؤيد فكرة أن الطبقات الدنيا فى المجتمع هم ضحايا الجينات الوراثية ، ومعنى ذلك أن قياس الذكاء مسألة سياسية ، وأن بنيه قد صمم مقياسه عن الذكاء بناء على تكليف سياسى من وزير التعليم الفرنسى لوضع مقياس يميز الطلاب الذين يعانون من ضعف أكاديمى .

وقد تأثر إيزنك Esyenik بالقول بالحتمية الجينية لمستوى الذكاء ، ولكنه بين منذ البداية وجوب التفرقة بين وراثة الذكاء والفروق الجينية ، والسياسة الاجتماعية المنحازة إلى التمييز العنصرى ، والهدف من ذلك تبرئة نفسه من تهمة الانحياز العنصرى ، ونتيجة لهذه الفكرة أقيمت مظاهرات مناهضة لإيزنك فى بريطانيا وفى سيدنى فى استراليا ، وصفع على وجهه ، وضرب ومنع من إلقاء محاضراته باعتباره فاشستى وداعيه للتفرقة العنصرية بين العرقيات (عبد الستار إبراهيم ١٩٨٧) .

وللباحث الحالى تصور مؤداه أن الإبداع أعدل الأشياء قسمة بين البشر ! .. فالناس يولدون وهم مزودون بقدرات عقلية متميزة ، وإمكانات تتواصل بغير انتهاء وبمواهب شتى ، وخيال خصب ، بيد أن هذه القدرات وهذه الإمكانات وتلك المواهب تظل خبيئة ، أو فى حالة من الكمون ، تحتاج لمن يخرجها إلى حيز التحقيق الخلاق فى الواقع .

وهذا التحقق مشروط بنسق تعليمي متميز ، وبمجتمع يشجع على الإبداع ، وإمكانات اقتصادية تتيح للمواهب والإمكانات أن تتخلق إبداعاً وقدرة .

وتهدف دراسة فرانسيس Francis (١٩٩٧) الكشف عن أبعاد الشخصية كما تقاس بمقياس أيزنك للشخصية ، موضحاً ما تنطوي عليه من روابط اجتماعية لدى منغلقي الذهن من المراهقين ، وعلى عينة قوامها ٧١١ طالباً ، متوسط أعمارهم ١٦ سنة . وتتمثل أبعاد الشخصية عند أيزنك في الانطواء في مقابل الانبساط: الاضطرابات الانفعالية في مقابل الاتزان الوجداني ، والذهانية مقابل الواقعية.

وقد أسفرت النتائج بعد تطبيق استبانة أيزنك للشخصية ومقياس روكيتش للدوجماطيقية ، ومقياس معيار التقدم لرامين ، إضافة إلى استمارة بيانات توضح علاقات الطالب الاجتماعية وعدد مرات ذهابه إلى الكنيسة ، وانضباطه في آداء الصلاة ، ومشاركته في الأعمال المنزلية .

أسفرت النتائج عن أن الطلبة الذين يتصفون بانغلاق الذهن أي بالدوجماطيقية في مستواها العالي أقل في مستوى الذكاء من أقرانهم ، وأن روابطهم الاجتماعية جد ضعيفة ويتصفون بالميول العصابية حيث زيادة الانفعالات والشعور بالقلق والعجز عن التحكم في التقلبات الوجدانية وفقاً لتعريف أيزنك للعصابية ، ولم تسفر النتائج عن وجود ارتباط بين متوسط درجات الدوجماطيقية وصلاة التلاميذ في الكنائس والانبساطية Extroversion .

وفي دراسة ثانية للباحث نفسه (١٩٩٨) عن العلاقة بين الدوجماطيقية وبعدى الشخصية وفقاً لتصور أيزنك ، مستخدماً مقياساً معدلاً لمقياس روكتش هو مقياس دوميرت Dommert للدوجماطيقية ، على عينة قوامها ٨٠ تلميذاً ، متوسط أعمارهم ١١ سنة ، أسفرت النتائج عن أن الدوجماطيقية ترتبط ارتباطاً شديداً بالعصابية ، ولا ترتبط بالانبساطية .

وهذه النتيجة تفسر ما افترضه أيزنك من أن الشخصية الانبساطية تتصرف وفقاً لاندفاع للحظة ، مولعة بالاندماج مع الناس ، عزوفة عن الوحدة ، تتميز بالاندفاع وسرعة الحركة والنشاط ، ولهذا كان الدوجماطيقيون أكثر ميلاً إلى النمط العصابي ؛ لأنهم يفتقرون إلى الضبط الانفعالي ، والاتزان الوجداني ، ويتصفون بالتصلب العقلي وانغلاق الذهن وجموده ، والعيش نهباً لمشاعر التهديد ولاسيما في المواقف التي تتطلب تلقائية في التعبير ، وتسيطر عليهم وساوس قهرية وقلق وتوتر وعزلة .

وتتفق خصائص الشخصية الدوجماطيقية مع الشخصية التسلطية التى تحدث عنها فروم Fromm ، فى كتابه «الهروب من الحرية» (١٩٧١) حيث يصف التسلطيين بأنهم ممتلئون إحساساً بالذنب ، وبتعذيب الذات ، أحياناً بطقوس وأفكار قهرية أشبه بطقوس وأفكار العصابيين القهريين ، وأنهم لا يشعرون بالأمن وممتلئون رعباً بشعور لا يطاق بالوحدة واللاجدوى ، ويحبون الظروف التى تحد من الحرية الإنسانية » (ص١٨٠).

والدوجماطيقية والتسلطية وجهان مضادان للتسامح ، الذى يقوم على الحرية والتباين بين الناس ، والدوجماطيقية والتسلطية يرفضان التباين ، ويتمسكان بالفكرة الواحدة ، والغاية الواحدة ، والرأى الواحد ، ولهذا .. فإن التصلب وجمود العقل والتعصب والعدوان والغضب من مظاهر الدوجماطيقية والتسلط اللذين من شأنهما إفراز الإرهاب.

وعلى الرغم من أن الإرهاب قديم ، إلا أن عصرنا قد شهد أشكالاً متعددة من العنف والترويع والتهديد وسفك دماء الضحايا ، تحقيقاً لأهداف فكرية أو سياسية أو قومية ، وقد ازدادت حدة الإرهاب وضراوته وأصبح ذات طابع كوكبى ؛ لا سيما فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين .

ولعل فيما كتبه ملتيزر Meltzer ، ١٩٨٣ ؛ وبرلشيتن Pearlstien ، ١٩٩١ ؛ ولونج Long ١٩٩٢ ؛ وغيرهم من الكتاب ما يوضح الطابع الكوكبى للإرهاب الذى استطاع أن يستفيد من كل تقدم تكنولوجى ، ومن الثورة المعلوماتية ، ومن التقدم المبهر فى عالم الاتصالات والمواصلات ، واستخدمت المعرفة بكل تقنياتها ووسائلها من أجل أهدافه التدميرية .

يوضح هاريس جوناثان Jonathan ، (١٩٨٣) فى كتابه «الإرهاب الجديد» The New Terrorism أن الإرهاب ذو طابع سياسى ، سواء أكان يساريا أم يمينياً ، وأن الإرهابيين ينشرون الفزع والرعب من خلال خطف الطائرات والسيارات المفخخة ، وأعمال الاغتيال والسطو والسرقة ، وأن المنظمات الإرهابية فى تزايد مستمر ، مستفيدة من طبيعة التقدم العلمى والتكنولوجى ، ولها معسكراتها وأماكن تدريب أفرادها ، والسؤال الملح : كيف يمكن للعالم أن يقاوم الإرهاب الذى يهدد حضارة الإنسان ؟

وفى دراسته عن العنف والإرهاب فى أوروبا ، حاول ملتزر Meltzer ، (١٩٨٣) أن يتتبع مسار العنف السياسى والإرهاب فى القرنين التاسع والقرن العشرين

موضحاً أن الإرهاب قديم قدم الإنسان ، وأن للعنف وسائله ومفاهيمه وأن للإرهابيين تنظيماتهم سواء فى الماضى أم فى الحاضر ، وأن هذا العنف ساد أوربا وأمريكا فى أيرلندا ، وفرنسا وكندا وبلجيكا وإيطاليا وأن جوهر الإرهاب ينطوى على ثلاثة عوامل رئيسية : مصدر العنف ، الجمهور ، الضحايا ، وأن المصاحب الضرورى للإرهاب هو الخوف وأن الغاية القصوى هى التهديد .

وفى كتابه عصر الإرهاب The Age of Terrorism يوضح والترليكور La-queur (١٩٨٧) أننا نعيش فى عصر الإرهاب، وإن الإرهاب يجتاح كل شيء ، وإن الإرهابيين يلجأون إلى العنف من أجل الإثارة ، ولهذا يختارون العروض العنيفة المبهرة كعمليات الاختطاف التى تنظم دوليًا ، ويشارك فيها أفراد من مختلف الدول ، أما أخبار قتل أصحاب النفوذ فإنها تحتل العناوين الرئيسية ، وتتناقلها وكالات الأنباء ، والأقمار الصناعية .

ويضرب أمثلة بجماعة الجيش الأحمر RAF ، وجماعة بادرمانيهوف ، فى ألمانيا الغربية ، والجيش الجمهورى الأيرلندى ، إضافة إلى الجماعات الإسلامية فى إيران وبعض دول الشرق الأوسط .

وفى محاولة لتشريح ماهية الإرهاب The Anatomy of Terrorism حاول ديفيد لونج (١٩٩١) أن يقدم تحليلاً متعدد الأبعاد لمكونات الإرهاب وعناصره وأبعاده، نفسياً ، واجتماعياً ، وسياسيًا ، واقتصادياً ، بيد أنه أوضح على نحو خاص ما تنطوى عليه الهويات العرقية القومية من دوافع لتأكيد وجودها الذى طمسته الأيديولوجيات ، ووحدته فى كيانات قومية رغماً عنها ، الأمر الذى أدى إلى شيوع الإرهاب تأكيداً للهويات الثقافية .

وفى محاولة للوصول إلى تحليل لشخصية الإرهابى ، بين بيرلشتين Pear Lstien (١٩٩١) أن مفتاح شخصية الإرهابى تكمن فى « النرجسية » ، تلك التى تجعله يدمر نفسه ويدمر الآخرين ، وأن الاستعلاء والإحساس بالقوة والقدرة على النيل من الآخرين ، والغدر بهم هو الطابع المميز للإرهابى ، وأن الإرهاب ينطوى على نزعة عدمية وتدميرية .

ويشير معجم العلوم الاجتماعية إلى أن لفظ إرهاب « يشير إلى نوع خاص من الاستبداد غير المقيد بقانون أو قاعدة ، ولا يعير اهتماماً بمسألة أمن ضحاياه ، وهو يوجه ضرباته والتى لا تأخذ نمطاً محدداً إلى أهدافه المقصودة بهدف خلق جو من الرعب والخوف وشل فاعلية ومقاومة الضحايا » (ص ٧١٩) .

وعلى الرغم من إدانة الإرهاب كفعل يتسم بالخسة والغدر ويستهدف الأبرياء.. إلا أننا لابد وأن نفرق بين الإرهاب والمقاومة المشروعة ، كمقاومة الشعب الفلسطيني للاحتلال الصهيوني التي تستمد شرعيتها من الدفاع عن الحق والأرض والمقدسات ، وتنطلق من مبادىء وقواعد القانون الدولي ، أمام محتل مراوغ ، مناهض للسلام ، سجله الإرهابي ممتد وتاريخي ، في دير ياسين ، وقبية ، وكفر قاسم ، وصبرا وشاتيلا، والمسجد الأقصى ، الحرم الإبراهيمي ، وقانا .

وفي دراسته عن الشيوعية كديانة Communism as religion يوضح Mcfarland (١٩٩٨) أن الشيوعية كأيديولوجية ، تعالت فوق مبدعيها وتحولت إلى دوجما .. إلى معتقد .. إلى ديانة لها طقوسها وأفكارها المطلقة ولها توجهاتها المتعصبة .

ولمعرفة توجهات الماركسية في سلوك الناس ، صمم الباحث مقياساً أطلق عليه « الأصولية الماركسية» محدداً في ضوء مجموعة من العوامل تتمثل في : الاتجاه العنصري تجاه اليهود ، المسيحيين ، النساء ، الشواذ جنسيًا ، والمنشقين سياسيًا ،على عينة قوامها (١٣٧) عضواً من أعضاء الحزب الشيوعي الروسي .

أسفرت نتائج دراسته – بعد مقارنة نتائج دراسته بدراسات أجريت على أصوليين مسيحيين أمريكان – أن ثمة علاقة بين النمط العرقي Genotypic والأصولية Fundamentalism والتوجهات الدينية وأن التعصب وليد هذه العلاقة ، سواء كان لدى المسيحية الأمريكية أو الشيوعية .

وفي دراسته بعنوان « الطيور على أشكالها تقع » دراسة مقارنة للعلاقات ضمن عرقية Intra ، والعرقية المتبادلة Inter Ethnic وعلى عينة قوامها ٧٤ من الإناث ، ٢٦ من الذكور .

اتخذ الباحثان شيبازاكي ، Shibazaki ، وبرينان Brennan ، (١٩٩٨) من التغيرات الثقافية المصاحبة للأنماط العرقية أساساً لدراسة الروابط ضمن العرقية أو العرقية المتبادلة لدى مجموعة من أزواج الأفراد ، قوامها ٧٤ من الإناث ، ٢٦ من الذكور.

وقد أوضح الباحثان أن التسامح نقيض التعصب ، وأن التعصب يأتي ملازماً للروابط العرقية المغلقة .

وأسفرت النتائج عن أن التشابه العرقي يؤدي إلى عرقية متبادلة وأن الشك يأتي نتيجة لاختلاف العرقيات ، وأن التسامح ينتشر بين أبناء العرق الواحد على نحو أشد من أبناء العرق المغاير .

وعن الاتجاهات المحافظة Conservatism تدور دراسات (ميهرابين Mehra-bian، ١٩٩٦ ، سيدنيوس Sidanius ، ١٩٩٦ ، هيئل Hiel ، ١٩٩٦) .

وتدور دراسة Mehrabian ، (١٩٩٦) حول محاولة فهم العلاقة بين الاتجاهات السياسية وسمات الشخصية ، من خلال تحديد المتناقضات التى تتمثل فى النزعة التحررية Libertarianism ، والنزعة المحافظة ، وتمثلت بعض نتائج الدراسة فى أن النزعة التحريرية والديكتاتورية Totalitarianism ضدان لا يلتقيان ، وأن الاتجاه المحافظ مناهض للاتجاه الليبرالى .

وهذا راجع إلى أن الاتجاه المحافظ يتضمن الإصرار على الأنماط الثقافية الجامدة ، التى تتصف بالجمود الذهنى والدوجماطيقية وتنطوى على تسلط ، وأن الاتجاه المحافظ يرتبط بالاتجاهات الاستبدادية ، وأن الخصائص النفسية المصاحبة للاتجاه المحافظ تتفق وخصائص الشخصية التسلطية .

وأسفرت نتائج دراسة Sidanius وآخرين (١٩٩٦) ، عن العرقية والمحافظة والأفعال الإيجابية والسوفسطائية العقلية عن وجود علاقة ارتباطية بين المعتقدات السياسية والنزعة العرقية ، وأن الاتجاه اليمين المحافظ غالباً ما يكون مناهضاً للسود ، كعرق له وجود ، وأن ثمة ارتباطاً عالى المستوى بين المحافظة والعرقية والرغبة فى الهيمنة والسيطرة على الآخرين .

وفى محاولة للكشف عن أبعاد الشخصية والمعتقدات السياسية المعاصرة بين هيئل Hiel (١٩٩٦) وآخرين أن ثمة علاقة بين المعتقدات السياسية المعاصرة والشخصية ، على عينة قوامها ٣٢٨ طبق عليهم مقياس المعتقدات السياسية ، الذى أسفر عن مجموعة من العوامل بعد إخضاعه للتحليل العاملى ، تمثلت فى : المحافظة العامة ، التدخل العسكرى المبكر ، العدالة فى تحصيل الضرائب ، والرفاهية الاجتماعية .

وقد قام ليفريدو وأمزو ، Leffredo & Omizo (١٩٧٩) بدراسة تهدف الكشف عن الفروق بين حالة الأنا ووجهة الضبط ، والدوجماطيقية لدى عينتين من الطلاب الأفرو أمريكان والأنجلو أمريكان قوامها ٤٠ من السود ، ٤٠ من البيض تتراوح أعمارهم من ١٧ – ٢٧ ، وقد طبق عليهم بطارية من المقاييس ، تمثلت فى :

مقياس حالة الأنا (إعداد الباحثين) ، مقياس وجهة الضبط (روتر) ، ثم مقياس الدوجماطيقية (روكيتش) .

وقد أسفرت النتائج عن أن الطلبة الذين يتمتعون بوجهة ضبط جوانية النزوع ، يثقون فى قدراتهم على المبادأة واقتحام المجهول ، ويؤمنون بأن السعى والمثابرة والعمل هم معايير النجاح وليس الصدفة أو الحظ ، ومن ثم يتصفون بقوة الأنا ، فى حين أن الطلبة الذين يستمدون تقديرهم لذواتهم من وجهة ضبط برانية النزوع ، يتسمون بالخوف من المجهول ، وعدم القدرة على المبادأة ، والإيمان بالصدفة والحظ، ومن ثم فإن الأنا لا تتسم بالقوة التى هى معيار السواء للشخصية .

وقد أكدت النتائج أيضاً أن الطلبة الذين يتصفون بوجهة ضبط جوانية النزوع ، يتصفون بالمرونة العقلية والمرونة التكيفية ، ولا يتصفون بانغلاق الذهن وجموده والتمركز على الذات .

وعلى الضد من ذلك ، كان الطلبة الذين أكدت النتائج أن وجهة الضبط عندهم لا تستمد مقوماتها من قوة الأنا ، فإنهم يتصفون بالدوجماطيقية والنتيجة المحورية التى بلغ إليها البحث أنه لا توجد فروق جوهرية بين السود والبيض باستخدام تحليل التباين المتعدد MANOVA فى كافة متغيرات الدراسة .

وهذه الدراسة تتفق ووجهة النظر التى تؤكد وهم التصور الجينى للتمييز بين الناس ، مؤكدة أن الفروق والتباينات بين الناس مردودة إلى مكونات الشخصية وأساليب التعليم ومعطيات البيئة ، وليست مردودة إلى الفروق الجينية .

المراجع

١ – جون لوك (١٩٩٨) : رسالة فى التسامح ، ترجمة منى أبو سنة ، مكتبة الأنجلو المصرية .

٢ – عبد الوهاب الكيالى وآخرون (١٩٨٥) : الموسوعة السياسية ، (ط٢) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

٣ – كارل بوبر (١٩٩٩) : نحو عالم أفضل ، ترجمة أحمد مستجير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

٤ – محمد إبراهيم عيد (١٩٩٩) : علم النفس الاجتماعى ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة .

٥ – مراد وهبه (١٩٩٩) : ملاك الحقيقة المطلقة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

المراجع الأجنبية

6 - Adorno, T., Brunswik, E., Levinson, J., Stanford, N. (1950) . The Authoritarian Personality, Harport, New York.

7 - Allport, G. (1958). The Nature of Prejudice, Garden City. Addison - Westy Publishing Company, U.S.A.

8 - Andreski, S. (1954) . Authoritarianism, in Could J., & Kolt, W. (Eds) . A Dictionary of The Social Sciences, New York, Unesco Press.

9 - Arnold, T. (1988) : The Violence formula, Lexington Books, U.S.A.

10 - Atreya, J. (1984) . Dogmatism in religion, in : Roots of Dogmatism, The Anglo _ Egyptian Bookshop, Cairo. PP 47 - 66 .

11 - Bolz, F, Dudonis, K., Schulz. (1990) The Conuter - Terrorism Handbook, Elsevier, New York, U.S.A.

12 - Bouthoul, G. (1972) : Definitions of terrorism, International Terrorism and world Security.

13 - Brunswik, F. (1959) : Intolerance of ambiguity as an emotional and perceptual personality variable, Journal of Personality, 18, 108 - 143 .

14 - Drever, J. (1968) . A Dictionary of Psychology, Penguin Books. London.

15 - Dovidio, J., Gaertner, S. (1998). On the nature of contemporary prejudice : The Causes, consequences, and challenges of aversive racism, in : Eberhardt, J., (Ed) (1998). Confronting racism: the problem and the response, Sage Publications, U.S.A.

16 - Empricus, S. (1985). Selections From the Major Writings, Avatar Book, U.S.A.

17 - Eysenck, H., Wurzburg, R. (1972) : Encyclopedia of Psychology, Vol (3). Search Press, London.

18 - Eysenck, H. (1973) . Eysenck on extraversion, New York Wilen.

19 - Eysenck, H. (1974) . Tough-mindedness; In Robinson, J., Shaver, P. (1974) : Measures of Social Psychological Attitude, Michigan, Michigan Press, PP 415 - 417 .

20 - Fromm, E. (1971). Escape From Freedom, New York, Avon Books.

21 - Francis, L. (1998). Dogmatism and Eysenck's two dimensional model of personality revisited, Personality - and - Individual - Differences, Apr, Vol 24 (4) 571 - 573.

22 - Francis, L - (1997). Personal and Social Correlates of the "closed mind' among 16 year old adolescents in England, Educational Studies, Nov, Vol 23(3) : 429 - 437 .

23 - Freud, S. (1975) . Civilization and its Discontent, London.

24 - Gould, J., (1964) . A Dictionary of the Social Sciences. Tavistock Publications Limited, London.

25 - Hiel, V., Mervield, I. (1996) : Personality and current political beliefs, Psychological - Belgium, Vol 36 (4) : 221 - 226 .

26 - Honderich, T. (1995). The Oxford Companion To Philosophy, Oxford, New York, Oxford University Press (204) .

27 - Jonathan, H. (1983) : The new terrorism; politics of violence, School Library; Journal, Vol 29, p. 76, April.

28 - Kohn, P. (1972). The Authoritarianism - Reblellion Scale : A balanced F scale with left - wing reversals. Sociometry, 35, 176 -189.

29 - Kohn, P. (1974). Authoritarianism, rebelliousness, and their correlates among British undergraduates, British Journal of Social and Clinical Psychology, 13, 245 - 255.

30 - Laqueur, W. (1987) : The age of terrorism. The Economist. Vol. (303) 91, June 27.

31 - Leffredo, D. (1998). The relationships among ego states, locus of control and dogmatism transactional - Analysis- Journal. Apr, Vol 28 (2) : 171 - 573.

32 - Lee, R., & Warr, P. (1969). The development and Standardization of a balance F Scale, Journal of General Psychology, 81, 18, 109 - 129.

33 - Long, D. (1990): The anatomy of terrorism Library, Journal, v115, P113, July.

34 - May, R., (1982). Anxiety and values. In Spielberger & Sarson. Stress and Anxiety, Hemisphere Publishing Corporation, New York, Vol, (8) 13-21.

35 - Mckfarland, S. (1998): Communism as religion, International - Journal - for - the Psychology of Religion. Vol 8 (1), 33 - 48.

36 - Mehrabian, A. (1996). Relations among political attitudes, personality and psychopathology assessed with new measures of libertarianism and conservatism, Basic - and - Applied - Social - Psychology, Dec, Vol 18 (4): 469 - 491.

37 - Meltzer, M. (1983). The terrorists. Bulletin of the centre for children's Books.

38 - Moss, R. (1977): The Collapse of democracy, Abaws, London.

39 - Murphy, G. (1947). Personality: A Bio - Social Approach, New York.

40 - Nauta, L. (1984). Dogmatism and their critic a philosophical inquiry into the roots of rigidity. In : Roots of Dogmatism, The Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo, P23 - 46.

41 - Pearlstein, R. (1991). The mind of the political terrorist, Library Journal V (116) b, P172, June.

42 - Poper, K., (1969). Conjectures and Reputations, London.

43 - Rubestein, G. (1996): The relationship between - therapeutic authoritarianism and social attitudes, Megamot, June; Vo 137 (4). 435 - 453.

44 - Rushton, J. (1998): The American dilemma in world perspective in Taylor, J., et - al (1998). The real American dilemma : Race, immigration, and the future of America (pp. 11 - 30). Oakton, New Century Books, U.S.A.

45 - Rokeach, M., (1970). The Nature and Meaning of Dogmatism, Penguin, London.

46 - Rokeach, M., (1960). The Open and Closed Mind, Basic Book, New York.

47 - Sidanius, J., Pratto, F., Bobo, I. (1996). Fascism, conservatism, affirmative Action, and intellectual sophistication: Amatter of principled conservatism or groupe dominance, Journal - of - Personality and Social Psychology, Mar, Vol., 70 (3) 476 - 490 .

48 - Shibazaki, K., Brennan, K. (1998). When birds of different feathers block together. A preliminary comparison intra - ethnic and inter ethnic dating relationships (1998). Journal of Social - and - Personal - Relationships, Apr, Vol, 15 (2): 248 - 256.

49 - William, L., *et al* (1967). The Shorter. Oxford Dictionary, Oxford University, London.

50 - Wilson, G., & Patterson, J. (1968). A new measure of Conservatism. British Journal of Social and Clinical Psychology, 7, pp: 264 - 269.

الفصل السابع

* السلوك الاجتماعى بين الوراثة والبيئة
* القيم .
* الإشاعة.

موضوعات نفس اجتماعية

الفصل السابع
السلوك الاجتماعى بين الوراثة والبيئة

ثمة مشكلة محورية فى علم النفس ، تدور حول دور الوراثة والبيئة فى تشكيل سلوك الإنسان الاجتماعى ، وقد استحوذت هذه المشكلة على اهتمام العلماء باعتبارها مشكلة محورية وجوهرية فى تفسير سلوك الإنسان الاجتماعى وفى نموه الفيزيقى وفى تطوره الاجتماعى ونزوعه النفسى وتبايناته الثقافية والقيمية .

وانقسم العلماء إلى قسمين : أحدهما مؤيد ومدافع عن دور الوراثة فى تكوين السلوك الاجتماعى والقدرة والإمكانة والنمو الإنسانى بكافة مظاهره ومفاهيمه ، والآخر مناهض لهذا الدور ومؤكد دور البيئة فى تشكيل السلوك ولمعان المعرفة ، وبزوغ القدرة والإمكانة .

وانبثق فريق ثالث يؤمن بجدلية العلاقة بين الوراثة والبيئة فى تشكيل السلوك الاجتماعى للإنسان ، وأن الإنسان هو ذلك الائتلاف الفريد الذى يتكون من زاد جينى يولد الإنسان وهو مزود به ، وأن وجوده وتطوره ناتج عن تفاعل دائم ومستمر مع محددات البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وأن من شأن هذا التفاعل الجدلى أن تتحقق إنسانية الإنسان وأن تبزغ إمكاناته ، وأن تتشكل قيمة وأنماط سلوكه الاجتماعية ، وبغير هذا التفاعل الجدلى بين محددات الوراثة ومحددات البيئة ، يستحيل أن يكون الإنسان إنساناً وأن تكون القدرة قدرة، والإمكانة إمكانة ، فالتفاعل بين ما هو جينى وما هو بيئى هو الذى يتيح للقدرات أن تتفتح وللإمكانات أن تبزغ معبرة عن نفسها فى مواقف اجتماعية وإنسانية ، وفيما يلى تفسير ذلك .

الوراثة والبيئة : Heredity & Environment

إن التفاعل بين الوراثة والبيئة شرط ضرورى لنمو الإنسان من حيث هو كائن فريد له إمكاناته وقدراته وخياله وسلوكياته الإنسانية .

فدون الوراثة يصبح السلوك الإنسانى أمراً مستحيلاً ، ودون البيئة التى تزودنا بالمثيرات والأحداث والمواقف المتباينة – تصبح الاستجابة أمراً غير قائم .

والإنسان هو ذلك الائتلاف الفريد من الجينات الوراثية ، التى تمنحه هذا التباين فى الاستعدادات والنمو الطبيعى والقدرات ، بيد أن هذا التمايز مردود إلى تلك

التفاعلات التى تحدثها البيئة المحيطة بالإنسان ، والتى من شأنها أن تؤثر على نموه ، حتى وهو مجرد نطفة فى قرار مكين .

والتساؤل المحورى الذى يمثل قضية جدلية فى تاريخ علم النفس هو : هل الوراثة هى المسئولة عن التباين فى عالم البشر أم البيئة ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل انقسم علماء النفس إلى ثلاثة أقسام ، كل قسم يمثل وجهة نظر مباينة للآخر .

الفريق الأول : ويمثله غلاة القائلين بالحتمية الوراثية Genetic Determinism ويرون أن الاختلاف بين البشر مردود إلى الاختلاف فى الجينات الوراثية ، وأن النمو ما هو إلا عملية تابعة لهذا المخطط الجينى الفريد .

الفريق الثانى : ويمثله غلاة القائلين بالحتمية البيئة Environmentlist وهم يرون أن الفروق الفردية فى العقل والمعرفة والشخصية والعمل .. ما هى إلا نواتج للتعلم والخبرة المكتسبة ، وأن الاختلافات فى نوعية البيئة مردودة إلى أن البشر غير متساويين ولهذا يعلن واطسون (١٩٢٤) « أعطنى أى إنسان ، وعلى نحو عشوائى ، وسأجعل منه إنساناً متخصصاً وفقاً للنمط الذى سوف أحدده وأختاره .

الفريق الثالث : وهو يمثل الاتجاه الدينامى بين الفريقين ، حيث يرجع الفروق بين الناس إلى التفاعل بين محددات الوراثة ومحددات البيئة ، فهناك القليل ، بل القليل جداً ، من الخصائص الإنسانية التى ترجع إلى محددات الوراثة : مثل لون العينين والشعر .. إلخ ، وإن هذه الخصائص فى صميمها جوهرية وثانوية فى آن واحد، وأن التفاعل بين الوراثة والبيئة فى عالم الإنسان هو المسئول فعليّا وواقعياً عن كافة الاختلافات فى عالم البشر .

ويميل كاتب هذه السطور إلى القول بجدلية التفاعل بين الوراثة والبيئة ونضرب على ذلك مثلاً بالمصرى القديم الذى هبط من أواسط إفريقيا ، واستطاع أن يطوع النهر العظيم لإرادته ، وأن يبنى على ضفافه حضارة عريقة ضاربة بجذورها فى عمق الزمان ، ولم تستطع أى دولة أخرى من الدول التى يمر بها نهر النيل أن تبنى على خضر روابيه حضارة مثلما فعل المصريون القدماء .

ولهذا أصاب شفيق غربال حينما قال : « إن مصر هبة المصريين » وكان فى ذلك يرد بعد ألفى عام أو يزيد على قول هيرودوت المأثور : « إن مصر هبة النيل » .

فثمة علاقة جدلية – إذاً – بين الإنسان بمحدداته الوراثية والبيئة بكل محدداتها الطبيعية .

ومع هذا ، فإن القائلين بجدلية التفاعل بين الوراثة والبيئة يرجحون عوامل الوراثة بوصفها تمثل الحد الأعلى لما يمكن أن يحققه الإنسان ، بينما البيئة تؤثر فى نوعية الدرجة التى يمكن أن تحققها الإمكانات Potentiolities فها هو جنسين Gen-sen (١٩٦٩) يعلن أن العوامل الوراثية تسهم فى ٨٠٪ من ذكاء الفرد ، بينما تسهم البيئة فى ٢٠٪ من هذا الذكاء (Burns وآخر ١٩٨٣) .

وهنا ينبغى علينا أن نحدد معنى الوراثة ومعنى البيئة :

أولاً : الوراثة :

يبدأ تأثير الوراثة منذ الإخصاب Fertilization فى رحم الأم والإخصاب نتاج خليتين تناسليتين تصدران عن شخصين مختلفين إحداهما تصدر عن الأب وهى النطفة والأخرى عن الأم وهى البويضة .

والخليتان التناسليتان مختلفتان كل الاختلاف من حيث الحجم والشكل فالخلية الذكرية « الحيمن » مزودة بذيل طويل ، وتبدو غاية فى النحافة والرشاقة إذا ما قورنت بالبويضة التى تبدو على هيئة كرة ساكنة لا تتحرك ، ولا تنتج المرأة منها إلا واحدة كل شهر أما الحيمن فهو نشيط ويسبح برشاقة فى السائل المنوى .

البويضة يمكن رؤيتها بالعين المجردة (قطرها ٢/١٠ ملم) أما الحيمن فلايمكن رؤيته إلا تحت مجهر قوى ، إذ لا يتعدى طوله ٧٠/١٠٠٠ ملم أو ميكرون . أما حجمه فيبلغ جزءاً من حجم البويضة .

وبويضة الأم المخصبة تتحول إلى بيضة ثم تبدأ عملية الانقسام الخلوى للبيضة حيث تنقسم إلى قسمين كل قسم منها ينقسم إلى قسمين وهكذا .. حتى تتشكل سلسلة من الانقسامات الثنائية ، مئات آلاف ملايين الخلايا التى يتركب منها جسم الكائن الجديد .

والبويضة المخصبة تحتوى على ٤٦ من الصبغات أو الكروموزمات Choro-mosomes وتحتوى هذه الكروموزومات على الجينات Gens ، وهذه الجينات هى التى تحمل الاستعدادات الوراثية ، وكل كروموزم يحتوى على ١٠٠٠ جين ، ومعنى ذلك أن كل الخصائص البدنية التى يرثها الطفل عن أبيه وأمه توجد فى هذه الكروموزمات الست والأربعين بعد اللقاء الجنسى بين الرجل والمرأة ، بمعنى أن الجينات الوراثية هى التى تحدد لكل كائن ما سيكون عليه من حيث طول القامة ولون البشرة ولون العينين ووزن البدن وما إلى ذلك .

وثمة حتمية وراثية لها قوانين ترتكز إليها ، لعل من أهمها :

١ - قانون (الوراثة النوعية) ، وهو قانون مطلق لاستقرار الأنواع ، فكل كائن حي يلد كائنا من نوعه ، فالبيضة الإنسانية لا يخرج منها إلا كائناً إنسانياً، كما أن بيضة الحيوان لا يخرج منها إلا حيواناً .

٢ - قانون (الوراثة العرقية) ، وهو قانون لا يعرف الشذوذ ، فمن بيضة مخصبة من إفريقى وإفريقية يخرج مولود أفريقى ، ومن بيضة أوربية التخصب يخرج مولود أوربى .. وهكذا .

٣ - قانون (الوراثة الفردية) ، وهذا القانون يتحدث عن الصفات الوراثية التى تنتقل إلى الجنين من والديه أو أجداده ، وهذا يعنى أن عدداً كبيراً من الصفات الوراثية الفردية مقرر فى البيضة المخصبة ، وأن هذه البيضة تخضع للحتمية الوراثية بالنسبة للفرد ، كما تخضع لها بالنسبة إلى النوع وللعرق ، وتبدو قوة هذه الحتمية الوراثية بوضوح تام عند دراسة «التوائم البشرية» .

ومعلوم أنه يوجد نوعان من التوائم ، أى من الأفراد المولودين ، من وضع واحد أحياناً يخرج التوأمان من بيضتين مختلفتين أنتجتهما الأم وأخصبت كل واحدة منهما على حدة ، وهما « التوأمان الكاذبان » اللذين ليسا سوى أخوين نموا جنباً إلى جنب فى رحم واحد ، ولا يشبه أحدهما الآخر أكثر مما يشبه أحد الأخوين العاديين أخاه الآخر .

أما الفئة الثانية فهى « التوائم المتماثلة » فتنتج عن انشطار بيضة واحدة ومن ثم يتشابهان تشابهاً كبيراً، ويبالغ علماء «الحتمية الوراثية» فيؤكدون أن الوراثة لا تقتصر على وراثة الصفات البدنية والعرقية والنوعية فحسب ، بل تتعدى ذلك إلى وراثة ما يطلق عليه اسم «الذكاء» وهو موروث بنسبة ٨٠٪ ، أما ٢٠٪ الباقية فهى تأثير البيئة .

وفى محاولة لتتبع مسار مفهوم الذكاء ، وكيف أن العلماء استخدموا هذا المفهوم لخدمة أهداف عرقية ، كتب مراد وهبة (١٩٩٦ ، ص ٤٣ - ٥٢) إن هربرت سبنسر كان أول من انشغل بدراسة الذكاء في إطار البيولوجيا متأثراً بنظرية التطور عند دارون . فالحياة عند سبنسر ، تقوم في تكيف العلاقات الجوانية مع العلاقات البرانية تكيفاً متواصلاً . والفضل في ذلك فى رأيه ، مردود إلى الذكاء ، ثم نشأت اختبارات الذكاء فيما بين ١٨٩٠ - ١٩١٠ وكانت الغاية منها الكشف عن ضعاف العقول وعزلهم عن الأسوياء ثم تدريبهم تدريباً يناسب مستوياتهم العقلية الضعيفة . وقد

أجرى هذه الاختبارات كل من بيل وإتارد . بيد أن كلا منهما قد انتهى إلى القول بأنه لا جدوى من تدريب ضعاف العقول . أما سجوين ، تلميذ إتارد ، فقد انتهى إلى نتيجة مخالفة لرأى أستاذه ، وهى أن ثمة تقدما يحدثه التدريب يدور على إمكان فهم المتدرب لبعض الألفاظ المكتوبة ومعرفة مدلولاتها المادية وفهم بعض الأوامر التى يتلقاها من مدربه . ومن ثم أنشأ مدرسة لضعاف العقول فى باريس عام ١٨٣٧ . وفى عام ١٨٤٩ تأسس معهد لضعاف العقول فى ماساشوستس .

ثم بدأ قياس الذكاء مع فرنسيس جالتون الذى حاول فيه تطبيق نظرية التطور عند دارون على تطور المجتمع فقسمه إلى طبقات وأجناس عليا وطبقات وأجناس دنيا. والغاية من هذا التقسيم منع الطبقات والأجناس الدنيا من الانتساب إلى الجنس البشرى . وتأسيساً على هذه الغاية وضع جالتون قياساً للذكاء يقيس به الاستجابات الحسية للإنسان مثل التمييز بين الأثقال ، والنغمات الموسيقية ، والحرارة والبرودة ، واهتمامه بالاستجابات الحسية مردود إلى سببين :

السبب الأول : هو أن الذكاء فى رأيه فيزيقى ، وبالتالى له علاقة بالقدرات الفيزيقية .

والسبب الثانى : إن الأفعال المنعكسة الفيزيقية غير مكتسبة بالتعلم ، ومن ثم ينبغى أن تكون هى مضمون قياس الذكاء .

ثم جاء بينيه ورفض قياس جالتون للذكاء ؛ لأن المعطيات فى رأى بينيه ، ليست كافية للتفرقة بين الأفراد ، ولأن الذكاء ، فى رأيه ، عبارة عن استجابة الفرد للمواقف التى تستلزم عمليات عقلية . ومن ثم تجاوز التشخيص الفيزيقى إلى قياس القدرة العقلية تجريبيًا ، فصاغ مجموعة من الاختبارات العقلية فى عام ١٩٠٥ والمعروفة باسم قياس بينيه – سيمون للذكاء . والغاية من هذا القياس هو معرفة حالة الطفل المتوسط ، ولهذا صممت الاختبارات فى هذا الإطار بحيث يقال عمّن يحصل على درجة أقل من درجة الطفل المتوسط إنه طفل متخلف . ثم طور بينيه قياسه فى عام ١٩٠٨ فحدد لكل عمر مجموعة من الأسئلة التى تلائمه ، وانتهى إلى فكرة العمر العقلى ، وهى تدل على مستوى الطفل العادى بالنسبة لذلك العمر . ومن ثم تكشف عن الغباء والعبقرية . فالطفل الغبى هو الذى يزيد عمره الزمنى عن عمره العقلى ، والطفل العبقرى هو الذى يزيد عمره العقلى على عمره الزمنى . وانتقل قياس بينيه إلى إنجلترا لدى سيرل بيرت بتأثير من جالتون .

وكان والد بيرت الطبيب المعالج لجالتون . وقد بدأ بيرت فى تطبيق اختبارات

الذكاء عام ١٩٠٩ ، ورأيه أن الذكاء وراثى . ثم انتقل إلى أمريكا لدى ترمان والذى عدله وأطلق عليه اسم « تعديل ستانفورد » نسبة إلى جامعة ستانفورد ..

وفى عام ١٩٢٦ ألقى بيرت أربع محاضرات فى جامعة برشلونة ، بناء على طلب من صديقه عالم النفس اميليو ميرا ، تدور على مسألة مهمة تخص العلم وتطبيقاته ، وهى مسألة التطور العقلى للذكاء . ودراسة الذكاء فى رأى بيرون ، مطلوبة من أجل تقدم التعليم والمناهج التعليمية . وقد انتهى إلى أن الذكاء هو حل المشكلات حلاً صحيحاً . بيد أن الحل فى حاجة إلى دافع . والدافع ، فى رأيه هو المنفعة ، والمنفعة قد تكون حب الذات للتفوق على الآخرين ، وقد تكون التعاطف مع الآخرين ، وقد تكون الاستطلاع ، ومعنى ذلك كله ، فى رأى بيرون ، أنه ينبغى النظر إلى الذكاء لا على أنه قدرة مجردة ، وإنما على أنه فى حالة فعل غير آلى ؛ لأنه يواجه مشكلات جديدة فى حاجة إلى حل .

وقد واكبت هذه الأبحاث عن الذكاء نبرة من الشك فى اختبارات الذكاء من قبل علماء النفس البيولوجيين بسبب ارتيابهم فى إمكان إدخال مصطلحى الذكاء والغريزة فى نسق نظرى . وأثارت تساؤلات ظلت بلا جواب ، مثل ذلك : هل ثمة تمايز بين الذكاء والغريزة من حيث إنهما وسيلتان للمعرفة؟

وهل للعقل الذكى أساس غريزى ؟

وهل الفعل الغريزى محكوم بالذكاء ؟

وبفضل هذه التساؤلات عقد علماء بريطانيا ندوتين لبحث العلاقة بين الذكاء والغريزة . وانتهت الندوتان من غير فهم متبادل بين هؤلاء العلماء .

فانعقدت ندوة ثالثة فى اكسفورد عام ١٩٢٣ ، ولكنها كانت أكثر اضطراباً من الندوتين السابقتين إذ تنوع مفهوم الذكاء وتعدد . وكان كيركباتريك قد عبر فى عام ١٩١٢ عن هذا الاضطراب عندما قال : « أنا لا أعتقد أن اختبار الذكاء أو أية اختبارات أخرى نقوم بتصميمها فى هذا القرن يمكن أن تكون معتمدة » .

وقد نحسم الرأى فى مفهوم الذكاء إذا تساءلنا عن مكونات اختبارات الذكاء . فإذا تساءلنا : هل اختبارات الذكاء تنطوى على عنصر التذكر ؟

كان جواب ترمان حذف هذا العنصر من الاختبارات الجماعية ، ولكنه يرى أن الذاكرة ليست مرادفة للذكاء وإن كانت تبدو كذلك .

وإذا تساءلنا : هل الخيال من عناصر الذكاء ؟ كان جواب كل من شترن

وكلاباريد أن الخيال خارج منطقة الذكاء . وإذا تساءلنا : هل تؤدى اللغة دوراً فى بزوغ الذكاء ؟ رأى بعض علماء النفس أن اللغة معوق فى اختبارات الذكاء .

ونخلص من ذلك إلى أن من شأن هذا الاضطراب أن تمتنع معه معرفة مكونات الذكاء . فهل يدلل ذلك الاتجاه على تحديد مفهوم الذكاء ؟ جوابى أننا لن نعثر فى هذه الحالة إلا على اضطراب آخر . وهذا الاضطراب الآخر مردود إلى سببين :

السبب الأول : هو جهل علماء النفس بطبيعة الذكاء ، وإذا هم يتحدثون عن مظاهر الذكاء وليس عن الذكاء فى ذاته ، الأمر الذى يفضى إلى التشكك فى مفهوم الذكاء .

والسبب الثانى : أن تعريفات الذكاء أيا كانت يمكن أن تكون تعريفات للعقل . وإذا كان من سمات التعريف الدقيق أن يكون جامعاً مانعاً فمعنى ذلك أن أى تعريف للذكاء لن يكون كذلك . فإذا قيل عن الذكاء إنه القدرة على التكيف فالعقل قادر على ذلك . وإذا قيل عن الذكاء إنه القدرة على التفكير المجرد على حد قول ترمان ، فمعنى ذلك أن العقل غير قادر على ذلك ، وحقيقة الأمر أنه كذلك . وإذا قيل عن الذكاء إنه القدرة على استنباط العلاقات والمتضايفات على حد تعبير سبيرمان ، فالعقل يقوم بذلك . إذاً ليس ثمة مبرر لهذه القسمة الثنائية بين العقل والذكاء . ومن ثم ينبغى ، منطقياً الاكتفاء بمفهوم العقل .

وقد يقال إنه إذا كان التعريف الجامع المانع للذكاء ممتنعًا ، فليس أمامنا سوى البحث عن تعريف إجرائى للذكاء ، وهو أن الذكاء هو ما تقيسه اختبارات الذكاء . بيد أن هذا التعريف الإجرائى لا يصلح للتعبير عن طبيعة الذكاء ؛ لأن هذه الاختبارات تقيس مجهولاً . ومن هنا تناقضت اختبارات الذكاء .

وإذا تساءلنا : ما الغاية من اختبارات الذكاء تعددت الإجابات . ولكن مع تعددها يمكن حصرها فى ثلاث : قد تكون الغاية معرفة الأنحاء المتباينة لسلوك الذكاء. وقد تكون معرفة العلاقة بين العوامل البيولوجية والسلوك الذكى ، وقد تكون محاولة الكف عن علاقة اختبارات الذكاء بالحياة الثقافية ، وعن التباين بين الأفراد فى علاقتهم الاجتماعية . ومغزى هذه الإجابات إن الغاية من اختبارات الذكاء تتجاوز الذكاء ذاته إلى محاولة الكشف عن العلاقة بين البيولوجيا والثقافة والمجتمع . والبيولوجيا ترمز إلى ما هو فطرى أو وراثى ، أما الثقافة والمجتمع فيرمزان إلى ما هو مكتسب .

ومن هنا بدأ جدل حول ما إذا كان الذكاء مركباً جينياً أم لا ؟ .

وكانت بداية هذا الجدل مع صدور كتاب جالتون المعنون « العبقرية الموروثة» ١٨٦٩ ، ولكن الجدل ازداد حدة بزعامة سيرل بيرت وآرثر جنسن وهانس إيزنك.

فقد أثار سيرل بيرت مسألة العلاقة بين الوراثة والبيئة ، أو على حد قوله ، بين الطبيعة والتربية ، وتأثير كل منهما على الذكاء ، وقد أثار برت هذه المسألة فى إطار بحثه عن التخلف العقلى والأحداث والعصاب والنقص العقلى . وانتهى إلى أن الوراثة تؤدى دوراً رئيسياً فى مسألة التباينات الفردية فى الذكاء .

أما آرثر جنسن فقد نشر مقالاً فى مجلة هارڤارد التربوية عام ١٩٦٩ عنوانه «إلى أى مدى يمكن تأييد قياس الذكاء ، وتطبيقه فى المدارس؟ أعلن فيه أنه مع النظرية الجينية وضد النظرية البيئية . ففى رأيه أن الجينات هى المسئولة عن اللامساواة وعن التخلف فى التعليم . ومن ثم فالطبيعة هى العلة الأولى للتمييز العنصرى . وتأسيساً على ذلك يقرر جنسن أن التفكير الذى هو جوهر العملية التعليمية لا يعلم ، وأن الذكاء موروث بنسبة ٨٠٪ وتأثير البيئة لا يزيد عن ٢٠٪ ، ومن ثم يصبح التعليم ترفاً ؛ لأنه لا يحد ث أى تغير . وقد دار جدل حاد حول هذا المقال فى «الجمعية البريطانية من أجل المسئولية الاجتماعية للعمل» بحضور جنسن وأصحاب النظرية البيئية . ثم صدر الحوار فى كتاب بعنوان « البيئة والوراثة والذكاء » .

وفى عام ١٩٧١ نشر ريتشارد هرنشتين مقالاً بعنوان « قياس الذكاء » ينبه فيه العلماء إلى النتائج السياسية والاجتماعية لهذا الحوار . وينقد كلاً من الإعلان الأمريكى للاستقلال ، والمنفستو الشيوعى من حيث إنهما ينشدان تأسيس مجتمع لا طبقى على الرغم من تباينهما فى خطة إنجاز هذا التأسيس ، ثم يردف هرنشتين قائلاً : إن اختبار الذكاء ضد هذا التأسيس ؛ لأن اللامساواة هى سمة ضرورية لأى مجتمع .

وفى عام ١٩٧٢ صدر ما يقرب من مائة وعشرين مقالاً على مقال جنسن . وفى عام ١٩٧٤ نشر ليون كامين كتاباً بعنوان « العلم وبوليتيكا قياس الذكاء يجيب فيه عن سؤال واحد : هل نسبة الذكاء موروثة ؟

جواب الرأى العلمى الشائع أن الذكاء موروث بنسبة ٨٠٪ ، أما كامين فيرى أن هذا الرأى ليس له سند تجريبى ، وهو مردود إلى الالتزام بوجهة نظر اجتماعية محددة وهى أن الطبقات الدنيا هم ضحايا الجينات . ومعنى ذلك أن قياس الذكاء مسألة سياسية . ولا أدل على ذلك ، فى رأى كامين ، من أن قياس بينيه للذكاء كان بناء على تكليف من وزير التعليم العام يطلب فيه من بينيه وضع قياس يسمح باكتشاف

الطلاب الذين لديهم ميول أكاديمية ضعيفة حتى يمكن إلحاقهم بمدارس خاصة . وكل ما فعله بينيه هو أنه وضع اختباراً للتمييز بين الضعف العقلى المكتسب والفطرى . ثم اقترح تدريبات علاجية للذين يحصلون على نسبة مئوية ضعيفة فى اختبار الذكاء. ولهذا حرر بينيه فصلاً عنوانه « تنمية الذكاء » جاء فيه أن الذكاء كمية ثابتة غير قابلة لتنمية واضحة .

ونخلص من ذلك إلى عدم الفصل بين بوليتيكا اختبار الذكاء ، وعلم اختبار الذكاء .

ويبقى بعد ذلك إيزنك الذى تأثر بكل من بيرت وجنسن فى القول بأن الذكاء مورث بنسبة ٨٠٪ ، أما نسبة ٢٠٪ الباقية فهى من تأثير البيئة ، وبالتالى تأثر بهما فى القول بفكرة الحتمية لمستوى الذكاء . ولكنه بين منذ البداية وجوب التفرقة بين وراثة الذكاء والتباينات الجينية ، والسياسة الاجتماعية المنحازة إلى التمييز العنصرى ، والغاية من هذا البيان تبرئة نفسه من احتمال اتهامه بأنه عنصرى . وفى هذا الشأن قد عرف العنصرى بأنه هو الذى ينظر إلى الأجناس الأخرى بكراهية وعدم ثقة ، ويضعهم فى مكانة دنيا . أما الداعى إلى المساواة فهو الذى يشعر بالألفة مع الأجناس الأخرى ، وهو الذى لا يريد أن يكون متعالياً عليهم ، وعلى الرغم من أنه يبرىء نفسه إلا أنه يقرر أن ثمة تراجيديا على النمط اليونانى قائمة فى التناقص بين الاعتماد الأخلاقى فى المساواة بين البشر ، واللامساواة الوراثية . والتراجيديا هنا تكمن فى أن هذا التناقض ضرورى ، وتأسيساً على ذلك ينتهى إيزنك إلى ضرورة الفصل بين القيم الأخلاقية ، والوقائع العلمية .

واعتقد أن إيزنك فى هذا الفصل بين القيمة والواقعة متأثر بالوضعية المنطقية التى سادت فى إنجلترا بعد كتاب الفريد إير المعنون « اللغة والصدق والمنطق » والذى أعلن فيه مبدأ التحقيق ، وينص على أن معنى قضية هو نفسه طريقة تحقيقها ، أى إنه نفسه إمكان الرجوع بها إلى ما جاءت تصوره ، بمعنى إننا إذا وجدنا أنفسنا إزاء قضية لا نجد لها من وقائع العالم من تطابقها ، حذفناها من جملة الكلام المفهوم . وحيث إن القضايا الأخلاقية تعبيرات عن العاطفة فهى ليست صادقة ولا كاذبة .

ثانياً : البيئة

مما سبق يتضح أن الوراثة ليست نوعية وعرفية فحسب ، بل وفردية بمعنى أن البيضة الإنسانية قد اتخذت منذ تكوينها طابعها المنفرد ، فالكائن الإنسانى من نواح عدة ، محدد فى البيضة الإنسانية . ويستحيل علينا أن نتهرب من هذه النتيجة الأولى

عندما نلاحظ الشبه الغريب ، الذى يكاد يكون مطابقاً بين توأمين خرجا من بيضة واحدة، بيد أننا لابد من أن نقرر دفعاً لأى التباس ، أن الكائن لا يوجد فى الجرثومة فى حالة القوة . فلا يوجد فى البيضة أى جزء من الكائن أو أى عضو من أعضائه ، ولا تستطيع أقوى المجاهر أن ترى فى البيضة ما يشبه الكائن الإنسانى .

فمثلاً لون العينين مقرر فى البيضة ، غير أنه لا يوجد فى البيضة لا عين ولاتخطيط عين ، ولا شىء آخر يمكن أن يقال عنه إنه سيصبح عيناً أو سيسهم فى تكوين عين ، وكل ما نعرفه هو أن البيضة تحتوى على بعض العناصر أو بعض المواد التى من شأنها أن تجعل العين تتخذ خلال نموها هذا اللون أو ذاك .

وبين المرحلة « البدائية » للبيضة والمرحلة النهائية لشخص له عينان سوداوتان أو عينان زرقاوتان تجرى سلسلة من الأحداث المعقدة ، أو من التفاعلات الكيمائية ، مازال العلم يجهل كنهها .

وهذا حال جميع الصفات وجميع أعضاء الجسم .

وخلال فترة التكوين هذه أو فترة النمو التى تمتد بين مرحلة الإمكانات الجرثومية ، والمرحلة التى يتم فيها تكوين الصفات الجسدية قد تتدخل عوامل خارجية تتمثل فى البيئة ، وتؤثر قليلاً أو كثيراً فى تكوين الفرد .

والبيئة التى تؤثر فى نمو الجنين ليست البيئة الخارجية فحسب ، بل هناك البيئة الرحمية ، التى ينمو فى داخلها الجنين ، حيث يتغذى ويتشكل ويتخلق مخلوقاً إنسانياً داخل هذه البيئة ، ثم بعد تسعة أشهر يخرج من هذه البيئة الرحمية إلى البيئة الخارجية بما يكتنفها من عوامل طبيعية وجغرافية تؤثر على الجنين تأثيراً لا يستهان به.

ها هنا يكون الدور الذى تقوم به البيئة هو « تفعيل » الصفات الوراثية ، التى قد تختلف اختلافاً كلياً بالنسبة لهذه الصفات .

فمثلاً لون العينين لا نعرف عاملاً قادراً على تعديله فى اتجاه معين.

فلون العينين مقرر سلفاً فى البيضة كما هو الحال فى بعض الصفات الأخرى ، وهنا تبدو شروط البيئة عاجزة كل العجز والوراثة هى كل شىء ، ولكن إلى جانب هذه الحالة المحددة تحديداً دقيقاً والتى لا تحتمل أى تحفظ نجد حالات أخرى تؤثر فيها البيئة – داخلية وخارجية – تأثيراً لا يستهان به فلون الجلد يتأثر بالأشعة الشمسية وعوامل المناخ الذى يعيش فيه الإنسان . وطول القامة لا يتعلق بالعوامل الوراثية وحدها بل يتعلق كذلك بكمية التغذية التى يتلقاها الفرد فى حداثته وخلال نموه ،

وبقدر ما يتعلق طول القامة بالهرمونات وبخاصة الهرمونات التى تفرزها الغدة الدرقية والغدة النخامية.

ونتيجة لعوامل البيئة الخارجية فإن التوأمين اللذين خرجا من بيضة واحدة قد يكون أحدهما أطول قامة من الآخر والآخر أقصر قامة إذا أصيب فى حداثة سنه بأحد الأمراض .

وإذا انتقلنا من التكوين المادى إلى التكوين العقلى والخلقى الذى يتكون ببطء وتحت تأثير من عوامل التنشئة الاجتماعية ، فإن الدور هنا يكون للبيئة ، فهى التى تمنح الوليد الخيال والضمير الخلقى ، والقدرة العقلية .

من هنا نستطيع أن نقول إن الوراثة والبيئة يسهمان معاً فى تكوين الكائن الإنسانى، ويتعاونان تعاوناً وثيقاً ويتداخلان إلى درجة أنه يصعب التفريق بين ما يعود لهذه وما يعود لتلك .

وتزداد صعوبة هذا التمييز من جراء اختلاف كائنين إنسانيين اختلافاً كبيراً سواء فى أصلهما الجرثومى ، أو فى تطورهما الفردى إلا إذا كانا توأمين يتمتعان بوراثة واحدة ، وكما أن كل إنسان ينشأ عن بيضة خاصة فإنه ينمو أيضاً فى بيئة خاصة ، فالناس يختلفون من حيث تاريخهم كما يختلفون من حيث أصلهم .

وهناك من المفكرين من يرفضون الحتمية الوراثية والبيئة ويرون أن الوراثة والبيئة لا تكفيان لتفسير الإنسان بكامله ، ويتركون مجالاً لعامل مجهول لتفسير الفوارق الإنسانية التى لا تأتى عن البيئة ولا عن الوراثة .. يقول بول كوديير : إذا كان ثمة شيء كحرية الاختيار مثلاً ، بأعمق ما فى هذه الكلمة من معنى ، فإننا نضعه تحت عنوان هذا العامل المجهول واعتبر أن نكران هذا العامل المجهول ليس من العلم بشيء .

وتأسيساً على كل ما سبق ، يحاول علماء البيئة تحسين البيئة وحمايتها من التلوث أو الفناء مما فى باطن الأرض، وفى قاع المحيطات، وفى أفلاك السماء من أسلحة للدمار والفناء، إضافة إلى تلوث البيئة من جراء تلوث المدن بأدخنة المصانع وعوادم السيارات، والاستخدام المسرف للمبيدات الحشرية وما إلى ذلك من وسائل تلوث البيئة التى تهدد سلامة النسل ، وتقلل من خصوبة المرأة ، وقوة الرجل على إنتاج الحيامن.

ثم هناك البيئة الرحمية ، والتى تعنى حمايتها حماية الجنين من التشوهات ومن الضعف ، ومن الإصابة بالإعاقة السمعية أو المخية أو البصرية ، وما إلى ذلك

من تشوهات ، أما علماء الوراثة فيحاولون دراسة الوسائل التى من شأنها تحسين النسل.

وقضية تحسين النسل شغلت الإنسان منذ قديم الزمان ؛ فالإغريق لم يعبروا عن فكرة تحسين النسل بالقضاء على الأطفال المولودين بعيوب وتشوهات عند الإسبرطيين فحسب ، بل عبروا عن ذلك فى كتاباتهم ، ففى جمهورية أفلاطون وضع خطة لتحسين النسل ، فالغاية من الجمهورية المثالية أن تؤسس على زيجات مفيدة للدولة ، تحتوى على العناصر القوية والتى تتمتع بخبرة فى تربية كلاب الصيد وجوارح الطير .

وفى اليوتوبيا اقترح « توماس مورروس » أن يخضع المقبلون على الزواج لفحص طبى شامل – أما « كمبانيلا » فقد دعى إلى إنشاء « وزارة للحب » تسهر على الزواج وعلى إنجاب الأولاد.

وفى مقدمة قانون سويدى ، صدر فى عام ١٧٥٧ ، ما يحرم الزواج بين شخصين مصابين بالصرع .

وفى كتابه « سلالة الإنسان » يدافع « دارون » عن تحسين إرادى للنسل بقوله:

«على الجنسين أن يعدلا عن الزواج عندما يجدان فى نفسهما نقصاً جسدياً أو عقلياً ، غير أن تعبيرنا عن هذا الأمل يعنى تعبيرنا عن مجرد وهم ؛ لأن هذه الآمال لن تتحقق ، ولو جزئياً ، مادامت قوانين الوراثة غير معروفة لدينا» .

وأسس جالتون عام ١٨٧٠ علم تحسين النسل الذى جعل له غايتين : عرقلة تكاثر المولودين بعاهات ، وهذا هو التحسين السلبى ، وتحسين النوع بتشجيع تناسل أكثر الأشخاص جدارة ، والعناية بنسلهم وهذا هو التحسين الإيجابى .

وفى عام ١٩٠٤ افتتح جالتون معملاً لتحسين النسل ، وأصدر أول دراسة قومية عن تحسين النسل .

وفى العصر الحديث ثمة قوانين تتخذ للتعقيم ، ولإيجاد الوسائل التى من شأنها تحسين النسل ووقايته من التلوث ، ومن وراثة الإعاقات العقلية أو الحسية أو الحركية.

القيم VALUES

« نظريات القيمة لا تظهر إلا فى اللحظات التى يقل فيها الشعور بالقيمة . فنحن نحيا فى عالم يمكن مقارنته بالكهف الذى يتحدث عنه أفلاطون فى جمهوريته. وهو كهف لا يرى المسجونون فيه إلا صوراً مسطحة منعكسة على حائط . إن العالم الحديث ليس شيئاً سوى هذا العالم السطحى الذى لا نرى فيه عمق الأشياء».

« جان فال »

«القيم موضوعات لمملكة أخلاقية مثالية لها بنيانها الخاص ، وقوانينها الخاصة، ونظامها الخاص ، وترتبط هذه المملكة ارتباطاً عضوياً بمملكة الكائن المنطقى ، والرياضى ، وبمملكة الماهيات الخالصة الأخرى »

«هارتمان»

«إن الإنسان مدين للمجتمع بما يكون إنسانيته العليا ، ومدين له بكونه يتذكر ، ويخترع ، ويفكر ، ويحكم ، ويستدل ، ويتجاوز الواقع للارتفاع إلى أشكال المثالى المتعددة ، فإذا ألغينا الحياة الاجتماعية زال كل شىء يميز الإنسان عن أشد الحيوانات ضراوة» .

«هوبيرو بروها»

فى معنى القيم

إن لفظ قيمة Value يدل أصلاً على اسم النوع من الفعل « قام » بمعنى وقف واعتدل وانتصب وبلغ واستوى .

وهذه اللفظة لاتينية الأصل ، يدل معناها على القوة والصحة ، وتتضمن فكرة الفعالية ، والتأثير والشجاعة والمثالية فى الفعل والأداء . ومن العبارات الشائعة التى تدل على القيمة وصف الإنسان أو الشىء المستقيم وتفيد معنى الاعتدال والاستقامة كما يقول اللغويون .

ولقد اعتاد الفلاسفة والمفكرون أن يصنفوا القيم إلى عقلية ، وجمالية ، وأخلاقية، يمثلها حسب ترتيبها الحق، والجمال ، والخير .

وتتنوع المفاهيم الخاصة بمعنى القيم ، باختلاف الأطر المرجعية الخاصة بالمفكرين أنفسهم ، فالبعض يرى فى القيمة معنى للمثل العليا ، ومن ثم تكون القيم معيارية ، أى موضوعات لما ينبغى أن يكون عليه الشىء ، ومن ثم فهى شىء مفارق، ومجاوز لنا ، نسعى إلى بلوغه ، ولكن بدرجات تتسم بالسعى والجدية وتجاوز الذات لبلوغ القيمة فى الفكر والسلوك والمواقف .

والبعض ينظر إلى القيم باعتبارها دليلاً على « المنفعة » التى نراها للأشياء ، وأن قيمة الشىء تعنى أن له منفعة ، تجذبنا إليه ، وتجعلنا نسعى إلى بلوغ هذه المنفعة .

والقيمة قابلة للتعرف ؛ لأنها تفرض نفسها على الإنسان ، فالقيمة قيمة مهما كان موقف الإنسان منها .

والقيم فى حد ذاتها ليست مطلقة بل نسبية ، تتباين بتباين الأفراد وفقاً لتصوراتهم الثقافية وأبنيتهم الاجتماعية ، وطبيعة النشأة والتربية التى من خلالها نبت الفرد ونما على نوع من القيم التى عليه أن يبلغ إلى درجات منه ، دون أن يبلغه بمعنى الإطلاق .

ولهذا فإن القيم تسمو بنا وتجملنا ، وتبتعد بنا عن اللامبالاة التى تظهر عند الإنسان ، ويكون الاندفاع إليها موجهاً ؛ لأن أحد قطبيها إيجابى يجذبنا إليه والآخر

سلبى يبعدنا عنه .. ولهذا فإن الحكم على القيم يتسم بثنائية قطبية تتمثل فى : حكم الوجود وحكم القيمة .

حكم الوجود هو حكم نعبر فيه عمّا هو موجود بالفعل ، وما هو متحقق بالفعل.

أما حكم القيمة فإنه يعبر عما ينبغى أن يكون؛ لأنها تنشد المثالية والكمال ومعانى الاستقامة والقوة والشجاعة كمعان مفارقة للإنسان ، تتجاوزه وتدفعه إلى تحقيقها أو بلوغ بعض درجاتها . وهذا هو معنى استقلال القيمة . أما نسبية القيم فمعناه أنها محتملة ومتغيرة وقائمة فى الزمان ونابعة من وعى الإنسان .

ثم أن القيم لها طابع اجتماعى ، فكما يقول بروها Bruhat فى معرض حديثه عن القيم من منظور اجتماعى من وجهة نظر دوركايم « إن الإنسان مدين للمجتمع بما يكوّن إنسانيته العليا ، ومدين له بكونه يتذكر ، ويخترع ويفكر ويحكم ، ويستدل ، ويتجاوز الوقائع للارتفاع إلى أشكال المثالى المتعددة ، فإذا ألغينا الحياة الاجتماعية زال كل شىء يميز الإنسان عن أشد الحيوانات ضراوة» .

وهذا مردود إلى أن المجتمع هو صاحب الدور الأساسى فى تكون حياة الأفراد الذهنية ، والاجتماعية ، والنفسية ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن القيم التى تنبت فى المجتمع تصبح شيئاً مجاوزاً للإنسان ومفارقاً عنه .

يقول دوركايم: « إن الفكر الموضوعى ظهر لأول مرة ، عند الإنسان فى صورة الفكر الجماعى ، وأن الأخلاق تبدأ حيث يبدأ التعلق بالجماعة ، وأن المجتمع هو الذى يتكلم فينا حين يتكلم الضمير» .

فكل مجتمع له ثقافة متميزة . وهذه الثقافة تتشكل من أنساق القيم والأفكار والعادات والرموز ، واللغة وأيضاً ما يبدعه الإنسان من أشكال جمالية وفنية ، وتعايش الفرد مع ثقافة المجتمع يعنى تعامله مع أنساق قيم مجتمعه ، بيد أن هذا التعايش لاينبغى أن يتصف بالسكون والمواءمة المطلقة ، بل لابد وأن يتسم بالحركة والمحاولة المستمرة لتجاوز ما يمكن تجاوزه فى الطريق إلى التقدم وتنقية ما ينبغى تنقيته من عادات وتقاليد لبلوغ معنى القيمة كمعنى قائم بذاته .

ويتسم مجتمعنا بإطار قيم ممتلىء مستمد من القيم الروحية والأخلاقية والعقلية والجمالية، ولهذا ينبغى على الشباب أن يلتزموا بهذه الأطر المرجعية فى الفكر والسلوك والمواقف ، ولكن فى سعى دائم لتغيير وجه الواقع على نحو يجعله متطوراً ومتقدماً ومزدهراً ، وهذا التقدم وذلك التطور يكون دائماً قائماً على الوعى الحقيقى

بمنظومة القيم التى تحكمنا ، والتى تجعلنا نعلو بأنفسنا وبطاقاتنا الإنتاجية والجمالية والأخلاقية إلى أقصى قدر نستطيع إليه سبيلاً .

فالعمل قيمة ، والاقتصاد قيمة ، والجمال قيمة ، والخير قيمة ، واليقين فى جدوى كل عمل من شأنه أن يرتفع بنا قيمة ، وعلينا أن نسعى لبلوغ القيمة .

تصنيف القيم

لئن كان الفلاسفة اتخذوا من الحق والخير والجمال معايير لما يمكن أن يكون عليه السلوك الإنسانى فى سعيه صوب سواء الفعل والسلوك والمواقف ، فإن علماء النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد يضيفون إلى هذا التصنيف الثلاثى للقيم ، تصنيفات ، تعطى لكل منشط من مناشط الإنسان قيمة ، هى معيار للحكم عليه ، ومقياس مدى كفاءته وجودته ومعناه ودلالته ، كالقيمة الاقتصادية ، والقيمة الاجتماعية ، والقيمة الفنية والمهنية وهكذا ..

وتتصف هذه القيم بأنها ملزمة للسلوك والعمل ، ويقاس عليها الفعل ومن ثم فهى بوصلة توجيه وإرشاد لكل منشط من مناشط الإنسان فى الحياة .

القيم الروحية :

قمة القيم جميعاً ، مطلقة غير نسبية ، فهى الحق بالإطلاق والخير بالإطلاق والجمال بالإطلاق ، يستمد الفرد منها أسس بنائه العقائدى فى عروجه صوب مكارم الأخلاق ، تتصف بقوة دفع إلى السواء والإبداع الذى هو جوهر وجود الإنسان ، وإلى حرية التفكير والتعامل بالحسنى واحترام الآخر وسنتخذ من القيم الروحية فى الإسلام دليلاً على تلك المعايير ، التى قاعدتها الإيمان بالله وبرسله وملائكته واليوم الآخر ، والبعث والحساب والجنة والنار والغيب والقدر .

التسامح فى الفكر والاعتقاد الذى تؤكده بعض الآيات القرآنية .

بقوله تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴾ (سورة هود ، الآية (١١٨) .

يقول تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (سورة يونس ، الآية (٩٩) .

يقول تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ (سورة البقرة ، الآية (٢٥٦) .

ومعنى هذه الآيات أن الإيمان بالإسلام ثمرة لحرية الإرادة الإنسانية ، وأن إرغام الناس وقهرهم على اعتناق الإسلام منافٍ لإرادة الله .

ثانياً : بين القاعدة والقمة مستويات من القيم ، توضح ما يمكن أن يكون عليه السلوك فى نزوعه صوب مكارم الأخلاق ، وهى : العبادات ، والعلاقات الاجتماعية ، والقيم الاخلاقية ، (الصبر ، الصدق والعدل والامانة والعفة والقوة فى سبيل الحق .. الخ) ، وعلاقات أسرية (الإحسان للوالدين وحسن المعاشرة بين الأزواج .. الخ) ، وقيم عملية ومهنية (الإخلاص فى العمل وإتقانه ، والسعى بجدية إلى تحصيل المعرفة والرزق .. وقيم شخصية (كالقوة والنظافة والطهارة) ، وقيم عقلية (التفكير فى الكون وخلقه ، وطلب المعرفة والعلم ، والبحث عن الحقيقة ، حرية الفكر والاعتقاد) .

ثالثاً : فهذا البناء القيمى يمثل خصائص أخلاقية تدفع بعضها البعض إلى مكارم الأخلاق ، وتظل القاعدة الإيمانية الأساس المحرك لكافة القيم جميعاً.

رابعاً : مصر كبلد لها ثقافة مصرية استمدت مقوماتها من « ثوابت جغرافية ، منحتها ذلك الموقع الفريد بين الأمم ، » ومتغيرات تاريخية ، تتصف بالتنوع ، فقد كانت مصر مطمعاً للغزاة عبر التاريخ ، وموروثات ثقافية تراكمت عبر العصور ، ومازالت تنصهر فى مواقف الحياة اليوم ، فأنساق القيم والعادات والتقاليد ظلت راسخة ، رغم تعدد الغزوات ، ورغم دينامية التحول من دين إلى آخر ، ورغم تغير اللغة من هيروغليفية إلى قبطية إلى عربية .

وانسياق القيم هذه تمثل كلاً ديناميًا قاعدته : قوة الاعتقاد الذى يمثل حجر الأساس فى هذه الثقافة منذ بدايتها ، فالحضارة المصرية كانت حضارة دينية ، تؤمن بالبعث والخلود والحساب ، وقمتها التسامح ، فمصر أطول مستعمرة فى التاريخ (٥٢٥ق.م – ١٩٥٤م) ، تكالب عليها الغزاة من كل صوب (الفرس ، الرومان ، البطالمة ، الفتح الإسلامى ، الأمويون ، والعباسيون ، والفاطميون ، والأيوبيون ، والمماليك ، والأتراك ، وفرنسا ، وبريطانيا) غير أنها كانت تملك خاصية الاحتواء والتمصير – Egyptiani zation لكافة الثقافات الأخرى ، ولهذا عاشت بالفكر والوجدان والسلوك معنى التسامح رغم التباين.

خامساً : إن مصر مسلمون ومسيحيون كتلة سكانية متجانسة ، فضيلتهم الدين لله والوطن للجميع ، ويشتركون فى قاعدة إيمانية واحدة هى أم القيم بالإطلاق وهى قوة الاعتقاد .

وظائف القيم :

ينحصر بعض هذه الوظائف فيما يلى :

– القيم بوصلة توجيه تضىء لنا الطريق أمام السلوك القويم فى الحياة وفى العمل وفى العلاقة بين الإنسان ونفسه والإنسان والآخرين .

– القيم معايير تحدد ما ينبغى أن يكون عليه السلوك والفعل والمواقف.

– القيم قوة دفع لا رد لها نحو الإيمان ، والسعى والعمل الجاد والإخلاص فى الأداء وعفة النفس وتجاوز الإحباط فى الطريق إلى حياة أفضل .

– القيم أشبه ما تكون بالنجم القطبى الذى نسترشد به ولكن لا نستطيع بلوغه. ومن ثم فقيمة الشيء تكمن فى جدية السعى إلى بلوغه .

– القيم تضفى على حياة الفرد والمجتمع والأمة قيمة ودلالة ومعنى .

– القيم هى التى تعبئ الناس بقوة دفع نحو الأهداف النبيلة فى العمل والسلوك والمواقف .

– القيم هى السعى إلى السلوك القويم والعمل الجاد وتجاوز الضعف الإنسانى والاستمساك بكل ماله معنى وقيمة ومحاولة بلوغه .

– القيم موضوعات لما ينبغى أن يكون عليه الفعل الإنسانى ، ومن ثم فهى شرط ضرورى يمنح الإنسان إحساساً قوياً بإنسانيته وقيمته .

الإشــــاعة

الإشاعة قديمة قدم الإنسان ذاته ؛ لأنها شكل من أشكال التعبير الإنسانى ، تنبع من المجتمع أو من خارجه ، وتوجه إلى المجتمع ذاته ، تنتشر داخل المجتمع انتشاراً سريعاً كاندلاع النيران فى الهشيم فى أوقات الدراما الاجتماعية . فحينما يوجد ضغط اجتماعى تتزايد المقولات الزائفة بصورة كبيرة ، ولاسيما حينما تكون المعلومات المرئية والمسموعة والمقروءة عن موضوع بعينه ناقصة أو غير كاملة ، أو أن هذا الموضوع يبدو غامضاً ومحيراً ، وفى أوقات الحروب تقوض الإشاعات الروح المعنوية، وتهدد الأمن القومى ، بنشرها أخباراً وهمية لا صحة لها .

والإشاعة : هى كل قضية أو عبارة نوعية أو موضوعية ، تنقل من شخص إلى آخر ، عادة بالكلمة المنطوقة ، فى غيبة معايير أكيدة للصدق .

وتتضمن الإشاعة دائماً ، فى رواجها وانتشارها شيئاً من الحقيقة ، محدد الهوية تدور حوله الإشاعة ، سواء أكان إنساناً أم هيئة أم بلداً أم مؤسسة أم جامعة أم كلية ..إلخ.

والسمة المركزية للإشاعة تنحصر فى أن ازدهارها واندلاعها يكون مردوداً إلى غيبة المعايير الأكيدة للصدق ، فالعلم ووفرة المعلومات ووضوحها بغير لبس أو غموض ، وعلى نحو لا يضر بالأمن والسرية العسكرية ، من شأنه أن يقف سداً منيعاً دون انتشار الإشاعات .

وتروج الإشاعات وتنتشر تحت وهم كلمات مثل « سمعت من مصدر موثوق.» «أعتقد أن .... » «يقولون .... » إلى آخر هذه الكلمات التى تفتقر إلى الدقة والوضوح وتجد آذاناً صاغية ، تزيد وتضيف على ما سمعت ، وتضخمه أيضاً على نحو وهمى وزائف.

ونتيجة لنقص المعرفة والخبرة والوقوف لمراجعة الإشاعة ، تبدأ الإشاعات فى التدفق كالشلال إذا وجدت التربة الخصبة لنشر أكاذيبها ، وفى الحروب تستخدم مختلف الوسائل – كما يقول كلاوز فيتش – لإرغام العدو على العمل وفقاً لرغباتنا، سواء أكان هذا العدو فرداً أم جماعة أم قيمة ؛ فثمة صراع بين رغباتنا وبين شىء آخر نريده أن ينثنى لإرادتنا ، فيفسح الطريق أمامنا إلى النصر . فى عام ١٩٦٧ عندما

تعرضنا لنكسة عسكرية أمام إسرائيل ، انتشرت الإشاعات التى تروج لأسطورة جيش إسرائيل الذى لايقهر ، وأن لإسرائيل اليد الطولى فى أى صراع ، وأن على العرب أن يقبلوا بالأمر الواقع وبالهزيمة ، وأن على مصر أن ترفع راية الاستسلام ، ولكن إرادة الشعب رفضت الهزيمة العسكرية ، ورفضت الاستسلام المهين واستيقظت الروح المصرية الخالدة ، جسورة ومقتحمة ، فكانت حرب الاستنزاف أول محك حقيقى لاختبار الإرادة المصرية على مواجهة التحدى ، ومن ثم كانت التمهيد الحقيقى القائم على الوعى والمعرفة وتقدير موازين القوة وصلابة التحدى للانطلاقة البركانية عام ١٩٧٣ ، حيث العبور الجسور فى ٦ أكتوبر . وحيث القدرة على تحطيم الأسطورة وتجاوز جدار الخوف والرهبة من إسرائيل .

وما كنا نعيشه من هزيمة مؤقتة وانكسار ، صدر إلى اسرائيل التى أطلقت على حرب ١٩٧٣ يوم كيبور ، أو السبت الحزين ، أو حرب الندم .

وعلى أية حال فإن وفرة المعلومات ، ودقة المصادر ، والمكاشفة الجماهيرية ووضوح المواقف ، ورسوخ النظام هى المحك الوحيد للقضاء على الإشاعات ومنعها من الانتشار .

ولعل ذلك ما دفع جوردن البورت ولوستمان لتقديم دراستهما الرائدة عن سيكولوجية الإشاعة فى إطار نفسى واجتماعى ، مستمد من النظريات النفسية رغم تباينها ، بوصفها أدوات معينة لتفسير الإشاعة وما يكمن وراءها من ديناميات نفسية ، ولهذا استخدما فنيات التحليل النفسى لاستجلاء الدوافع العميقة الكامنة خلف كل إشاعة ، والمعطيات الجشطلتية لمعرفة الشروط الحاكمة للإشاعة وتتبعها فى مجال الإدراك والذاكرة ، والمنهج التجريبى لتفسير موضوع الإشاعة تفسيراً علميًا ، لهذا جاءت فصول هذه الدراسة معبرة عن القصد من الإشاعة وتتبعها عبر العصور ، وما يكمن وراءها من ديناميات نفسية ، واجتماعية وما يؤدى إلى انتشارها واندلاعها ، وما تسفر عنه من نتائج قد تزعزع الثقة فى اليقين القومى وتبعث على الخوف ، والتوتر داخل المجتمع . وقد اخترنا من هذا العمل الرائد - بشىء من التلخيص - البعد الاجتماعى للإشاعة أو الإشاعة والمجتمع .

البعد الاجتماعى للإشاعة

الإشاعة : ظاهرة إنسانية قائمة فى النسيج الثقافى الإنسانى ، لدرجة يستحيل معها تصور مجتمع بغير إشاعات ؛ لأن الإشاعة فى حجمها تعبير إنسانى . ومن ثم ظاهرة اجتماعية تحتضنها الملايين وتصدقها ، أو تقتصر على حفنة قليلة منهم ، وقد

تندلع متوهجة وقد تهجع ساكنة ، وقد ينكشف شكل من أشكال الإشاعة عن قيمة كبيرة فيتجسد هذا الشكل فى أسطورة خالدة . ولكن الإشاعة ، مسالمة كانت أم مدمرة، واسعة المجال أم ضيقة طويلة الأمد أم قصيرته ، تعبير إنسانى واجتماعى عن مواقف تفتقر إلى الوضوح ، ويكتنفها كثير من الغموض لدرجة تسمح بمرور الإشاعة وانتشارها أو تحويلها إلى أسطورة .

الإشاعة والتاريخ :

كان أباطرة الرومان يعانون وباء الإشاعة ، إلى حد أنهم عينوا حراس إشاعات (بالاتينية delatores) ، كانت مهمتهم تنحصر فى مخالطة الأهالى ، ونقل ما يسمعونه إلى القصر الإمبراطورى .. كانت التقولات الشائعة تعد بمثابة بارومتر دقيق للمشاعر الشعبية ، وكان لحراس الإشاعات - حين يقتضى الأمر - أن يشنوا من جانبهم حملة مضادة من الإشاعات .. فالحرب النفسية ليست بالجديدة .

وتقدم لنا حادثة حرق روما عام ٦٤ م مثالاً طريفاً . وبحسب تحليل شاديوك للوقائع .. فإن الجماهير المنكوبة تقبلت ونشرت الأقصوصة الذاهبة إلى أن نيرون وهو حاكم أبعد ما يكون عن الشعبية ، إن لم يكن قد أشعل النيران بنفسه بالفعل ، فإنه على الأقل قد تهلل بالجمال البربرى للهب ، وغرد نشيده فى تمجيدها ولم يكن فى افتقار الإشاعة إلى أساس من الواقع ما يعين نيرون . وفى دفاعه عن نفسه ، نجده يطلق إشاعة مضادة يتهم فيها المسيحيون ، الذين كانوا ممقوتين من الشعب أكثر منه ، بأنهم هم الذين أشعلوا النار فى المدينة .

ولقد تبين أن هذا الشكل الأخير للإشاعة كان أكثر مسايرة للمخاوف والأحكام القبلية السائدة .. لقد كان من «المستساغ للأفهام» أن تصدر مثل هذه الفعلة عن المسيحيين «الحقراء» ومن ثم صبت الغوغاء جام غضبها على هذه الضحايا السهلة من كباش الفداء ، متناسية إلى حين عدائيتها لنيرون .

ولو افترضنا أن الوقائع كانت ، فى هذه الحادثة ، على نحو ما وصفها شاديوك، فإننا نتبين هنا فاعلية الديناميات الخاصة بالإشاعة فى صورتها النمطية . فمصدر الحريق غير معروف (غموض) ، وتأثيره على حياة الناس (أهمية) بلغ حد الكارثة ، كان الناس يتلهفون على تفسيره ، وفى الوقت نفسه على التخفف ، هذا الذى يتحقق بلصق التهمة ، ولقد أوحت لهم كراهيتهم ، التى كانت قائمة بإزاء حاكمهم المستبد ، بصيغة معينة . ولكن خوفهم من سطوته ، وعاداتهم الراسخة فى طاعته ، قد جعلتهم جد راغبين فى تحويل نقمهم إلى « كبش فداء » أضعف ، إلى العقيدة المسيحية

المستغلقة على أفهامهم ، والجد مثيرة لريبهم . ومن هنا فعلى المسيحيين ، شأنهم شأن كل الأقليات المهيضة الجناح عبر عصور التاريخ ، صبت الجماهير المحبطة الغاضبة نقمتها .

هذا .. إلا أن الحادث ينطوى على جانب آخر من الأهمية . فعلى الرغم من أن إشاعة اتهام نيرون قد توارت حيناً من الزمن فإنها فيما بعد قد عادت لتستقر راسخة . فاللحن الذى استوحاه نيرون من النيران قد غدا أسطورة تاريخية ، بل إنه قد بلغ من الوقت إلى مرتبة الأمثال . فهذا الطاغية الغليظ القلب يستطيع أن « يعزف على قيثارته وروما تحترق » ، وليس يعنينا أن يكون نيرون قد فعل ذلك بالفعل ، فحسبنا أن الفعلة المنسوبة إليه هى « عنوان » على شخصيته ، ورمز لها ، فهذه الفعلة الشنعاء الواهية الأساس ، والصحيحة مع ذلك من الناحية المجازية ، قد ارتبطت باسمه إلى الأبد . وحيث إن الاستخفاف بالويلات الكاسحة للبشر ليس من النقائص النادرة ، فإننا نلتقى بمناسبات لا حصر لها ينطبق عليها هذا المثل ، الذى نبت فى الأصل من مجرد فرية حاقدة .

والإشاعة هى التى ساقت سقراط إلى الموت ؛ إذ اتهمته بإفساد الشباب وحضهم على الثورة . وفى القرون الوسطى كانت الحروب الدينية والصليبية تجد ما يسندها من الأقاصيص المسرفة التى تدور حول المعجزات والأسلاب والخطايا . وبعد ذلك بقليل انتشر المستكشفون فى أرجاء الأرض سعياً وراء ما صورته الأقاصيص عن مسوخ البحار . وكانت أبهة البلاط البابوى ، كما كانت الجوانب الحميمة من حياة الأساقفة ، معيناً لا ينضب للأساطير ، هذه التى أسهمت ولا شك فى تمهيد السبيل أمام حركة الإصلاح الدينى .

ويمكننا أن نتساءل بحق : ما هو – فى التاريخ الإنسانى – القدر الذى يمكن اعتباره استجابة من جانب الجماعات البشرية المهمة للإشاعات الجارية ؟ إنه لقدر كبير فيما نظن ، فإلى وقت جد قريب قلما وجد سكان الأرض ما يعولون عليه غير أنباء الإشاعات . فالصحافة والبرق والإذاعة إن هى إلا مخترعات متأخرة .. فلقد كان على الجمهور قبل اختراعها أن يعول على مسافر قادم يأتيهم بما تتناقله الأفواه ، على شخص من أمثال بول ريفير P. revere ليدق ناقوس الخطر، أو على « منادى المدينة» ليقدم بطريقته الخاصة أخبار اليوم . ولم يكن هناك غير القلائل من الحكام والملوك الذين كان يتسلمون الأخبار فى رسائل مكتوبة ومختومة، ومع هذا فلم تكن مصادر أخبارهم بمنجاة من الإشاعات . ولقد رأينا فى تجاربنا المعملية البسيطة ، ما يحدث فى العادة من تحريف حتمى فى « النقلة الرابعة أو الخامسة» ، بل وأحياناً أيضاً

في « النقلة الأولي أو الثانية أو الثالثة » . وعليه فما أبعدها عن الدقة هذه الصورة عن العالم الخارجي التي تصرفت الجماهير ، بل وزعامتها ، وفقاً لها خلال مجري التاريخ!

وعلي العكس من ذلك ، فإن المصادر التي نستقي منها اليوم الحقائق لهي أكثر بكثير وفرة ودقة . فالبريد والصحافة والإذاعة والبرقيات والرسائل اللاسلكية قد حررتنا - بما يعلو علي القياس - من استرقاق الإشاعة فمن النادر أن يوجد شخص « يرغب » في أن يكون بمعزل عن الأخبار . ويبدو من المؤكد أن صرح التاريخ منذ الآن سيقوم أكثر فأكثر علي الحقائق الواقعية ، وأقل فأقل علي معتقدات الإشاعات.

ومع ذلك فليس في وسعنا أن نخلص إلي القول بأن الدور الذي تضطلع به الإشاعة اليوم يقل عما كان لها من دور في العصور السابقة . فالحقائق الموضوعية المتصلة بالحرب والنكبات والمحاكمات ، والكشوف ، والتصريحات العامة ، كلها قد غدت متاحة بصورة أدق وأسرع مما كانت عليه في أي وقت مضي ، ولكن في الوقت نفسه الذي انفتحت فيه الآفاق أمامنا ، اتسعت أيضاً مجالات « الغموض » فالحرب الأهلية في الصين ، ومولد التوائم الخمسة ، والحياة الحميمة للممثلات .. إلخ .. بدخولها إلي مسرح انتباهنا إنما هي تعبير عن اتساع عالمنا ، عالم الأحداث ، هذا الذي وإن كانت أخبارنا ضمنه رسمية في بعض جوانبها .. إلا أنها ما تزال مع ذلك تتسم بالنقص والغموض . هذا إلي أن حاجاتنا الانفعالية والمعرفية ، برغم المخترعات الحديثة ، لا تختلف عنها عند أسلافنا ، وإننا لا نزال مثلهم جد بعيدين عن إقامة تفسير متين للأسرار السحيقة في حياتنا الشخصية . ومن هنا فغالباً ما نعتمد مثلهم علي الأسطورة.

الإشاعة والأسطورة :

يمكن النظر إلي الأسطورة بوصفها « إشاعة مجمدة » وعلي وجه الدقة ، فإن الأسطورة قطعة من أقاويل ، تتميز بقدرة غير عادية علي المقاومة ، قطعة قد توقفت بعد تاريخ من التحريفات والتبديلات ، عن أن تتغير في انتقالها عبر الأجيال. وكما يقول لابيير وفارنزورث **La Piere & Farnsworth** ، إن الأسطورة هي: « إشاعة استحلت جزءاً من التراث الشفوي لشعب ما » . ومن الناحية اللغوية كثيراً ما يستخدم اللفظان ، كل مكان الآخر .

وكيما تستحيل الإشاعة إلي أسطورة يتحتم أن يتسم موضوعها « بالأهمية » بالنسبة للأجيال المتعاقبة . وإن الموضوعات المتعلقة بنشأة قومية من القوميات ، أو بالكرامة القومية لهي من هذا القبيل ، وكذلك الحال بالنسبة للموضوعات المتعلقة

بالميلاد والزواج والموت . بل إن كل ما يمكن أن تكون له دلالة طاغية فى عموميتها يصبح جزءاً من فنوننا الشعبية (فولكلور) .

والأساطير يمكن أيضاً أن تستمر فى البقاء بفضل ما يكون لها من قدرة على تصوير الخصائص الإنسانية فى صورتها المطلقة .. فعزف نيرون والمدينة تحترق ليس بشىء يختص به وحده وإنما يميز كل الناس من أمثاله . وقد حاقت اللعنة بسفوس فكتب عليه أن يدفع حجراً هائلاً إلى أعلى التل،لا لشىء إلا ليراه المرة تلو المرة وهو يهوى إلى القاع ، وتصدق الأسطورة اليوم على البائسين من الأحياء ممن يعانون فيما يبدو المصير نفسه . ووردة عيد الميلاد تتفتح بحسب الأسطورة ، رغماً عن الثلج والجليد ، فى منتصف ليلة عيد الميلاد، ببلاد الشمال ، مما يترجم عن الفرحة القائمة بالضرورة فى قلوب الناس فى تلك الآونة .

وهكذا يتصل بقاء الأساطير؛ لأنها تجسد حقائق أبدية عن العقل البشرى؛ فالأساطير تتيح إجابات عن الألغاز الدائمة للحياة ، أو أنها تتيح تعبيراً دقيقاً ، وإن يكن مجازياً عن خبايا المشاعر البشرية العميقة . فبفضل الأساطير ، تكتسى الحياة – بحسب تعبير كمبال ينج – دلالة ، فلا تتطلب منا صياغة متجددة» .

ويضيف ينج أن النسيج الذى تمدنا به الأسطورة يتيح لنا مشاعر الأمن فى ظل من اتصال أيديولوجياتنا وثباتها . وأساطير الجبروت عند أهل الشمال تتيح للسامع مشاعر الاستقرار ، والاعتزاز بالأجداد الأولين ، ناهيك عن تفسير لمشكلات الكون ترضى عنه النفس ؛ فهذه الأساطير – ككل الأساطير – إنما هى أدوات تفسير نافعة للإنسان خلال حياته القصيرة الغامضة على الأرض .

وتعرف الأساطير التى تتناول القوى الرئيسية ، والكون ، والمعتقدات الدينية «بالمثيولوجيا» . وهذه الأساطير إذ تنطوى على جانب كبير من فلسفة الحياة التى يعتنقها أفراد جماعة ثقافية واحدة ، فإنها تتميز بصفة خاصة بالقدرة على مقاومة التغير . فإنه وإن تكن هناك أشكال مختلفة لقصة الخليقة .. فإن هناك – مع ذلك – حقباً زمنية أقصر ، تتميز بإشاعاتها العابرة التى تبدو كأنها قد اصطنعت بصورة مؤقتة لتروى غلة الإنسان لتعرف الحقيقة ، وشرهه إلى الاعتقاد . وكل هذه الإشاعات غالباً ما تنشأ متصلة بنهاية وشيكة للعالم ، أو بمعجزة من معجزات الشفاء فى أحد المزارات ، أو بأشياء تظهر فى السماء . وإننا لنذكر « قصة » الملاك الذى ظهر فى السماء أثناء الحرب العالمية الأولى فوق خنادق فاندرز .

الدلالة المجازية للإشاعة والأسطورة :

إن شكل التعبير فى كل من الأسطورة والإشاعة بسيط وإيضاحى : « فقدت سفينة مع ألف من الأنفس » . قال واشنطون : « إنى أبترها ببلطتي الصغيرة » (ثور Thor يقذف بمطرقته فيكون الرعد) ، مثل هذه الأقوال تقدم على أنها تقرير لوقائع (بمعنى أنها قضايا للتصديق والاعتقاد كمرجع فى الموضوع) .

وعليه .. فإننا حين نتحدث عما تنطوى عليه الإشاعة من « لىّ » ، وعن الكيفية التى تنحرف فيها عن صورتها الأصيلة ، فإنما نستخدم معياراً حرفيًا .. إننا نحكم على المضمون بمقارنته بالوقائع الموضوعية ، « بالمثير المعيارى » .

ولكن هل تدعى الإشاعة « بالفعل » إنها تبيينية وإعلامية ؟ إن شكل إعلامياتها ليجعلها تبدو كذلك . ومع ذلك فإن النظرة الفاحصة تكشف عن أن شكل التعبير ، فى كل من الأساطير والإشاعات ، ينطوى فى الغالب على دلالة خفية .. إنه « يقول » أكثر مما يبدو للنظرة السطحية إنه يقول ، ومن الممكن أن تكون الدلالة المتخفية هى الأكثر أهمية ، والأكثر صدقاً . فلو أننى أشرت إلى أن اليهود يملكون « وول ستريت » أو أنهم يهربون من الخدمة العسكرية ، أو أنهم يحصلون على الأعمال المريحة فى الجيش ، فإننى على الرغم من الظواهر لا أقصد إلى أن أعلمك بالوقائع بقدر أن أنبهك إلى انعدام ثقتى فى اليهود .. فإنى فى قرارة نفسى أقوم بعملية تقويم . وفى وسع موريس Morris أن يصف أقوالى بأنها « تقويمات شاعرية » وإنى حين أردد تقويمات الثقافة بحكايتى لأسطورة الخليقة ، أو لأسطورة بطل قومى ، أو لأسطورة عن الحياة الآخرة ، فإننى مرة أخرى لا أتحدث بطريقة تبيينية أو إعلامية ، ولكن بطريقة مثيولوجية تقويمية .

وبقدر ما تدعى الإشاعات أنها إعلامية – تبيينية ، فإنها دائماً ما تكون فى جانب منها على الأقل مخطئة . ولما كان ادعاء الإشاعات هذا قائماً على الدوام ، فإنها أقوال خادعة دائماً أبداً . ولكن بقدر ما نفهم الإشاعات على أنها «تقويمية» appraissive ، فإنها تعبر فى دقة عن الحالة العقلية لقائلها .

وكلما تطورت الإشاعات أكثر فأكثر إلى صورة الأقوال « المأثورة » ، أو إلى صورة الأساطير ، ازداد حظها من هذا الطابع التقويمى أو المجازى .. فالقول بأن «النعامة تدفن رأسها فى الرمال» هو خرافة كاذبة من الزاوية الإعلامية .. التبيينية . فالنعامة فى الواقع لا تفعل ذلك . ولكنه صحيح مع ذلك أن الكثير من الآدميين ، ممن ينطبق عليهم هذا المثل ، يخفون أعينهم عن الخطر المقترب . والقول بأن ألاسكا

منطقة دائمة البرودة خاطىء فى الواقع . ولكننى حين أريد التعبير عن حالة عقلية بعينها بتشبيه ملائم ، فلن تعوقنى «خطوط الحرارة المتساوية» . وإنما أعلن دون خجل: « برودة ... كألاسكا » .

وهكذا فالإشاعات والأساطير تنطوى على دلالة « التعبيرية » كبيرة ولا ينبغى أن نحكم عليها فحسب وكأنها مجرد هذه العبارات الإعلامية التى تبدو عليها ، وإنما أيضاً على أنها عبارات « تقويمية » ، فإذا ما رغب الشخص فى استخدام « المأثورات » الإشاعية ، فلم لا يفعل ؟

وتنشأ المشكلة الاجتماعية للإشاعة من هذه الحقيقة ، وهى أن المستمع لايتلقاها فى العادة من زاوية المقاصد « التقويمية » للمتحدث ، وإنما بالحرى على أنها تعبير «تبيينى » عن الواقع . ومع أن المتحدث يكشف عن وحدة انفعالية معرفية وقد أساغ ضمنها حادثة أو خبراً ، فإن المستمع ، حين لا يكون حذراً ، يأخذ العبارة على أنها نقل لواقعة يمكن التحقق من صحتها . والمستمع بذلك يخلط ما بين الدلالة التعبيرية والدلالة الموضوعية . ويتطلب الأمر قدراً كبيراً من الاستبصار ؛ حتى ينصت الشخص إلى عبارات الإشاعة فى اهتمام وحذر ممتزجين بالمقادير اللازمة .

تصنيف الإشاعات :

حيث إن علاقاتنا الاجتماعية مفعمة بالإشاعات والأساطير .. فإنه يحق لنا أن نتساءل عمّا إن كان هناك أى مبدأ للتصنيف نستطيع بمقتضاه أن نرتبها . أم ترى أن «القضايا ذات الموضوعات المحلية المهمة والمتاحة للاعتقاد» تعلو على الحصر بحيث تصبح مهمة التصنيف مستحيلة تماماً ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ، كما هو الشأن بالنسبة إلى الأسئلة المماثلة المتعلقة بترتيب الظواهر الاجتماعية والنفسية ، إنما هى مسألة تتوقف على اهتمامات القائم بالتحليل ، وحين ينصب الاهتمام على أعراض خاصة ومحدودة ، يكون جد ميسور أن نصنف فى فئات الإشاعات السائدة فى فترة بعينها ، على افتراض أننا قد حصلنا على مجموعة كافية منها . وعلى أية حال فلا يمكننا أن ننعت بالصدق المطلق طريقة بعينها فحسب من بين طرائق الفرز . فمن الممكن أن ينصب اهتمام أحد الباحثين على :

(أ) سرعة انتشار الإشاعة ، أو زمن دورتها ، أو أى جانب آخر من جوانبها الزمنية .

(ب) الموضوع التى تدور حوله الأقصوصة .

(جـ) الحالات العقلية والدوافع المحتملة التى تكمن وراء تيارها الدافق .

(د) الآثار الاجتماعية المترتبة على الإشاعة ، وبيلة هى أم مفيدة أم حيادية .

ومن الممكن لباحثين آخرين أن يستندوا إلى فئات أخرى ، فى محاولة للتمييز ما بين :

(هـ) الإشاعات القديمة .

(و) الإشاعات المحتملة الصدق وغير المحتملة الصدق .

(ز) الأقاصيص الطويلة الأمد والأقاصيص القصيرة الأمد .

وهكذا يمكن تقطيع الإشاعات إلى شرائح بطرائق جد مختلفة . وسوف نوضح هنا المبادىء الثلاثة الأولى من بين مبادىء التصنيف الآنفة الذكر :

(أ) أما المعيار « الزمنى » فقد استخدمه عالم روسى من علماء الاجتماع ، هو بايسو Bysew . فهناك أولاً بحسب رأيه الإشاعة « الحابية » تنمو ببطء ويتسع انتشارها فى جو من السرية ، حتى يكاد أن يسمع بها كل فرد .

وهناك إشاعات ذات طبيعة « اندفاعية » فهى تنتشر انتشار اللهب؛ لأنها تتعلق بوعيد أو بوعد مباشر .. إنها تجتاح المجتمع فى وقت مذهل فى القصر ، وتنطوى على إشاعات العنف ، أو إشاعات الحوادث ، أو الكوارث أو النصر الحاسم فى وقت الحرب . والإشاعات من هذا الصنف إذ تنطلق فى جو مكهرب للغاية .. فإنها تميل إلى إثارة استجابات سريعة وعنيفة ؛ لاستنادها إلى انفعالات قوية من الهلع أو الغضب أو الفرحة المفاجئة .

وأخيراً نجد فى قائمة بايسو الشاعرية « الإشاعات الغاطسة » .. إنها إشاعات تنتشر برهة ، ثم « تغطس » إن جاز القول – ربما تعود فتطفو من جديد فى وقت لاحق، حين تسمح الظروف . وعلى الرغم مما هناك من اختلافات سيكولوجية بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ، فإننا لا نجد بينهما من فارق من زاوية الإشاعات، فأقاصيص ما بين عامى ١٩١٤ ، ١٩١٨ قد بدت وكأنها قد ظلت غائصة حتى أتاحت لها انفعالات القلق فيما بين عامى ١٩٣٩ و١٩٤٥ أن تنجذب إلى السطح من جديد . ومن قبيل ذلك إشاعة « طابع البريد » و« اللسان المقطوع » .

ومؤداها أن أسير حرب أمريكى (فى معسكر ألمانى فى الحرب العالمية الأولى، وفى معسكر يابانى فى الحرب العالمية الثانية) بعث بخطاب إلى أسرته ، لا ينطوى على أية أخبار تستلفت الانتباه اللهم إلا ما يطلبه إليهم من احتفاظ بطابع البريد الملصق على الخطاب . وحيث إن هذا الجندى لم يكن يوماً من هواة جمع الطوابع فقد اندهشت الأسرة لطلبه وحاولت أن تجتلى الأمر . ولم تكد الأسرة تنزع طابع البريد حتى قرأت على الظرف فى موقع الطابع ما يعلنهم بأن حراس المعسكر قد قطعوا لسانه . ولقد انتشرت هذه الأقصوصة البعيدة الاحتمال خلال الحربين ، على الرغم من تناقضها تناقضاً تامّا مع حقيقتين : فخطابات أسرى الحرب ليست عليها طوابع بريد ، وقطع اللسان يكاد يؤدى بصورة أكيدة إلى النزيف حتى الموت ، مالم تتوافر عناية من إخصائى فى الجراحة .

وهذه « الإشاعات الغاطسة » يمكن تفسيرها بطريقتين : فمن المحتمل أن ترقد فى حالة سبات فى عقول بعض الأفراد ، حتى يستخرجوها بعد سنوات ، وربما يتم ذلك دون تنبه منهم ، عندما يجدون أنفسهم فى موقف بيئى مشابه لهذا الذى سمعوا فيه الإشاعة أول مرة . ومن المحتمل أن لا يكون هنالك أى اتصال حقيقى بين الإشاعتين .. فمن الممكن جداً أن تتمخض الحاجات البشرية فى الظروف المتشابهة عن توليد أقاصيص متماثلة . وعلى سبيل المثال فإنه من المعقول أن يبدو تسميم الآبار تهديداً محتمل الوقوع من جانب عملاء العدو ، وفى أى وقت من أوقات الحروب . والناس القلقون الذين يعتمدون اعتماداً كليّا على مصدر واحد محدود للمياه ، ينساقون بسهولة إلى « إبراز » و « تضخيم » مخاوفهم ، دون أن ينتبهو إلى أنهم فى ذلك إنما يعيدون تمثيل صفحة مألوفة فى تاريخ الإشاعة .

(ب) وتحليل الإشاعات من زاوية الموضوع الذى تدور حوله إنما يعد مبدأ آخر للتصنيف . وفى هذه الحالة تنحصر مهمة الباحث فى إحصاء عدد الإشاعات التى تتناول موضوعاً من الموضوعات .. ففى الأحوال العادية يمكن أن نبحث على سبيل المثال عن نسبة الأقاصيص التى تتناول المسائل السياسية ، والأمراض ، والنواحى الجنسية ، والسياسية الخارجية ، وجماعات الأقليات .

وتصنيف الإشاعات بالرجوع إلى الدوافع الأساسية هو فيما يبدو أيسر بكثير وقت الحرب منه وقت السلم . ولكن حتى بالنسبة إلى وقت الحرب فإن القسمة الثلاثية « كراهية – خوف – رغبة » تعد تبسيطاً مسرفاً .. ففى الواقع يمكن « لإشاعة خوف » (تتعلق مثلاً بفظائع العدو) أن تنطوى على عناصر من الاهتمامات الجنسية ، أو حب المغامرة ، أو على عناصر سائدة من مشاعر التفوق الخلقى . وشبكة الدوافع التى ترد إليها الإشاعة إنما هى مسألة شخصية ، وإذا أردنا أن نتبين العلة فى أن شخصاً بعينه ينجذب إلى إشاعة بعينها ، فإن ذلك يتطلب دراسة كلينيكية لذلك الشخص . وبالنظر إلى شدة تباين «الخلطات الدوافعية» ، أو امتزاجات الدوافع التى يمكن أن تغذى إشاعة بعينها ، فإن أى تصنيف سيكولوجى مقضى عليه بأن يكون مسرف التبسيط ، وتقريبياً .

جماهير الإشاعة :

لكل إشاعة جمهورها .. فالإشاعات المالية تنشر بصورة أساسية بين هؤلاء الذين يمكن لثرواتهم أن تتأثر بارتفاع وانخفاض الأسعار فى الأسواق ، والإشاعات المتصلة بتعديلات فى قانون التجنيد ، أو فى ضرائب الدخل أو المتعلقة بخطط التطوير العمرانى ، إنما تنتشر بصور خاصة بين الناس الذين يحتمل أن يتأثروا بها . وتلاميذ المدارس ، وكلهم تطلع إلى الأجازات ، يتلقفون فى خفة أى خبر يتصل بمؤتر وشيك للمدرسين ، أو يتصل بتصليحات ضرورية فى مبنى المدرسة . والجماعات المهنية والاجتماعية المختلفة تنطوى كلها على مناطق حساسة خاصة .. والأطباء ، ورجال الدين ، ورجال الطيران ، سماسرة الأحزاب ، لا يتوانون عن دفع عجلة الأقاصيص التى تدور حول المصالح الخاصة بجماعتهم .. كذلك الحال بالنسبة إلى أندية الشراب، وجماعات البريدج ، وحلقات الصداقة ، فثمة جمهور إشاعة حينما تتوافر مصلحة مشتركة.

وانفتاح الشخص للإيحاء معناه أن يصدق دعوى ، دون توافر لأى دليل مما يمكن للمنطق أن يتطلب . وبعض الناس قد اعتادوا التمحيص النقدى لكل ما يسمعونه .. إنهم بفضل تدريبهم على تحليل المعانى ، أو ممارستهم لعلم النفس الاجتماعى ، أو لغير ذلك من الأسباب التى تطبع التفكير بالصبغة النقدية ، ينتظرون الدليل الذى يمكن التعويل عليه .

والأشخاص المنفتحون للإيحاء هم – من ناحية أخرى – أشخاص تتميز عقلياتهم إما بفقر البنية ، وإما بما تغص به من أنماط وتراكيب أو عقد جد جامدة .

والجماعة الأولى ، أصحاب العقليات الفقيرة البنية ، تضم كثرة من أنصاف المتعلمين، فالأحداث فى المجالين الفيزيائى والاجتماعى هى بالنسبة إليهم ألغاز ، والعلم بالنسبة إليهم أرض مجهولة . ولقد تبين كانتريل Cantril أن عدداً كبيراً من بين الذين ارتجفوا أمام الغزو الوهمى للأرض من جانب سكان المريخ ، مما جاء فى التمثيلية الخيالية المذاعة لأورسن ويلز ، إنما كانوا أشخاصاً بلبلهم الاضطراب السائد فى أوروبا، أو الهبوط الاقتصادى ، أو التقدم المروع للعلم ، بحيث اعتقدوا « أن كل شىء جائز الحدوث » . لقد كانت معلوماتهم من الفقر بحيث لم يفكروا فى تبين صحة الإذاعة بالرجوع إلى البرامج فى صحف الصباح ، أو بتغيير المحطة ، أو بالتحقق من صحة الأمر بأية طريقة بسيطة أخرى .. لقد أفسحوا الطريق أمام الهلع ، لخلو عملياتهم العقلية من « المراسى » النقدية . وثمة شرط إضافى ، هو أكثر الشروط وضوحاً ، يتحتم تحققه كيما تسرى الإشاعة ؛ فالأشخاص أصحاب الحساسية للإشاعة ينبغى أن يكونوا على صلة بعضهم بالبعض . ومثل هذه الجماعات الملتحمة الأفراد ، من قبيل طاقم البحارة على السفينة ، وأفراد الوحدة المقاتلة ، والمستخدمين فى مؤسسة واحدة ، وأعضاء « نادى الجمعة » للبريدج ، وسكان المدينة الصغيرة ، كلها تتسم بالتجانس المطلوب والاتصالات الوفيرة ؛ ففى هذه الجماعات تندفع الإشاعات مسرعة .

حملات الهمس :

رأينا كيف أن المشاعر القوية يمكن أن تعين شرارة الإشاعة على أن تقفز الهوة التى تفصل ما بين الغرباء ، ولهذا السبب نجد فى وقت الحرب ، وفى حالات الكوارث، وفى فترة الانتخابات ، إن الإشاعات غالباً ما تفيض بها مساربها الطبيعية . وحيث إن هذه الإشاعات تكون فى الغالب فاقعة اللون ، فاضحة بذيئة ، فإنها تنتقل بصورة صريحة أو مجازية عبر الهمسات .

ولما كانت المسائل السياسية مجالاً للمشاعر القوية بالنسبة لكثير من الناس ، فإننا نستطيع فى الغالب أن نؤكد قيام «حملات الهمس» حول المرشحين للانتخابات . وبقدر ما تكون الكراهية عميقة بإزاء أحد المرشحين ، تتسع جبهة الإشاعات التى تهاجم دوافعه ، وحياته الماضية ، وأسراره الحميمة ، ونواياه المقبلة .

الإشاعة المعنونة (المعروفة كإشاعة) :

ماالأثر الذى ينتج عندما تخبر الناس بأن ما يسمعونه هو مجرد إشاعة ؟ ثمة تجربتان تلقيان الضوء على هذا السؤال ، وتكشفان بجلاء عن أن جمهورنا لم يصبح بعد (متنبهاً للإشاعة) .

قدم كيركباتريك Kirkpatrick إلى طلابه الذين أجرى عليهم التجربة مجموعات من العبارات الإخبارية ، التى زعم أنها مقتطفات من الحياة اليومية.

صدرت نصف هذه العبارات بالتعبير « يشاع أن ...... » بينما تم تقديم النصف الآخر على أنه أخبار مباشرة .. كانت جميع العبارات وهمية . ولقد كشف تحليل تقديرات التصديق ، هذه التى قدمها الطلبة ، عن أن التعبير التحذيرى « يشاع أن ....» لم يكن له تقريباً أية فاعلية فى إعاقة التصديق .

وفى وقت قريب ، أستخدم ج – هـ . سميث Smith مجموعة من العبارات الإخبارية الوهمية ، بعضها مناصر وبعضها مناهض للاتحاد السوفيتى . وكان الأشخاص الذين أجريت عليهم التجربة طلبة ، تم قياس اتجاهاتهم إزاء روسيا بواسطة سلم اتجاهات . ولقد قدمت العبارات الإخبارية تحت عناوين ثلاثة مختلفة ، فقدم بعضها على أنه « وقائع أكيدة» ، وبعضها على أنه « إشاعات » لم يتم التثبت من صحتها بعد ، والبعض الأخير بغير عنوان على الإطلاق ، وقد سجل الطلبة درجة تصديقهم أو عدم تصديقهم للعبارات على سلم يتراوح ما بين الرفض والقبول المطلق.

وتدل نتائج سميث على أن العبارات المعنونة « وقائع » كانت تلقى التصديق فى سهولة أعظم ، بينما لقيت العبارات المعنونة « إشاعات » أقل التصديق ، أما العبارات غير المعنونة فقد احتلت مكاناً وسطاً ، وعلى أية حال .. فإن العبارات غير المعنونة « وقائع » كانت أكثر فاعلية فى توجيه التصديق بأكثر مما كانت العبارات المعنونة « إشاعات » فى إعاقة التصديق . وبعبارة أخرى يمكن القول بأن العبارات المعنونة « إشاعة » كانت تشبه فى نتائجها العبارات غير المعنونة على الإطلاق . فعنونة العبارة على أنها « واقعة » إنما تكسبها امتيازاً يولد تقبلاً واضحاً ، أما عنونة العبارة على أنها إشاعة فذلك لا يعدو أن يضعها ضمن فئة الأحاديث غير المحددة ، فالناس نادراً ما يديرون رؤوسهم فى خجل أمام النعوت والصفات فى العناوين ، فعندما يسمع السامع شيئاً يحمل عنوان « الوقائع » فإنه يبدو وكأنه يقول لنفسه : «واقعة! الوقائع صحيحة ، يتحتم علىَّ تصديقها » أما عندما يسمع شيئاً بعنوان «إشاعة» ، فإنه يتردد لحظة قبل أن ينتهى إلى القول : « حسناً ، فالإشاعات يمكن أن تكون صحيحة» .

وإذا كان لديه استعداد سابق لتقبل العبارة ، فإنه يتيح لها أن تفيد من احتمال الصدق . فى هذه التجارب يبدو الاتجاه القائم من قبل أكثر أهمية من أى « عنوان » ؛ لأنه تحت مختلف الظروف التى أجريت فيها تجربة سميث ، كانت الدرجات على

«سلم التصديق» مسايرة بصورة إيجابية للدرجات على «سلم الاتجاهات» فالأشخاص المناصرون لروسيا هم أكثر ميلاً إلى تصديق سياق الوقائع أو الإشاعات التى فى صالح روسيا . أما الأشخاص المعادون الاتحاد السوفيتى فهم أكثر ميلاً لتصديق سياق الوقائع أو الإشاعات التى فى غير صالح روسيا .

وعدم الفاعلية النسبية للعنونة «إشاعة» ينطوى على اعتبارات عملية مهمة ؛ فذلك يعنى أننا لا نستطيع قتل الإشاعات بمجرد وصمها بالعنوان «إشاعة» .. فإن الأمر يتطلب طرائق أكثر جدية للدحض ، تتضمن استثارة دافع الوطنية أو مشاعر الخزى عند الأشخاص ، وربما توعية بأساسيات سيكولوجية الإشاعة . ولقد كانت هذه الطرائق هى التى لجأت إليها عيادات الإشاعة ، وجدير بالأهمية أن نتنبه أيضاً إلى أن العنونة «وقائع» تستثير تبجيلاً وإيجابية عند السامع . والإخصائيون فى الإعلان ممن يستخدمون على نطاق واسع التقريظات شبه العلمية يعرفون ، ولا شك فى هذا الاستعداد عند الناس ، ولكن لسوء الحظ أن «الرمز» وحده هو الذى يستثير التصديق ، فليس كل ما يحمل الرمز «وقائع» يرتفع فى حقيقته إلى مستوى عنوانه .

وكيما تكسب الإشاعات لنفسها التصديق ، فإنها غالباً ما تتقنع فى صورة الوقائع أو تنتسب إلى جهات رسمية عليا لتسند دعواها . وكثير من الإشاعات ما يبدأ : «كان أخي يتحدث مع واحد من الذين فى الصورة ، ....» أو «كان رئيس المباحث نفسه يؤكد ....» ، أو «سمعت ذلك من أعظم مصدر مسئول ....» ، وثمة طرائق أخرى ، من قبيل تحديد أسماء المدن أو الشوارع التى تدعى الإشاعة أن الحادثة وقعت فيها ، تعين على إسباغ صحة زائفة . فالتحديد العيانى لمكان حادثة ما يتضمن- فيما يبدو- أن الحادثة لابد وأن تكون قد وقعت .

الإشاعة والشغب :

إن جراثيم الإشاعة إنما هى أبداً حية نشيطة ضمن الكيان الاجتماعى . وهى أحياناً ما تتحرك حركة بطيئة وبصورة غير سامة ، وهى أحياناً أخرى ما تتفجر عنيفة فى صورة الحمى ، ومن سوء الحظ أن الحمى تشتعل فى أخطر صورها عندما يكون الكيان العضوى أقل ما يمكن قدرة على احتمال خسائرها ، فالحروب والاضطرابات والأوبئة والكوارث ، وكلها مدمرة بذاتها .. إنما تصبح أكثر تدميراً عندما تضاف إليها مضاعفات الإشاعات .

وتكشف الاضطرابات الخطيرة عن الصلة الوثيقة بين حركات الشغب والإشاعات . وليست هناك حالة واحدة يمكن أن تدعى فيما يتعلق بها ، بأن التقولات

كانت هى العلة الوحيدة أو الأصلية للشغب ، ولكنها مع ذلك تلعب فيما يبدو دوراً مساعداً مهمًا على الدوام . والحق هو أن الأدلة التى تملكها على ذلك لهى من قوة الإقناع ؛ بحيث نستطيع أن نجعل من هذه الحقيقة قانوناً من قوانين علم النفس الاجتماعى ، مؤداه أن « ليس هناك من شغب يمكن أن يحدث بغير إشاعات تستثير العنف وتصاحبه وتغذيه » ، ويمكننا أن نميز فى العادة أربع مراحل فى هذه العملية :

١ – تسود لفترة من الوقت قبل الانفجار همهمات عدم ارتياح . وهذه الهمهمات يمكن أن تتخذ صورة أقاصيص تصور التفرقة العنصرية ، أو الإهانات ، أو أفعال السوء مما تنسبه الجماعة إلى خصومها . وفى هذه المرحلة لا يختلف مجرى الإشاعات عن المجرى العادى للأقاصيص العدائية والمنطوية على الاتهام .. فإنها تبدو للسامع شبيهة بالافتراءات اليومية المتعلقة بالمسالك المعيبة للزنوج أو اليهود ، أو بجشع الموظفين .

٢ – وتتضح إشارة الخطر حين تتخذ الإشاعات صورة نوعية مهددة : « سيقع أمر الليلة عند النهر » ، « لا يفوتك أن تحضر إلى الملعب لترى المهزلة عقب المباراة» .

٣ – وغالباً ، وإن لم يكن ذلك هو الحال دائماً ، ما تكون الشرارة التى تشعل برميل البارود هى نفسها إشاعة ملتهبة .

٤ – وحين يحمى وطيس الاضطراب تنطلق الإشاعات وتجرى أسرع ما يمكن. ولكن فى هذه المرحلة الجنونية تكشف خصائص الإشاعة عن تعصب حاد ، فأحياناً ما تكون الإشاعات هلوسية ؛ فحوادث التعذيب والاغتصاب والقتل تتردد فى صور هاذية ، وكأنها تهدف إلى تبرير العنف الوشيك وإلى التعجيل بالانتقام .

خلاصة :

من مختلف أقسام هذا الفصل أخذ يبرز بالتدريج أن الإشاعة تستقر فى الأنسجة العميقة من الكيان الاجتماعى ، فجانب كبير من التاريخ كما أوضحناه ، إنما تحدد عن طريق استجابات الناس للتقولات ، كما أن كثيراً من معتقدات الناس إنما هى نتاج خرافات وأساطير ممعنة فى القدم .

والخاصية الخداعة للإشاعة تكمن فى أنه على الرغم من أنها تقويمية ودوافعية فى دلالتها ، إلا أنها عادة ما تتنكر وكأنها معلومات موضوعية ، وفى الحقيقة إن وظائفها التعبيرية وهى المتخفية علينا ، لأهم بكثير من وظائفها الإعلامية المزعومة.

وإذا ما حاولنا تصنيف الإشاعات لتبينا أن ميوعتها ترجع بعض الشىء إلى ما تنطوى عليه من انصهار الانفعالات ومشاعر النفور ضمن شبكة ثرية معقدة .. أما الدلالة الوظيفية للإشاعات فى الحياة الاجتماعية ، فيمكن سبرها فحسب عن طريق استجلاء الطبقات العميقة للشخصية ، وتبين « اقتصاديات » الطاقة العقلية عند الفرد . وبعض الجمهرات الكبيرة تعد متاحة لأنواع معينة من التقولات ، وتتوقف سلاسل الإشاعة على القابلية للإيحاء عند الأفراد . وحين يبلغ الهياج درجة عالية من الشدة يأخذ فى التزايد عدد الأفراد المندمجين فى السلسلة ، والحروب والاضطرابات، والانتخابات كلها تعمل على توليد النمط الخبيث من الإشاعات المفتحشة المعروفة باسم حملات الهمس . وفى السنوات الأخيرة تبينا الصلة الوثيقة ما بين الإشاعات والاضطرابات ، ومن المؤكد أنه من أجل الهيمنة على الاضطرابات لابد من إيقاف الإشاعات .

وحيث إن الناس لا يتعرفون فى العادة الإشاعة عندما يسمعونها ، وحيث إنهم نادراً ما يكفون عن تصديقها لمجرد أنها « معنوية » بوضوح ، فلا مناص من أن نخلص إلى القول بأن الجمهرة مازالت بعيدة عن أن تكون متنبهة للإشاعة ، فالجمهرة لم تحقق غير القليل من المناعة ، أو لم تحقق أى مناعة على الإطلاق .

وليس من المنتظر أن تقل أهمية التقولات فى المجتمع مالم تتحقق شروط عديدة لا يحتمل فى الواقع تحققها ؛ فناشر الأخبار ينبغى عليه أن يصبح أكثر دقة، وأن يحقق قدراً أكبر مما يحققه الآن من نفاذ إلى عقول السامعين . والأشخاص الذين يتطلعون إلى تأويل للعالم الذى يعيشون فيه ينبغى أن تتاح لهم تفسيرات أكثر إرضاء مما يتاح لهم الآن . وينبغى أن تتضاءل مشاعر العدائية والخوف والرغبة مما يتطلب التبرير والتنفيس الخيالى ، وأخيراً ينبغى العثور على وسيلة لتقويم ديناميات القوى ، التى تصيب جميع عمليات الحفظ والاستدعاء كائناً ما كان حرص الناقل على الدقة.

وحيث إن هذه الشروط لا ينتظر أن تتحقق فى المستقبل المرتقب ، فعلى كل فرد يرغب فى أن يحقق لنفسه مناعة ضد الإشاعة أن يتعمق ما استطاع الأوجه السيكولوجية والاجتماعية للظاهرة ، وأن يزيد بالممارسة المتصلة من مهارته فى أن يكشف ويحلل القسط اليومى من التقولات التى تبلغ أذنيه المرهفتين .

الفصل الثامن

أزمات الشباب

* اغتراب الشباب
* قياس الاغتراب
* الشباب وأزمة التطرف

الفصل الثامن

في معنى الاغتراب

الاغتراب خاصية وجودية مميزة للإنسان بما هو إنسان ، قديمة قدم الإنسان نفسه ، فهو المخلوق الوحيد الذى يستطيع أن ينفصل عن نفسه ، وقد ينفصل عن مجتمعه أو عالمه أو الله ، وقد يعيش الإنسان الاغتراب ويكابده بصفته جزءاً من حياته، ومكوناً من مكوناته النفسية والاجتماعية والوجودية دون أن يعى أنه مغترب ، وأنه منفصل عن ذاته ، أو عن مجتمعه أو عن الله .

وعلى الرغم من الاستخدامات المتعددة لعلماء اللاهوت المسيحى للاغتراب على نحو يفيد الابتعاد عن الله ، وتجنب الصراط المستقيم ، وأيضاً استخدامات بعض الفلاسفة وبخاصة هيجل (١٨٠٧) ، ومن بعده ماركس (١٨٤٤) وغيرهما من الفلاسفة والمفكرين ، فإن الاغتراب « كسمة » مميزة للإنسان ، كامنة ومتأصلة فى وجوده ، « وكحالة » تظهر من خلال ما يعانيه ويكابده من مواقف نفسية واجتماعية ووجودية .. هذا الاغتراب ظل بعيداً إلى - حد كبير - عن دائرة الدراسة العلمية لمعناه، ومجالات انتشاره ، وأبعاده ومصاحباته النفسية والاجتماعية والوجودية .

وقد فجر الوعى بالاغتراب ، المتناقضات الشديدة التى تجتاح هذا العصر ، والتى حيرت الفلاسفة والعلماء والمفكرين فى وضع تسمية تميز هذا العصر أسوة بعصور سلفت ، هل هو عصر العلم والتكنولوجيا ؟ أم عصر الذرة والرعب النووى ، والصقيع النووى» ، « والليزر » فى أفلاك السماء ؟ هل هو عصر « الرجل العادى » ؟ أم عصر الأغلبيات الجماهيرية التى لا رد لها ولا دافع لحركتها وهديرها ؟ هل هو عصر الأيديولوجيات الكبرى ، والقوميات الكبرى التى ترفض كل ما عداها من أيديولوجيات وقوميات ؟ أم عصر الديمقراطيات المختلفة فى مواجهة الحزب الواحد ، والرأى الواحد ، والتنظيم الواحد ، والجماعة الواحدة ؟ أم عصر العقائد والديانات المتصارعة .. الكاثوليك والبروتستانت ، السنة والشيعة ، السيخ والهندوس ؟ أم عصر الاغتراب والقلق والوحدة وسط الملايين ؟؟

وقد يرجع هذا الاختلاف فى وضع تسمية تميز هذا العصر إلى أنه عصر يتشكل من خلال فتوحات علمية مذهلة، ومخاطر كبرى تتربص بالإنسان فهناك ثورات علمية فى وسائل المواصلات ، ووسائل الاتصال ، ووسائل الإنتاج وعلاقات

الانتاج ، وهناك طاقات نووية خبيئة ومتحفزة فى باطن الأرض وفى أعماق المحيطات ، وفوق أفلاك السماء ؟ .. وهناك بيئة طبيعية مهددة بالتلوث أو الفناء وهناك خوف وفقدان أمن ومشاعر اغتراب ملازمة للإنسان ومحاولات «دفاعية» ضد شعور لا يطاق بالخوف وفقدان الأمن تمثلت فى الخروج من الأرض بجاذبيتها إلى كواكب السماء .

وقد وضعت هذه الثورات العلمية المتسارعة – كما يقول توفلر (١٩٧٤) نهاية لعصر الثبات – حيث العصور التى مضت ، والتى كان فيها التقدم يسير موازياً لجميع إمكانات الإنسان على التكيف والاحتمال والاستيعاب – وبداية لعصر جديد « أشبه ما يكون بقمة سريعة التذبذب » (ص١٥) ؛ حيث اللاثبات وعدم الاستقرار ، وحيث يتغير كل شيء ، حتى الجذور الثابتة والرموز الحية فى ضمير الإنسان : الدين ، والأمة ، والمجتمع والأسرة والمهنة تهتز الآن بقوة تحت التأثير العاصف لدفعة التغير المتسارعة (ص٣٦) .. «فالتغير المتسارع لا يقرع أبواب الصناعات والشعوب فحسب، بل يتغلغل فى أعماق حياتنا الشخصية ويرغمنا على أن نلعب أدواراً جديدة ويواجهنا بأخطار اضطراب نفسى جديد ، عنيف ومدمر ، وهذا الاضطراب يمكن تسميته «صدمة المستقبل» (توفلر ، ١٩٧٤ ، ص ١٠) .

وقد جعلت ثورة وسائل الاتصال والمواصلات العالم بمثابة « قرية تكنولوجية واحدة » ؛ حيث يبدو العالم « عالماً صغيراً » ، إلا أنه يفتقر إلى لغة مشتركة للحوار والتواصل والإخاء .

ويؤكد جارودى (١٩٨٣) هذا التصور فيقول :

« إن عالمنا واحد ... ولكنه عالم ممزق »

ويفسر جارودى (١٩٨٣) وحدة العالم وتمزقه فى الوقت ذاته : بأن تطور التكنولوجيا والإنتاج قد خلقا سوقاً عالمية ، وخلق اقتصاديات مترابطة حيث أصبح مصير كل الناس فيها معلقاً بمصير الناس الآخرين ، وأصبحت الحياة اليومية لكل إنسان تتأثر اقتصادياً وسياسياً وأخلاقياً بأكثر الأحداث بعداً عنه » .

ويستطرد « جارودى » فيؤكد أن هذا التلاحم لا يعنى تآخياً دولياً ، إذ إنه قائم على التناقضات والصراعات ، وأصبح التعبير الواقعى عن التلاحم الدولى لا يظهر من الآن فصاعداً إلا فى صورة تلك الصراعات التى تتمثل فى الصراع بين الطبقات ، والصراعات الوطنية أو القومية ، والصراعات الأيديولوجية (جارودى ، ١٩٨٣ ، ص ١٣) .

وتعد الحرب العالمية الثانية ، والحروب الصغرى التى تلتها فى أنحاء شتى من العالم نقطة تحول مصيرى فى تاريخ الإنسان المعاصر ، فالدمار والخراب ونزيف الدم الذى اجتاح العالم ، جعل الإنسان المعاصر يفقد اليقين فى جدوى القيم ، ويرى أن هذا العالم ، عالم عبثى مغترب ، فقد معقوليته ومعناه ، وأن الفلسفات الكبرى التى التف حولها الإنسان ، واعتقد فى توجهاتها وقيمها ، لم تحم الإنسان من ويلات الحرب ودمارها ، وأن التكنولوجيا المعاصرة لها آثارها المدمرة على وجود الإنسان ، وعلى إنسانيته كهوية ومعنى وقيمة ، وعلى حريته ، فكان لابد من الاحتجاج على هذا التقدم التكنولوجى وعلى هذه المذاهب الفلسفية بتركيباتها العقلية المجردة ، التى غربت الإنسان وسلبته هويته وأفقدته حريته ، وفصلته عن ذاته كموجود بشرى له هويته ، وتفرده وتساميه المستمر ، وجعلته مجرد شىء ، لا وزن له ولا قيمة ، مغترباً فى مواجهة عالم عبثى ومغترب .

وتصدى لهذه القضية هيدجر Heidegger (١٩٦٧) وتيلش Tilich (١٩٥٣) يسبرز Jaspers (١٩٥٦) ، وسارتر (١٩٦٦) .

ويصور يسبرز (١٩٥٦) شعوره بأنه يحيا فى عالم غريب ، منفصل عنه ، كشىء آخر سواه ، ولا يشعر بالأمن فى هذا العالم ، ويترجم هذا الشعور بقوله : « إن العالم كموضوع – للمعرفة – شىء غريب Fremd ولا أشعر بالأمن فيه ؛ لأنه يتحدث لغة غريبة عنى» (ص٣٠) . ويرى تيلش (١٩٥٣) أن الإنسان يغترب تحت وطأة الحضارة وهيمنة التكنولوجيا وسيطرة الآلة ، وإن الإنسان أصبح غريباً عن وجوده الجوهرى .. وأن الاغتراب هو الطابع المميز للوجود » (ص٧٤) .

ويرى سارتر (١٩٦٦) أن الاغتراب « خاصية وجودية » متأصلة فى وجود الإنسان ، فوجود الإنسان سابق على ماهيته ، فقد « ألقى » به فى هذا الوجود بغير سند أو عون ، وعلى غير إرادة منه أو اختيار ، حيث يمضى فى الحياة بوصفه كائناً «مغترباً» يكابد القلق ويحيا نهباً لمشاعر الهجر ، فهو كائن مهجور ، واغترابه دائم ولايمكن قهره ، وأن حدة الاغتراب تزداد فى المواقف التى تتميز بقهر الحرية والاضطهاد والتشيؤ واستلاب الذات .

ومع الانهيارات المذهبية الكبرى والأيديولوجية التى واكبت الحرب العالمية الثانية : النازية والفاشية ، بدأ علماء النفس والاجتماع يتساءلون عن الأسباب والظروف والعوامل التى تجعل شعباً معيناً ، أو شعوباً بأسرها تتقبل الاتجاهات الأيديولوجية التسلطية ، بغض النظر عن معقولية هذه الاتجاهات وجدواها .

وتصدى لهذه المحاولة أدورنو Adorno ، (١٩٥٠) ، وبرونزفيك Brunsvik وليفنسون Levinsone (١٩٥٠) ، وسانفورد Sanford (١٩٥٠) .

وبدأ هؤلاء العلماء يدرسون الشخصية التسلطية ، وسماتها واتجاهاتها ومكوناتها ودوافعها ، وانتبهوا إلى أن هناك دوافع نفسية ، ومكوناً من مكونات الشخصية يكمن خلف تقبل وتهيؤ بعض الناس للاتجاهات التسلطية التى تمجد القوة ، وتحض على العدوان ، وتدعو إلى التعصب ، وقهر الضعفاء ، وكافة الأفكار والأيديولوچيات التى تميز الفكر الفاشى .

وقد ربط فروم (١٩٧١) بين الاغتراب والتسلطية التى اعتبرها إحدى « آليات الدفاع الرئيسية التى تدفع الفرد إلى التخلى عن حريته وعن استقلاله الذاتى ، بالاندماج مع شخص أو جماعة تمنحه الشعور بالقوة » (ص١٦٣) .

وأكد فروم (١٩٧١) أن الشخص التسلطى يعجب بالسلطة ويميل إلى الخضوع لها ، ولكنه فى الوقت نفسه يكون هو نفسه سلطة ، ويكون عنده آخرون يخضعون له (ص١٣٤) ، وأن « الشخصية التسلطية تحيا مقهورة بشعور لا يطاق بالعجز والوحدة وفقدان الأمن والاغتراب ، ومن ثم تكسب قوتها على الفعل من خلال اعتمادها على قوة أعظم ، وهذه القوة لا يمكن التهجم عليها أو تغييرها إطلاقاً » (ص١٤٠) .

وقد تكون هذه القوة زعيماً أو رأياً أو فكرة- دينية أو أيديولوچية – أو أماً أو أباً.

وفى الخمسينيات ، وهى الحقبة التى سميت بـ «الحرب الباردة » ، وهى حقبة كانت معبئة بالخوف والقلق من عودة العالم إلى ما كان عليه فى الثلاثينيات والأربعينيات من تعصب وتميز عنصرى وتمجيد للقوة ودعوة للحرب والدمار مثلما فعلت النازية والفاشية .

فى هذه الحقبة بدأ روكيتش Rokeach (١٩٥٤ - ١٩٦٠) يبحث عن جذور الدوجماطيقية فى الدين والفلسفة والعلم والأيديولوچية وغير ذلك من مناشط واهتمامات ومجالات عمله المختلفة.

ووجد روكيتش (١٩٦٠) أن الدوجماطيقية تكمن فى البناء المعرفى لدى الإنسان ، وفى أسلوب تناوله للأفكار والأشياء والموضوعات والمواقف وليس فى مضمون الفكرة أو الأيديولوچية ، وعلى هذا فإن الدوجماطيقى يحول أكثر الأفكار تفتحاً إلى منظومة مغلقة من الأفكار التى لا تقبل الجدل أو النقاش (ص١٩٥) ، وأن الدوجماطيقية من حيث هى « نسق مغلق من المعتقدات » تشير جذورها إلى التسلطية

العامة (شيلز Shills وروكيتش ١٩٦٠) وأنها لا تتوقف عن حدود الظاهرة السياسية أو الأيديولوچية ، بل تتخطاها إلى كافة مناشط الإنسان الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والأسرية وما إلى ذلك من مناشط إنسانية ، وأن الدوجماطيقية تعنى الجمود العقلى وضيق الأفق والتعصب ، وثنائية التفكير القطعى الذى يصنف الأشياء والأفكار إلى أبيض أو أسود ولا ظلال بينهما .

ويتسم الدوجماطيقى – كما يقول روكيتش (١٩٦٠) بالاستجابة المتطرفة فهو إما أن يقبل الشىء قبولاً مطلقاً ، أو يرفضه رفضاً مطلقاً (ص١٨٠) .

وبين الرفض والقبول ، لا توجد لدى الدوجماطيقى ، مساحة مرنة من التفكير تتيح له أن يقبل أو يختار أو يتعقل ، وأن يقيم بين ما يؤمن به ويعتقد ، وما يؤمن به الآخرون قنوات من الاتصال والتواصل ، ولهذا ، يرفض بوبر Popper (١٩٨٣) الدوجماطيقية استناداً إلى ثلاث حجج: الحجة الأولى تدور على أن الدوجماطيقى عاجز عن تغيير فروضه الأساسية فى ضوء الشواهد الجديدة ، وهذا العجز من شأنه أن يؤدى إلى عرقلة التقدم الاجتماعى ؛ ولهذا فإن الدوجماطيقية شائعة فى ذلك الجزء من المجتمع الذى يتسم بالمحافظة والرجعية ... والحجة الثانية امتداداً للحجة الأولى ، فعداوة الدوجماطيقى تؤدى به إلى عرقلة المبادرات الجديدة ، وإنكار العقل الناقد والحجة الثالثة تعتمد على أن جميع صور التغيير الثورى تؤدى بدورها إلى الدوجماطيقية (نوتا ، ١٩٨٣ ، ص٢٦ – ٣٠) .

وثمة علاقة بين التسلطية والدوجماطيقية ، فالتسلطية وإن كانت تستند – من وجهة نظر أدورنو وزملائه (١٩٥٠) – إلى النسيج النفسى للفرد الذى يجعله مهيئاً لتقبل قيم وأحكام واتجاهات التسلطية والدوجماطيقية – فيما يراه روكيتش – وإن كانت تستند إلى البناء المعرفى لدى الفرد ، فإن كليهما – التسلطية والدوجماطيقية – تلتقيان عند « الفعل » الذى يتصف بالعدوان والتعصب وتمجيد القوة ، والحض على قهر الآخرين المناهضين لأفكارنا واتجاهاتنا وقيمنا وميولنا .

وعلى الجانب الآخر من « أزمة الإنسان المعاصر » واغترابه ، كان علماء النفس الإنسانيون يبحثون عن الجانب المضىء والإيجابى فى الإنسان عن المعنى الكامن فى الإنسان فى مواجهة عالم مغترب ، وعن تأصيل القيم الإنسانية فى عالم اهتزت قيمه تحت وطأة الحروب ، ودفاعات التغيير المتسارعة التى هزت كل القيم الثابتة «الدين والأمة والمجتمع والأسرة تهتز الآن بقوة تحت التأثير العاصف لدفعة التغيير المتسارعة (توفلر ، ١٩٧٤ ، ص ٣٦) .

وقد تبلور هذا التيار الإنسانى كامتداد علمى لبعض معطيات الفلسفة الوجودية ، التى تقوم بعض ركائزها على أن الوجود الإنسانى هو وحده الوجود الحقيقى .. ، (هيدجر ، ١٩٦٧ ، ص٥٤) . وأن « الحقيقة هى ما يحققه الفرد بعمله » (كيركجورد، ١٩٦٧ ، ص ١٩٢) وأن وجود الآخرين شرط لوجودى وشرط لمعرفتى لنفسى .. (سارتر ، ١٩٦٦ ، ص ٢٤٠) .

ولهذا كان الإنسان – من وجهة نظر المنحى الوجودى – محور الوجود وذاتية الفرد نقطة الانطلاق ، وأن حرية الإنسان هى الأساس ، ومن ثم لا توجد طبيعة قبلية تحدد هوية الإنسان ، وملامح شخصيته فهو ما يفعل ، وما يختار ، وأن حريته مسئولة وملزمة ، والآخرون هم شرط وجود الإنسان وشرط معرفته بنفسه ، والإنسان – وإن كان يعيش نهباً لمشاعر الإثم والقلق والاغتراب – عليه أن يتجاوز وضعه ، وأن يعلو على نفسه ، وأن يحقق ذاته ، ويصوغ لنفسه هوية ومعنى وقيمة .

وقد وجد روجرز Rogers (١٩٥١)، ماسلو (١٩٥٤، ١٩٧٢) وفرانكل Frankle (١٩٨٢) ، وماى May (١٩٥٠) وفروم (١٩٤٥ ، ١٩٧١) ، وبنزفنجر Benswanger (١٩٥٧) وماركيوز (١٩٤٥) ، وتورانس (١٩٦٧) وعبد السلام عبد الغفار (١٩٧٣ ، ١٩٨٠) فى بعض معطيات الفلسفة الوجودية المضمون التصورى لما يمكن أن يكون عليه الإنسان ، من حيث هو نزوع مستقبلى ، و « هوية فريدة فى نوعها لاتتكرر » (فروم ١٩٦٩ ، ص ١٣٠) ، وصيرورة نمائية تتجه صوب تحقيق الذات ، بنداء فطرى لا رادّ له (روجرز ، ١٩٥١ ، ماسلو . ١٩٥٤) وأن حياة الإنسان تكمن فى المعنى ، وأن فقدان المعنى يعنى الوقوع فى أسر ما يسميه فرانكل (١٩٨٢)، « الفراغ الوجودى » وهو حالة من الملل والسأم يشعر من يخبرها بأن الحياة تمضى بغير معنى أو هدف ، وأن حياته راكدة ، مملة وبغير معنى .

وقد وجد عبد السلام عبد الغفار ، (١٩٧٣) فى المعنى وفى « السمو » وفى التنظيم العقلى » ، وفى إرادة الوجود وإرادة العطاء وتحقيق الإنسانية المتكاملة ما يفسر طبيعة الإنسان ، ويحدد معالم هذه الطبيعة الإنسانية المتواصلة النماء والتطور .. فوجود الإنسان يكمن فى معنى وجوده (ص٥٦) ، وأن الإنسان حر بطبيعته وأن حريته مشروطة وملزمة ، وإنه كائن متواصل النماء ، وأن الصراع الذى يعانيه الإنسان ويكابده صراع وجودى بين الوجود – واللاوجود : الوجود الذى يكمن فى المعنى الذى يؤدى إلى استمرار الوجود ، واللاوجود حيث يتلاشى المعنى فى الحياة . وأن الإنسان يملك « إرادة الوجود » والتى حددها بوصفها القوة الدائمة الدفع والتوجيه

والتنظيم لنشاط الفرد بغية تحقيق وجوده والوصول إلى مستوى مناسب من الإنسانية المتكاملة » (٥٤) .

وأوضح ماسلو ، (١٩٥٤) أن الإنسان خَيِّرٌ بفطرته ، وأن الخير فى الإنسان هو أعدل الأشياء قسمة بين الشر ، وأن الإنسان ينطوى على إمكانات بغير انتهاء ، وقدرات عقلية متميزة ، ومواهب إبداعية شتى ، وأن تحقيق الذات ، مرورا بإشباع حاجات الفرد الإنسانية هو مجلى الوجود الإنسانى ، وجوهر فطرته .

ولهذا كانت مهمة التربية والعلاج النفسى ، حسبما يرى ماسلو (١٩٥٤) ، وفرانكل ، (١٩٨٢) ، وتورانس ، (١٩٦٧) ، وبنزفنجر (١٩٥٨) ، وعبد السلام عبدالغفار ، (١٩٧٣ – ١٩٨٠) وإريكسون (١٩٦٨) تكمن فى رد الإنسان إلى نفسه ، إلى إنسانيته إلى إمكاناته الداخلية ، وقدراته على الفعل الإبداعى ، فهو «الكائن الوحيد الذى ينزع دوماً إلى أن ينمو على نحو أكثر صحة ، وإلى أن يحقق إمكاناته ، وإلى أن يكون متطلعاً ومنقباً ومبدعاً .. وهو لا يتكيف فحسب ، ولكن يتمرد أيضاً (ماسلو ، ١٩٧٨ ، ص ٤٨) .

والتمرد ، هنا إيجابى قائم على تسامى الإنسان وتجاوزه لوضعه أى تجاوزه «لما هو كائن» لبلوغ ما « ينبغى أن يكون » ، باستكشاف جوانب المعنى والقيمة والهدف فى داخله ، بوصفها مصادر السعى والفاعلية والحيوية والاستمرارية .

ويمكن تلخيص بعض جوانب « أزمة الإنسان المعاصر» والتى أدت إلى اغترابه، واستلابه من ذاته ، وتشييئه ، فيما يلى :

١ – حربان عالميتان كبيرتان ، فجرهما الإنسان فى أقل من ثلاثين عاماً وبسببيهما تمزقت معنويات الإنسان ، وجعلتاه يشعر بعجز القيم السائدةعن إنقاذه من ويلات الحرب ودمارها الرهيب .

٢ – تفجر معرفى استلزمته ضرورات الحرب وضرورات السلام ، امتد ليستوعب كافة مناشط الإنسان ، وتمثل فى ثورة المعلومات ، وفى الطاقة الجبارة بكل مخاطرها وإيجابياتها ، وفى تكنولوجيات المعلومات .

وقد أدى هذا التفجر المعرفى إلى زيادة الإنتاج ، وظهور ما سمى بظاهرة الأتومشين Automation وظهور الإنسان – الآلة .

٣ – مذاهب فلسفية وفكرية اتسمت بالكلية والشمول : كفلسفة الحضارة وفلسفة التطور وفلسفة الحياة ، وقد أسهمت جميعاً بشكل أو بآخر ، فى تحويل

الإنسان إلى كائن لا وزن له .. إلى إنسان لا حول ولا قوة له .. إلى ذرة إنسانية ... إلى رقم فى إحصاء كبير .. إلى موجود فى ذاته كما يسميه سارتر .

٤ – أيديولوجيات عقائدية اتسمت بالتسلط والقطعية وجمود الفكر والتعصب والتمييز العنصرى والحض على العدوان ، وتمجيد القوة ، ومعاداة الأفكار الأخرى .

وتمثلت هذه الأيدلوچيات المذهبية فى النازية والفاشية فى الثلاثينيات والأربعينيات . وفى الخمسينيات كانت الحرب الباردة « بين المعسكرين »، ثم ظهرت بعد ذلك أشكال متعددة من التعصب وجمود العقل والتفكير القطعى فى أنحاء شتى من العالم.

٥ – احتجاجات على وضع الإنسان وموقفه ، تمثلت فى كتابات المفكرين وعلماء النفس والاجتماع والتربية ، وتمثلت فى البحث عن الجوانب الإيجابية فى الإنسان حيث الفاعلية والاستمرارية ، وتأصيل القيم واستثارة كوامن المعنى فى أعماقه وتأكيد حريته وتساميه وسعيه الدؤوب نحو تأكيد ذاته .

٦ – أيديولوچيات جديدة ومراكز قوى ظهرت بعد الحرب العالمية الكبرى، وصاحبتها حروب هنا وهناك وبؤر للصراع والتوتر فى أنحاء شتى من العالم ، مثل : فيتنام ، وكوريا الشمالية ، وإيران والعراق ولبنان .. إلخ ، كل هذا حدث كما لو كان فى داخل الإنسان « شىء انتحارى يدفعه إلى الحروب » (سكنر ، ١٩٨٤ ، ص١٢) .

كل هذا ، جعل الإنسان المعاصر يشعر بالاغتراب ، كما أدت التحولات المادية السريعة إلى أن يفقد الإنسان القدرة على التواصل مع نفسه ، ومع مجتمعه ، ومن ثم اهتزت معاييره « فحينما تتغير الأشياء من حولك فإن تغيرا موازياً يحدث فى داخلك» (توفلر ، ١٩٧٤ ، ص ٣٦) .

وقد أدى التقدم التكنولوچى ، والإيقاع السريع لحركة المتغيرات – حسبما يرى فروم – (١٩٧١) إلى شعور الإنسان بأنه أصبح عبداً للآلة التى صنعها ، وليس سيداً لها ، وأن الحرية التى كابد من أجل الحصول عليها لم تقدم له سوى الشعور بالعجز واللاجدوى والعزلة .

ومن ثم كانت أساليب الإنسان المعاصر للهرب من حريته ؛ أى الهرب من حالة العجز واللاجدوى والشعور بالوحدة الذى لا يطاق ، بالانتماء إلى كيانات أكبر منه تشعره بالقوة وبالأمن ، وترد إليه الإحساس بالحرية ، واختلفت انتماءات الإنسان المعاصر باختلاف أساليب الهرب من حريته ،فقد تكون شخصاً أو مؤسسة ، أو أهلاً أو أمة أو ضميراً ، أو قهراً نفسياً (ص١٧٧) .

ولسوء حظ الإنسان المعاصر – فيما يرى فروم ، (١٩٧١) – فإن التجمعات النقابية التى لجأ إليها لم تحقق له التواصل ، ولم تقهر فى داخله الشعور بالاغتراب ، ولم ترد إليه الشعور بالأمن؛ لأن ، كثيراً من النقابات نفسها قد نمت وتضخمت إلى درجة لم يعد للعضو البسيط أى دور فى تشكيل قرارات النقابة التى ينتمى إليها ، وتحول مرة أخرى إلى مجرد ترس فى آلة كبيرة ، عليه أن يخضع وأن يطيع (ص١٤٨) .

ويرى (فروم-١٩٦٩) أن الإنسان المعاصر قد خلق لنفسه عالماً خاصًّا من النظم .. من القوانين .. من الأشياء التى لم يكن لها وجود من قبل ، ومع ذلك فهو لايشعر بنفسه خالقاً لهذه النظم ، بل عبدا لوثن صنعه بيديه ، ولم يشعر بنفسه خالقاً لعمله متحكماً فيه ، بل أصبحت أعماله – وما يترتب عليها – منفصلة عنه ومتسيدة عليه ، وأصبحت حياته من جراء ما يكابده فى عمله لا يسودها الإخاء والسعادة والقناعة ، بل تجتاحها الفوضى الروحية والضياع الذى يقترب اقتراباً خطراً من الاضطراب العقلى الذى يشبه انفصام الشخصية ، حيث ينعدم فيه الاتصال بالواقع الخارجي ، وينشق فيه الفكر عن الوجدان (فروم ، ١٩٧٨ ، ص ٧) .

ويتضح مما سبق بعض ما قد يعانى منه الإنسان المعاصر من عجز واغتراب ، وهذا ما يجعله غريباً عن ذاته ، عن ثرائه الداخلى ، ونتيجة لانفصاله عن ذاته لحساب الواقع الخارجي – تواؤما واستكانة وخضوعاً – يصبح عقيماً ، فقيراً عن كل ثراء ذاتى ؛ لأنه تحول إلى مجرد شيء إلى موجود فى ذاته Being - in - itself ، كما يسميه سارتر .

وحينما تزداد حدة ما يشعر به الفرد من اغتراب ، وانفصال عن نفسه .. فإن حياته النفسية تختل معاييرها وتهتز وتظهر عليه الأعراض المصاحبة للاغتراب ، والتى قد يتمثل بعضها فى الشعور بالوحدة والتشيؤ واللامعيارية والعجز واللامعنى والتمرد .

هدف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة التحليلية الكشف عن العوامل التى تحدد ظاهرة الاغتراب ، كما تهدف أيضاً دراسة العلاقة بين هذه العوامل وكل من التسلطية والدوجماطيقية والقلق وتحقيق الذات .

أهمية الدراسة :

تكمن أهمية الدراسة فى الموضوع الذى تتصدى لدراسته ، ولا سيما أن الدراسة تتخذ من خمسة متغيرات تتمثل فى الاغتراب ، والتسلطية والدوجماطيقية والقلق وتحقيق الذات أداة لتحليل بعض ما يعانيه الشباب المصرى الجامعى من أزمات نفسية واجتماعية ، وإبراز الجوانب الإيجابية فى شخصيته حيث تحقيق الذات باستثمار القدرة والإمكانة والموهبة ، وتأصيل المعنى والقيمة والهدف فى حياته.

وتكتسب متغيرات الدراسة أهمية خاصة بتعبيرها عن بعض جوانب أزمة الإنسان المعاصر ، ولهذا يمكن تسميتها «مصطلحات أزمة» ؛ لأنها ارتبطت بالإنسان المعاصر ، إثر أزمته الطاحنة فى أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها ، وحيث تكون «الأزمة» يكون المخرج منها «إنسانياً» بالبحث والدراسة ، ومعرفة ما تؤدى إليه من مصاحبات وما يكمن وراءها من عوامل وأسباب .

فبعد انتهاء الحرب الثانية ، بدا أن هناك عالما جديداً يتشكل وسط أزمات إنسانية طاحنة ، وطموحات جديدة ، ومتغيرات علمية وتكنولوچية جديدة ، استلزمتها ضرورات الحرب وضرورات السلام ، وإن إنساناً جديداً يختلف عن إنسان ما قبل الحرب العالمية الثانية ، استوعبته أزمات الحرب وآثارها ، أصبح عليه عبء تجاوز آثارها النفسية والاجتماعية والحضارية .

ها هنا ، كان جهد العلماء والمفكرين والباحثين فى البحث عن أسباب وأبعاد «أزمة الإنسان المعاصر» والتى قد تتمثل فى بعض جوانبها فى الاغتراب ، وما يترتب عليه من مصاحبات ، وما يرتبط به من متغيرات يتحدد بعضها فى التسلطية والدوجماطيقية والقلق وتحقيق الذات .

ولئن كان الاغتراب مصطلحاً قديماً ، استخدم على أنحاء شتى ، لاهوتياً وفلسفياً وأدبياً ، فإن العلماء والمفكرين وجدوا فيه تعبيراً عما يكابده الإنسان المعاصر ويعانيه ، وعدّوه ظاهرة إنسانية ، متعددة الأبعاد ، مختلفة من حيث زاوية الرؤية : نفسيّاً واجتماعيّاً ووجودياً ، واتفقوا على أن الاغتراب تزداد حدته ودرجته ومجال انتشاره كلما توافرت العوامل والأسباب المهيئة للشعور بالاغتراب نفسياً واجتماعياً ووجودياً.

وبالنسبة لمتغيرى التسلطية والدوجماطيقية ، فكلاهما نتاج أزمة عصر ما قبل وفى أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية ، حيث تعرض الإنسان لهزات قيمية حادة ، وتسلطت على مقدراته اتجاهات اتسمت بالتسلط والشوق الدائم للقوة والحض على العدوان ، وما إلى ذلك من أبعاد يتحدد فى ضوئها معنى التسلطية.

وقد مهدت لهذه الاتجاهات أيديولوچيات ، تمثلت فى النازية والفاشية ؛ ولهذا كان جهد أدورنو وزملائه (١٩٤٣ ، ١٩٥٠) وميرفى (١٩٤٧) وفروم (١٩٧١) ، وغيرهم من العلماء والباحثين يتمثل فى معرفة المكونات النفسية للشخصية التسلطية، بما تنطوى عليه من دوافع وما تتسم به من سمات .

أما روكيتش (١٩٥٤ - ١٩٦٠) - الذى ظهرت دراساته إثر الحرب الباردة - فقد راح يبحث عن جذور الدوجماطيقية فى الفكر والسلوك والمواقف التى قد تتسم بـ «مع» أو «ضد» ، وانتهى إلى أن جذور الدوجماطيقية تكون فى «البناء المعرفى» لدى الفرد ، وفى طريقة تناوله للأفكار والموضوعات والمواقف ، وليس فى مضمون الفكرة أو الأيديولوچية.

هذا .. وقد وجد علماء النفس والطب النفسى فى القلق « خبرة انفعالية» قديمة قدم الإنسان نفسه ، تمثل عصب الحياة النفسية للفرد ، وتفسر طبيعة الصراع النفسى الذى يعانيه الفرد ، وأنه سمة كامنة ومتأصلة فِي وجود الفرد ، و«حالة» تزداد حدتها مع مواقف التهديد والضغط والشدة ، وأنه عرض يصاحبه كثير من الأعراض البيولوچية ، وأن القلق أمر لا مناص منه عند درجة معينة ؛ لتقديم كل إيجابى وجديد فى الحياة ، وأنه المتغير الذى يعبر عن طبيعة العصر الذى نعيشه ، ويرتبط بكافة متغيرات الصحة النفسية . (فرويد ، (١٩٩٦) ، هورنى ، (١٩٦٢) ، كامبل وشبيلبرجر (١٩٦٦) ، تايلور وسبنسر ، (١٩٦٦) ، وغيرهم من العلماء والباحثين.

وعلى الجانب الآخر من أزمة الإنسان المعاصر ، كان بحث علماء النفس الإنسانيين عن الجوانب الإيجابية فى طبيعة الإنسان ؛ حيث تحقق الذات باستثمار طاقاته وحسن توظيفها ، وتأصيل المعنى والقيمة والسعى والاستمرارية والنماء ليتجاوز الإنسان ما هو «كائن» لبلوغ ما ينبغى أن يكون عليه ، ومن ثم كانت دراسات (جولد شتين، (١٩٣٩)؛ ماسلو (١٩٥٤ - ١٩٦٢)؛ روجرز ، (١٩٥٤)؛ ماى ، (١٩٦٦)؛ شوستروم (١٩٧٤)؛ فرانكل ، (١٩٨٠)؛ عبد السلام عبد الغفار ، (١٩٧٣ ، ١٩٨٠) وغيرهم من الباحثين.

وهكذا تعبر هذه المتغيرات عن طبيعة الإنسان .. عن مواطن الأزمة فيه ، وعن مكامن الثراء الإنسانى فى صلب تكوينه .

ولئن كانت هذه المتغيرات «نبتاً طبيعياً» لأزمة الإنسان المعاصر فى الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات والستينيات ، فإنها تعبر عنه فى السبعينيات والثمانينيات ، حيث يموج العالم بتيارات فكرية وعقائدية ، يتسم بعضها بالتطرف والتشدد ، وانتشار الإرهاب والعنف ، وتزايد الشعور بالقلق والخوف الذى يلازم الإنسان فى مسيرته الحضارية للخروج من الأرض بجاذبيتها إلى أفلاك السماء ، وتزايد الشعور بالقلق من نشوب حرب عالمية ثالثة نتيجة لخطأ علمى ، أو ضغط سياسى ، وتهديد مستمر للطبيعة والدمار أو التلوث (تشيرنوبل فى الاتحاد السوفيتى؛ تشالنجر فى الولايات المتحدة ، انفجار بحيرة للغاز الطبيعى فى نيجيريا ، حدوث خلل فى مفاعل نووى فى سويسرا) وما إلى ذلك من مخاطر تهدد الإنسان والبيئة والحياة جميعاً بالفناء والتلوث؛ أضف إلى ذلك ما يعيشه العالم من أزمات طاقة وتجارة وديون.

ومن هنا بدأ العالم المتقدم يعيش تحديات شتى ، لعل أهم التحديات التى تواجه الدول المتقدمة ، هى : الحاجة إلى نظام اقتصادى عالمى جديد ، والوصول إلى درجة مناسبة من الوفاق العالمى ، ومواجهة ظاهرة الاغتراب بين الشباب .

وتعتبر ظاهرة الاغتراب ، وما يترتب عليها من «مصاحبات» ، وما يرتبط بها من متغيرات نفسية كالتسلطية والدوجماطيقية والقلق وتحقيق الذات ، أحد جوانب أزمة الإنسان المعاصر ، التى نجد لها تعبيراً بين الشباب الذى يمثل - بحكم مرحلته العمرية - التوجه للمستقبل ، ومن ثم كان الشباب أولى من غيره فى الإحساس بالاغتراب ، والعمل على ضرورة إزالته ؛ لأنه الوريث الشرعى للحضارة البشرية فى امتدادها البشرى (مراد وهبه ، ١٩٧١ ، ص ٢٥٠) .

وتمثل مرحلة الشباب تغيراً - كمياً وكيفياً - فى تكوين شخصية الفرد .. ولهذا كان الشباب هو العنصر الحاسم فى كل تقدم وازدهار بما يحمله من إمكانات وقدرات ومواهب وخيال خصب ، تجعله أشد حساسية لما يحدث فى داخله من تغيرات عضوية ونفسية وفكرية ، وما يحدث فى واقعه من تغيرات حضارية واجتماعية وسياسية ، ففى الفترة من سبتمبر ١٩٦٤ ، إلى يناير ١٩٦٥ شهدت جامعة بركلى الأمريكية بكاليفورنيا سلسلة من الاضطرابات ، وانطلقت الثورة فى الصين الشعبية فى سبتمبر ١٩٦٥ ، ثم تفاقمت تحركات الشباب بعد ذلك ، منها : مظاهرات فبراير عام ١٩٦٨ ، فى جامعة بلجراد بيوغسلافيا ، (مراد وهبه ، ١٩٧١ ، ص ٢٥٠) .

ويستطرد مراد وهبه ، (١٩٧١) موضحاً «أن هذه التحركات ، وإن تباعدت بينها المسافات لها دلالة ، وهى تطلع الشباب إلى رؤية جديدة تضع التكنولوجيا فى مكانها الصحيح ، بحيث تصبح أداة لخدمة الإنسان لا للهيمنة عليه » (ص ٢٥٠ – ٢٥١) .

ويذكر حازم الببلاوى (١٩٨٣) أن من بين الشعارات التى رفعت فى أثناء ثورة الطلاب في فرنسا فى مايو ١٩٦٨ على جدران جامعة السربون «الثورة البورجوازية ثورة قانونية ، والثورية البروليتارية ثورة اقتصادية ، أما ثورتنا فهى ثورة ثقافية نفسية» (ص٨٥) .

وقد أثارت تحركات الشباب اهتمام علماء النفس والاجتماع والتربية لمعرفة أسباب اغتراب الشباب وما يترتب عليه من مصاحبات ، وما يرتبط باغترابه من متغيرات ، وما يتسم به من سمات ، وما يعتنقه من أفكار واتجاهات وقيم ، ومن ثم راحوا يدرسون المجتمع الطلابى ، ومناهجه ومجالات نشاطاته ، وأسباب رفضه واغترابه وما يرتبط به من متغيرات .

هذا .. وتحاول هذه الدراسة أن تكشف عن بعض مظاهر الاغتراب لدى الطالب المصرى ، وما يرتبط باغترابه من متغيرات نفسية تتمثل فى التسلطية والدوجماطيقية والقلق وتحقيق الذات .

ولعل ما يموج به المجتمع الطلابى فى مصر ، من تحديات شتى منها ما هو اجتماعى ، وما هو سياسى وما هو فكرى ، وما هو نفسى يجعل من هذه الدراسة ضرورة لا مناص منها، إذا ما أريد فهم بعض مظاهر الاغتراب وما يصاحبه ، وما يرتبط به من متغيرات .

مفاهيم أساسية :

١) الاغتراب Alienation

هو انفصال الإنسان عن وجوده الإنسانى ، ويمثل هذا الانفصال زملة من الأعراض المصاحبة ، والتى تتمثل فى :

أ – العزلة الاجتماعية Social isolation

ويقصد بها الالتصاق بالذات ، والانفصال عن الآخرين والشعور بعدم الانتماء إلى مجتمعه وإلى عالمه .

ب – التشيؤ Reification

ويقصد به أن الفرد يعامل كما لو كان شيئاً ، وأنه قد تحول إلى موضوع ، وفقد إحساسه بهويته ، ومن ثم يشعر أنه مقتلع حيث لا جذور تربطه بنفسه أو واقعه.

جـ – اللامعيارية Normlessness

انفصال ما هو ذاتى عمّا هو موضوعى ، حيث تنفصل غايات وأهداف الفرد عن أهداف ومعايير المجتمع ، وتصبح الغاية عند الفرد تبرر الوسيلة.

د – العجز Powerlessness

ويقصد به الشعور باللاحول واللاقوة ، ويعجز الفرد عن السيطرة على تصرفاته، ورغباته ، وافتقاره إلى الشعور بأنه قوة حاسمة ومقررة فى حياته ، وفقدانه الشعور بتلقائيته ، ومرح الحياة .

هـ – اللامعنى : Meaninglessness

ويقصد به أن الفرد يرى أن الحياة لا معنى لها ، وأنها تسير وفق منطق غير معقول ، ومن ثم يشعر المغترب أن حياته عبث لا جدوى منها، فيفقد واقعيته ويحيا نهباً لمشاعر اللامبالاة والفراغ الوجودى .

و – التمرد : Rebellion

شعور الفرد بالرفض والكراهية لكل ما يحيط به من قيم دينية أو وضعية وشعوره بالرفض لنفسه ولمجتمعه .

٢ – المتغيرات النفسية :

أ – التسلطية : Authoritarianism

مجموعة من السمات التى تتصف بالتعصب الفكرى ، وتمجيد القوة ، والامتثال للسلطة والقيم التى تشجع على التعصب والعنصرية واحتقار الضعفاء (أدورنو، ١٩٥٠ ، ص ٢٢٨) .

ب – الدوجماطيقية : Dogmatism

« نسق معرفى مغلق من المعتقدات الخاصة بالواقع والحياة ، ينتظم حول مجموعة من الأفكار الخاصة بقوة السلطة المطلقة ، وتتحول هذه بدورها إلى معايير تنظم سلوك الفرد نحو الآخرين وتتسم بالتسامح والنفور» (روكيتش ، ١٩٥٤ ، ص ١٩٥).

جـ – القلق : Anxiety

استجابة لخطر غامض وغير معروف . وسواء كان هذا الخطر داخليًا فى نفس الفرد أم خارجيًا فى بيئته الاجتماعية الحضارية .. فإنه يهدد شعوره بالأمن والاستقرار (أحمد رفعت جبر ، ١٩٧٨ ، ص ٥٧) .

د – تحقيق الذات : Self - Actualization

استثمار الفرد المحقق لذاته لإمكاناته على نحو يجعله يحيا حياة ثرية فى معناها ، أكثر بكثير من الشخص العادى (شستروم ، ١٩٧٤ ، ص ١٤٧) .

الشباب وأزمة التطرف

جذور التطرف تاريخياً واجتماعياً ونفسياً

سمى التيار الدينى بمسميات عدة .. منها التطرف الدينى ، الأصولية ، الإسلامية ، الإخوان المسلمين . والجماعات الإسلامية ، وما انطوت عليه من فصائل ومسميات متعددة .

وكان يقصد بتلك المسميات إبراز الخصائص الأساسية لبعض التيارات الدينية، وما تنطوى عليه من تفكير قطعى ، وضيق أفق ، وجمود وخوف ، وعدوان مخضب بالدم فى بعض الأحيان .

وهذه المسميات جميعا ترجع إلى فكرة واحدة محورية .. هى العودة إلى الأصولية الدينية الإسلامية متخذة لنفسها أساليب عدة أبرزها العنف والتشدد والتطرف والتعصب فى الفكر والسلوك والاعتقاد .

ويخطىء من يتصور أن التيار الأصولى الجديد ، وليد هذه الحقبة من تاريخنا ، بل هو تيار له جذوره التاريخية الضاربة فى عمق التاريخ الإسلامى ، وله أسبابه الاجتماعية ومظاهره النفسية ؛ ولهذا فإن فهم هذا التيار الدينى يستوجب البحث فى تفاعلات الماضى فى جذوره التاريخية ؛ من أجل الوصول إلى مستقبل أفضل تسوده حرية الحوار بالحجة والرأى المستنير لا بالرصاص ، وبهذا يكون التاريخ هو علم فهم المستقبل ، ويكون الرجوع إليه ضرورة لفهم ديناميات الحاضر وتفاعلاته الاجتماعية والنفسية.

وهنا تثور عدة تساؤلات :

١ - ما جذور هذا الفكر المطلق ؛ أى الفكر القطعى الذى يقوم على ثنائيات قطعية كفر أو إيمان جاهلية أو إسلام ، حاكمية الله فى مقابل حاكمية البشر ... خير أو شر ، أبيض أو أسود ولا ظلال بينهما ؟

٢ - ما الذى يدفع البعض من الشباب إلى تحويل أشد الأفكار الدينية تفتحاً إلى أفكار مغلقة جامدة لا تقبل الجدل أو النقاش ؟ وما الذى يدفع بعض الشباب إلى الدفاع عمّا يؤمنون به من أفكار بخوف وتعصب وغضب وعدوان مخضب بالدم أحياناً؟

٣ - لماذا يتميز الأصوليون الدينيون بخصائص نفسية واجتماعية ، تتخذ من التفكير القطعى محوراً ونقطة انطلاق لكافة توجهاتهم فى الفكر والسلوك والمواقف؟

لابد إذاً أن تكون لهذا الفكر جذوره التاريخية ، وأن تكون للقائمين على هذا الفكر خصائصهم النفسية، وأن تكون لهذا الفكر أسبابه الاجتماعية التى تجعل البعض مستهدفاً لتقبل الأفكار التى تدعو إلى التطرف وتحض على العدوان ، ومناهضة كافة الأفكار الأخرى بعنف وخوف وعدوان .

ويمثل مطلب العودة إلى الأصولية الدينية ظاهرة تاريخية ونفسية واجتماعية ، فلنبدأ بجذورها التاريخية ، فمن البذرة تعرف الثمرة.

لقد بذرت بذرة الأصولية الإسلامية فى القرن الأول الهجرى ، وتواصلت عبر العصور إلى وقتنا الحاضر بمسميات شتى وأساليب متنوعة وفصائل متعددة ، وكانت البداية إبان الصراع السياسى الذى شاهدته الساحة الإسلامية بين على (كرم الله وجهه) ومعاوية بن أبى سفيان ، ولم تستطع جماعة من المسلمين ، أطلق عليها اسم الخوارج أن تفهم طبيعة الصراع السائد أو طبيعة العوامل الاجتماعية والاقتصادية والإقليمية التى تكمن خلفه ، بل راحت تكفِّر الجميع وتعلن مروق الجميع من دين الله، ومن ثم كانت صيحتهم الشهيرة فى معسكر صفين ، معسكر على ابن أبى طالب:

لا حكم إلا الله ولو كره المشركون

وكان جواب على حاسما: إنها كلمة حق يراد بها باطل.

لقد أدرك علىٌّ ببصيرته الإيمانية وبصيرته السياسية أن هذه الصيحة تعنى إقحام المطلق فى عالم النسبى ، وتخلط بين الكلى الثابت والجزئى المتغير ، وأن صيحة الخوارج اغتراب للكلم عن موضعه.

فلقد كان الصراع سياسيًا له أدواته وله عوامله .. وله حركته ، ولكن الخوارج لم يفهموا طبيعة هذا الصراع السياسى أو قواعده ، وأضفوا عليه طابعاً دينيًا متطرفاً واعتبروا أنفسهم مسلمى الأمة ، وأن من عداهم كافر ، وأن من ينشق عن دعوتهم ولايستجيب لصحبتهم مارق فاسق ظالم يستباح دمه .

وهنا لنا أن نتساءل ..

هل كان الخوارج بصيحتهم ربانيين يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ، وكان على كرم الله وجهه مارقاً من دين الله ، فاسقاً ظالماً ؟

وهل كان الخوارج منزهين عن الغرض والهوى الشخصى ، عندما استباحوا دم على ؟ لقد كان الخوارج من بداوة الأعراب ، ولم يكونوا من الصحابة.

وكان على ربانيًا ، إماماً تقيًا يغوص فى أعماق الدين ويفهم ما وراء النصوص، وكان رجل دولة ، حكيماً بصيراً بشئون السياسة وعوامل التغير الاجتماعى والاقتصادى ، وغلبة المصالح القبلية على فكر ووجدان الناس ، وكان عبقرياً تتخطى جوانب الشموخ فى شخصيته الكلمات .

ولكنهم استباحوا دمه واعتبروه مارقاً من دين الله ، فهل كانوا بذلك منزهين عن الغرض؟.

إن من قتل عليا حسبما يرى الاستاذ العقاد فى كتابه «على بن أبى طالب» كان عاشقاً مخبولاً ، يستنجزه الوعد فهو مأسور زمامه فى يد غيره وليس فى يديه.

وهذا العاشق المخبول الذى قتل عليا كان اسمه عبد الرحمن ابن ملجم، كان يحب فتاة من تيم الرباب ، قتل أبوها وأخوها وبعض أقربائها فى معركة الخوارج، وكانت توصف بالجمال الفائق والشكيمة القوية وتدين بمذهب قومها فوق ما فى جوانحها من لوعة الحزن على ذويها ، فلما خطبها ابن ملجم له لن ترضى به زوجاً إلا أن يشفى لوعتها.

قال : وما يشفيك ؟

قالت : ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة وقتل على بن أبى طالب .

قال : أما قتل على فلا أراك ذكرته لى وأنت تريدينى.

قالت : بل ألتمس غرته فإذا أصبت شفيت نفسك ونفسى، ويهنأ لك العيش معى، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها .

وهكذا قُتل على بخنجر ابن ملجم العاشق المخبول عشقاً ، وغراماً بفتاة تيم الرباب ، وانطلق الخوارج يكفرون كل ما عداهم ويبذرون بغلوهم فى الدين بذور التفكير القطعى حيث ثنائية الكفر أو الإيمان ، حاكمية الله أو حاكمية البشر ، واستمرت ثورتهم على الأمويين قرابة قرن من الزمان ، أنهكوا فيها قوة الدولة الأموية تماماً وظلت صيحتهم الشهيرة «لا حكم إلا الله» المضمون الأساسى للحركات الإسلامية فى أوائل القرن العشرين ، على أيدى أبى الأعلى المودودى فى باكستان ، والأستاذ سيد قطب فى مصر.

وبقيام الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية ، واتساع الدولة الإسلامية فى الشرق حيث الهند وفى المغرب حيث الأندلس ، أصبحت الدولة العباسية مسئولة عن أمم وشعوب وأجناس لها أبنيتها الفكرية وهويتها الذاتية وخصوصيتها النوعية ومشاكلها الخاصة ، ونتيجة لهذا الالتقاء الحضارى بدأت تتسرب بعض المؤثرات الحضارية إلى بلاط الخلافة ؛ خاصة المؤثرات الفارسية ، فتأثر العباسيون بنمط حياة أكاسرة الفرس مثلما تأثر الأمويون بنمط حياة قياصرة الروم ، وتجاوزت المؤثرات الجديدة حدود البلاط العباسى ، إلى الحياة الاجتماعية فظهرت طبقات اجتماعية جديدة وأنماط سلوكية جديدة وتحديات حضارية جديدة ، بدأت تواجه العقل العربى المسلم بتحديات حضارية شديدة الخصوبة والتعقيد مثل منطق أرسطو ببراهينه العقلية ، وحكمة ميراث الفرس ، وهندسة المصريين ، وخصوصية هويتهم .. وما إلى ذلك من تحديات استوجبها التقاء أمم وشعوب وحضارات .

فى هذا المناخ ظهر الإمام أحمد بن حنبل ، وقاد الدعوة إلى الأصولية الدينية الإسلامية .

وكان إماماً فقهياً مستنيراً ولم يكن متطرفاً ، بل كان مدققاً فيما يتصل بالأحاديث النبوية ، ولهذا لم يعتمد إلا الأحاديث التى اتفق على صحتها إجماع الرواة.

واعتباراً من القرن التاسع الميلادى، بدأت الدولة العباسية تزداد ضعفاً ، إذ قطعت الانقسامات عن مركز الخلافة روابط الوحدة مع مركز الخلافة الرئيسى ، وهددت الثورات المستمرةمركز الخلافة نفسه ، وبدأ يزداد عدد الأجناس غير العربية ، ولاسيما الأتراك والسلاجقة ، وبدأوا يشكلون قوة لها نفوذها وسلطانها على مركز الخلافة نفسها ، وبدأ التدفق العربى من شبه الجزيرة العربية تخف موجات تدفقه.

وفى وسط هذا الموقف العربى والإسلامى المتردى ، ارتكب الخليفة «المعتصم» خطأ حضارياً كبيراً ، باستعانته بالترك المماليك لمجابهة الانقسامات والثورات داخل الدولة.

وكان طبيعيّاً أن تفرز هذه الفترة تيارات فكرية ، تناهض الغزو وتحض على الكفاح ، وتقف بحسم ضد تيارات التغريب الكاسحة ، وترد المسلمين إلى أصولهم الدينية وسالف مجدهم ، فكانت أفكار «ابن تيمية» استلهاماً مباشرة لفكر المعلم الأصولى الإمام أحمد بن حنبل.

وانتقل فكر ابن تيمية عبر العصور ، فكان ومن قبله الإمام أحمد بن حنبل المصدر الأساسى لكل دعوة أصولية ، فتأثر بهما الشيخ جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده فى القرن١٩ .

أما « أبو الأعلى المودودى » فكان تأثره أشد بفكرة « الحاكمية » ، التى انطلقت صيحتها الأولى من الخوارج فى القرن الأول الهجرى.

واستطاع « أبو على المودودى » أن يبلور هذه الفكرة ويجعلها « الوسيلة » لاستقلال باكستان السياسى والدينى فى الهند .

وقد تأثر « سيد قطب » بهذه الفكرة ومن بعده الجماعات الإسلامية ، التى انطلقت من كل صوب وكل مكان على نحو قطعى عنيف فى مصر وفى عالمى العروبة والإسلام .

جماعة الإخوان .. والدعوة الأصولية :

نشأ تيار الأصولية الإسلامية إثر اغتيال الشيخ حسن البنا المرشد العام لجماعة الإخوان فى ١٢ فبراير ١٩٤٩ م ، وباغتيال حسن البنا دخلت جماعة الإخوان منعطفاً تاريخياً جديداً .. وبدأت جذور التطرف الدينى تجد لها سبيلاً داخل جماعة الإخوان ، لغيبة قيادتها التاريخية المتمثلة فى الشيخ حسن البنا.

وعندما كان شباب الإخوان يعذبون داخل السجون والمعتقدات عام ١٩٤٩ – إثر اغتيال شيخهم واتهامهم بقتل محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء وقتذاك – بدأت تنتشر بين المسجونين من الإخوان ، ولاسيما الطلبة منهم أفكار تتساءل عن إسلام المجتمع وإسلام الجماعة ، وهل المجتمع مسلم أم مارق من دين الله ، وأن المسلمين هم أفراد الجماعة ، وأن الحكومة تعذبهم مثلما كان المشركون يعذبون المسلمين ، وأن عليهم واجب الدفاع عن العقيدة والاستشهاد فى سبيلها، وبدأت تظهر على نحو غامض أفكار عن تكفير المجتمع وعن جاهليته.

وبقيام ثورة ٢٣ يوليو ، بدأت تنشط جماعة الإخوان .. وأعادت الثورة الى الجماعة ما سلب منها فى عهد الملكية .. ورغم قرار حل الأحزاب السياسية ، أبقت الثورة على جماعة الإخوان . ولكن سرعان ما بدأ الصراع بين ثورة يوليو وجماعة الإخوان .. ولم يكن الصراع بينهما « دينيًا » ، بل كان « سياسيًا » ، فتوجهات الثورة لم تكن هى نفسها توجهات ومنطلقات الإخوان الفكرية والسياسية والدينية ، فحدث الصدام بين الثورة وجماعة الإخوان ، وكان قرار مجلس قيادة الثورة بحل جماعة الإخوان المسلمين فى ١٤ يناير ١٩٥٤ . وكان رد فعل الإخوان عنيفاً دموياً حيث قرر

بعض أعضاء التنظيم الخاص الذى أنشأه الشيخ حسن البنا ، وأطلق عليه اسم « رهبان الليل وفرسان النهار » ضرب الثورة فى مقتل بمحاولة اغتيال قائد الثورة «جمال عبد الناصر» فى ٢٦ اكتوبر ١٩٥٤ ونجا جمال عبد الناصر ، وشكلت لجماعة الإخوان محاكمات وقبض على أعضاء التنظيم الخاص .

واعتقل وسجن كثير من الإخوان . وداخل جدران السجن بدأت جماعة الإخوان تعيش محنة ، أوجدها سوء تقدير قيادات الإخوان للظروف التى تحيط بتوجهات ومنطلقات مصر الثورة .

وتحت وطأة المحنة ، بدأت أفكار « المودودى » تتسرب بشكل أو بآخر .. إلى سجناء الإخوان ، وبدأت مقولاته الفكرية والسياسية عن « الحاكمية الإلهية» ، و«تكفير المجتمع » و « الحكم بجاهليته » تجد لها سبيلاً إلى وعى سجناء الإخوان ، وبخاصة الأستاذ « سيد قطب » الذى تأثر بفكر « المودودى » وتفاعل مع مقولاته وتوجهاته ، وصاغ هذه الأفكار فى كتابين من أهم كتبه ، وهما : «معالم فى الطريق» ، و«فى ظلال القرآن » .

الحاكمية الإلهية .. حق يراد به باطل :

وتتلخص فكرة الحاكمية عند « المودودى » فى أن حاكمية الله تعنى أن الله سبحانه وتعالى هو الملك الآمر المشرع ، الذى لا يجوز لأحد غيره أن يحكم أو يأمر أو يشرع ، فحق التشريع غير ممنوح لأحد من الخلق ، غير ممنوح لهيئة من الهيئات ، ولا لحزب من الاحزاب ، ولا للبرلمان ولا لمجموع الأمة ، ولا لمجموع البشرية ، فمصدر الحكم هو الله.

وبهذا ينفى « المودودى » فى كتابة «الحكومة الإسلامية» أن يكون لبشر ... فرد أو حزب ، أو هيئة ، أو شعب أو مجموع البشرية أى حق فى هذه الحاكمية ، ويرى أن الله قد أصدر ثلاثة أحكام فى شأن من لا يحكمون بقانون الله المنزل الأول : أنهم كافرون.. والثانى : أنهم ظالمون .. والثالث أنهم فاسقون ، وأن من يترك قانون الله ويؤمن بقانون آخر وضعه بنفسه أو شرعه له غيره من البشر ، إنما هو طاغوت باغ خارج عن طاعة الحق ، وأن من يبغى الحكم بهذا القانون الوضعى ويعمل على تنفيذه فهو باغ عات عن أمر ربه أيضاً.

ومما سبق نلاحظ أن فكر المودودى يستند إلى ثلاث مقولات أساسية لها دلالتها ومغزاها السياسى ، وإن اصطبغت بطابع دينى قطعى ، وهذه المقولات هى :

١ - الحاكمية الإلهية فى مقابل حاكمية البشر .

٢ - تكفير المجتمع والحكم بجاهليته .

٣ - التحريض على الثورة لإنهاء حكم الطواغيت.

(١) إن فكرة المودودى عن الحاكمية ، تلك التى انطلقت صيحتها الأولى فى القرن الأول الهجرى على لسان الخوارج - وظلت كامنة ثلاثة عشر قرنا من الزمان - لها دلالتها السياسية ، فقد كانت باكستان ضمن الهند والهند تسيطر عليها أغلبية سكانية هندوكسية .. فكان لابد من وجهة نظر المودودى وأعوانه - من اعتبار الديمقراطية الهندوكسية عدواناً على الحاكمية الإلهية ، ورمزاً من رموز الشرك يرتد بالمجتمع إلى الجاهلية ، ونجح المودودى فى ذلك ، وتم لباكستان الانفصال عن الهند.

(٢) إن أفكار « المودودى » فى جوهرها « ثورية » تحض الناس على الثورة وتغيير الواقع ، والثورة - أى ثورة - تكون فى بدايتها قطعية ، ترفض كل ما عداها من أفكار وتوجهات ، بغض النظر عن معقولية هذه الأفكار وجدواها .

(٣) إن المودودى لم يكن موضوعيًا فى اختيار النصوص القرآنية ، فقد اختار ما يتفق ونزعته السياسية ، دون الرجوع إلى السياق الذى من خلاله نزلت الآيات.

وقد تأثر سيد قطب بفكر المودودى .. وكانت أفكار المودودى عن الحاكمية الإلهية والتكفير والجاهلية .. الاستلهامات الحقيقية لفكر سيد قطب، وتحددت قضية المجتمع والأمة جميعاً أمام سيد قطب فى ثنائية قطعية الكفر أو الإيمان ... الجاهلية أو الإسلام . حاكمية الله فى مقابل حاكمية البشر .

وبدا لسيد قطب - أنه وقد تجاوز بجماعته الإسلامية مرحلة « الاستضعاف حيث الاستعداد لمجابهة المجتمع » المشرك - أن ينطلقوا إلى مرحلة « الجهاد » حيث الثورة الإسلامية الشاملة ، وخططوا ، وبدأوا التنفيذ بتوجيه ضربات عنيفة ضد مؤسسات الدولة ومنشآتها .

وانكشف المخطط ، وتمت لأعضاء الجماعة محاكمات .. كان من بينها حكم بإعدام الأستاذ سيد قطب الذى تحول إلى شهيد فى وعى ووجدان معظم الجماعات ولاسيما تلك التى عانت قيادتها محنة السجن فى الستينيات .

ويتحول « سيد قطب » إلى شهيد ، تحولت أفكاره وأفكار المودودى إلى أفكار مطلقة ، أفكار قطعية .. تبلورت فى ثنائيات قطعية الكفر أو الإيمان .. الإسلام أو الجاهلية .. حاكمية الله فى مقابل حاكمية البشر .

ومع بداية السبعينيات .. بدأت تخرج الجماعات الأصولية من مكامنها .. وتحققت لها انفراجات فى الحركة والفعل ، على حساب غيرها من الجماعات الفكرية وبخاصة فى الجامعات والمعاهد العليا .. وتبوأ معظم قادة الجماعات الإسلامية المراكز القيادية فى الاتحادات الطلابية . وأخذوا يشنون حرباً عقائدية ضد كافة الأفكار المناهضة لفكرهم .. وحققوا مكاسب طلابية واجتماعية كبيرة .. وبدأوا يتحركون بشكل واضح ومتميز فى الملبس والحركة .. فالبعض منهم راح يعظ ويرشد جهراً - بل أحياناً بالقوة - بين صفوف الطلبة .. وفى قلب الجامعات ومعاهد التعليم .. وبعضهم الآخر المختبىء تحت الأرض .. ينظم صفوفه ، ويدعم نفسه ويعد العدة للانقضاض على النظام .

وهكذا ، بدأت قوى التيار الأصولى تزداد يوماً بعد يوم ، وبدأ عدد الجماعات يتزايد باضطراد .. فكل ثلاثة يؤمرون أحدهم .. ويعتبرونه أميراً لهم ، ويبايعونه على السمع والطاعة .. ومن خلال الجماعة الصغيرة ، يتم استقطاب أفراد جدد من الشباب الذى يتسم بسمات اجتماعية ونفسية لها خصائصها .. فمعظم هؤلاء الشباب ينحدرون من شرائح « الطبقة الوسطى » ، الذين يتميزون بالحيوية والمثابرة والكفاءة العلمية والجدية فى التحصيل والقلق والمثالية .. ومعظمهم يشعرون بأن الواقع يواجههم كقوة محبطة لهم .. وأن المستقبل لا يمكن التنبؤ به .. وأنهم يعيشون « صدمة الواقع » ، وأن الواقع يصدمهم بتغيره المستمر، اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وقومياً ... وأن هناك ظلماً اجتماعياً بيناً، وتفاوتاً اجتماعيًا واضحاً ، وأن الإسلام أصبح فى دياره غريبا ، وأن هناك تناقضات قاطعة بين حاكمية الله وحاكمية البشر .. بين السياسة بكل توجهاتها الكاسحة التغير ، والدين بثبات منهجه ويقين دعوته.

هنا ، بدأ بعض الشباب - المهيأ نفسياً - لتقبل الفكر المطلق يلوذ بذاتيته إلى الأصولية الإسلامية استجابة لمطالب نفسية واجتماعية حيث عالم الثوابت .. واليقين الإيمانى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولكن هذه المرة كانت الدعوة إلى الأصولية الإسلامية أشد تطرفاً ، وأخذت تكيل الضربات تلو الضربات للدولة .. ففى عام ١٩٧٤ ظهرت جماعة صالح سرية ، والتى عرفت باسم « جماعة الفنية العسكرية » ، ثم جماعة « شكرى مصطفى » التى

عرفت باسم « التكفير والهجرة » ، ثم جماعة الجهاد ، التى أشعلت النيران فوق المنصة حيث أغتيل الرئيس السادات .

وهكذا .. دخل بعض أعضاء الجماعات الإسلامية إلى دائرة التكفير المطلق ، حيث جمود العقل وانغلاق ؛ وحيث لا التقاء ولا تعايش بين مجتمعين .. بين عقيدتين.

وهنا لنا أن نتساءل : ما طبيعة هذا التفكير الذى يحول أشد الأفكار « تفتحاً إلى أفكار ثابتة ، جامدة لا تقبل الجدل أو النقاش ؟

والإجابة نجدها عند علماء النفس والاجتماع والفلسفة، فلقد شغلوا بالبحث عن جـذور هذا الفكر المطلق ، وعن طبـيـعـتــه .. وعن مظاهره فى السلوك والمواقف والاعتقاد .

وانتهوا إلى أن التفكير المطلق تعبير عن « التسلطية العامة » ؛ أى تعبير عن العدوان ، وتمجيد القوة ، وجمود العقل ، وضيق الأفق ، والتوحد مع نماذج القوة ، ومناهضة كافة الأفكار والآراء المخالفة لما يعتقدون ويؤمنون بالقوة .

وأن المتطرف هو شخص متطرف فى استجابته .. فهو إما يقبل الشىء قبولاً مطلقاً ، أو يرفضه رفضاً مطلقاً .. وإنه يدافع عمّا يعتقد بخوف وعنف وعدوان ، وأن الأشياء والموضوعات والمواقف عنده .. إما بيضاء أو سوداء ولا ظلال بينهما .

ولهذا فإن التطرف أو التعصب ليس مرتبطاً بالعقائد الدينية فحسب ، بل هو ممتد إلى كافة مناشط الإنسان الأيديولوچية والاقتصادية والسياسية والأدبية والفنية فى علاقاته الاجتماعية .. وأيضاً فى علاقاته الأسرية .. تناوله للأفكار والمواقف والموضوعات .. فمثلاً الإنسان المغلق على نفسه ، والذى يرى فى أسرته عالمه الأوحد والوحيد ، ويرى فى أفكاره قيمة قصوى ، لا يستطيع أن يتعايش مع أفكار الآخرين ، ولا يجد بين أفكاره وأفكار الآخرين أى التقاء أو تواصل ، ومن ثم يدافع عما يعتقده بخوف وعدوان وتسلط من فرط ما يشعر به من خوف وفقدان أمن ..

وهذا الفكر المطلق ، ليس له أرض أو وطن معين .. وليس مستورداً ، فهو يوجد حيث توجد الظروف الاجتماعية والنفسية المهيئة له .. ولهذا نجده صارخاً ، مدمدماً وعنيفاً ومخضباً بالدم والدمار فى إيطاليا وألمانيا فى الثلاثينيات والأربعينيات من هذا

المكارثية : نسبة إلى السيناتور مكارثى ، وقد نشأت استجابة لتعاظم قوة الشيوعية فى داخل أمريكا، أو بالأدق استجابة لما سماه مكارثى المؤامرة الشيوعية الداخلية » التى أدت إلى ضياع الصين.

القرن الماضى .. وفى الخمسينيات والستينيات ظهر فى الولايات المتحدة الأمريكية على يد أعضاء المكارثية (١) وجماعات « كلو كلاس » وعلى أنحاء شتى فى السلفادور وشيلى وحاليا فى لبنان وإيران وجنوب إفريقيا .

والمتطرفون والمتعصبون من الأفراد والجماعات يؤمنون دائماً بالجماعة الواحدة، الرأى الواحد ، والغاية الواحدة ، ويحولون أفكارهم وغاياتهم إلى أفكار علوية.. مطلقة بغير سند أو برهان .

وثمة دوافع نفسية تكمن وراء هذا النوع من التفكير .. تتحدد فى الاشتياق إلى القوة .. والرغبة فى التوحد مع نماذج القوة . وتمجيد الذات ، وذلك كله راجع إلى الشعور بفقدان الأمن ، والعيش نهباً لمشاعر الذنب والقلق ، وعدم الإحساس المتين بالهوية ، ولهذا فإن البعض من الشباب يبحث عمّا يعطيه الشعور بالأمن ، ويرد إليه الإحساس بالهوية ، والتميز والتفرد بالاندماج داخل جماعات لها زيها الخاص ، وتفكيرها المتميز ، وتوجيهاتها العدوانية .

ويعيش العضو داخل الجماعة « بثنائية نفسية » فهو يتوحد مع قائد جماعته .. ويبايعه على السمع والطاعة ، ويمتثل لأوامره امتثالاً مطلقاً ، ثم يخرج إلى الواقع متسلطاً ، مكفّراً أفراده .

وهنا تكمن فى شخصية البعض الرغبة فى الخضوع والرغبة فى الهيمنة.

ولهذا .. فإن علاج هذا النوع من الفكر وما ينطوى عليه من دوافع نفسية ، وعوامل اجتماعية ، وتراث تاريخى خبىء لا يكون بالعنف ؛ لأن العنف يؤدى إلى مزيد من العنف ، والتطرف لا يفرز إلا التعصب .

ولهذا ينبغى أن يكون العلاج إيجابيّا وفعالاً ، نفسياً وعقليّا ، اجتماعياً وقومياً ، سياسياً ودينياً ، وتلك قضية أخرى ..

أولاً : مراجع عربية

١ – إبراهيم عيد (١٩٩٠) . الاغتراب النفسى ، الرسالة الدولية للإعلان ، القاهرة .

٢ – اتوفنخل (١٩٦٩) . نظرية التحليل النفسى فى العصاب ، ترجمة صلاح مخيمر وعبده ميخائيل ، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة .

٣ – أحمد عكاشة (١٩٨٢) . علم النفس الفسيولوجى ، دار المعارف . القاهرة .

٤ – بول جيوم (١٩٨١) . علم النفس الجشطلت . ترجمة صلاح مخيمر وعبده ميخائيل ، مؤسسة سجل العرب . القاهرة .

٥ – چورچ إم غازدا وآخرون (١٩٨٣) . نظريات التعلم ، عالم المعرفة ، الكويت .

٦ – جوردن البورت وآخر (١٩٨٤) . سيكولوجية الإشاعة ، ترجمة صلاح مخيمر وعبده ميخائيل ، دار المعارف . القاهرة .

٧ – حامد عبد السلام زهران (١٩٨٤) . علم النفس الاجتماعى ، عالم الكتب، القاهرة .

٨ – سامى محمود على (١٩٦٢) . دراسة فى الجماعات العلاجية ، دار المعارف ، القاهرة .

٩ – صلاح مخيمر (١٩٧٤) . المدخل إلى الصحة النفسية ، الأنجلو المصرية، القاهرة .

١٠ – صلاح مخيمر (١٩٧٠) . المدخل إلى علم النفس الاجتماعى ، الأنجلو المصرية . القاهرة .

١١ – عبد السلام عبد الغفار . علم النفس الاجتماعى ، النهضة العربية ، القاهرة.

١٢ – عبد العزيز القوصى (١٩٧٥) . أسس الصحة النفسية ، مكتبة النهضة المصرية . القاهرة .

١٣ – عبد الرحمن بدوى (١٩٦٥) نيتشة ، مكتبة النهضة المصرية . القاهرة.

١٤ – عبد الرحمن بدوى (١٩٦٦) أفلاطون، مكتبة النهضة المصرية . القاهرة.

١٥ – عباس محمود العقاد (١٩٨٠) ، على بن ابى طالب ، دار نهضة مصر للطبع والنشر . القاهرة .

١٦ – فؤاد زكريا (١٩٨٨) ، التفكير العلمى ، عالم المعرفة . الكويت .

١٧ – فؤاد البهى السيد (١٩٨١) ، علم النفس الاجتماعى ، دار الفكر العربى القاهرة .

١٨ – لويس كامل مليكه (١٩٨٩) سيكولوجية الجماعة والقيادة (جـ١) الهيئة المصرية العامة – القاهرة .

١٩ – كرتش وكر تشفيلد (١٩٧٤) سيكولوجية الفرد فى المجتمع ، ترجمة حامد عبد العزيز الفقى ، سيد خير الله ، الأنجلو المصرية . القاهرة .

٢٠ – محمود أبو النيل (١٩٨٥) علم النفس الاجتماعى ، دار النهضة العربية بيروت .

٢١ – مراد وهبه (١٩٨٩) التنوير ، مجلة المنار . العدد ٥٥ ص ١٣٨ – ١٥٨,

٢٢ – مراد وهبه (١٩٩٦) فلسفة الإبداع – دار العالم الثالث – القاهرة .

٢٣ – يوسف كرم (١٩٦٧) تاريخ الفلسفة اليونانية – دار المعارف – القاهرة.

ثانياً : المراجع الأجنبية

1 - Adorno, T.w. Brunswik, E., Levinson. J., and Stanford N., (1950) The Authoritarian Personility, New York, Harport.

2 - Andreski, S., (1954)., Authoritarianism, in J. Could & W. Kolt (Eds) A Dictionary of the Social Sciences. New York, Unesco Press.

3 - Aron R., (1972)., Progress and Disllusion : Britian Pelican Book.

4 - Atreya, J., (1984)., Dogmatism in religion, in : Roots of Dogmatism, The Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo, PP, 47 - 66.

5 - Baldwin. J., (ed.,) (1911)., Dictionary of Philosophy, New York : Second Edition. Macmillan.

6 - Bailes, D. & Guller, B., (1970)., Dogmatism and attitude toward the Vitnam War, Sociometry, Vol., 33, PP. 140 - 164.

7 - Burns, R. Dobson (1984) : Introductory Psychology, MTD Press Limited, Great Britain, London.

8 - Clark, J., (1959)., Measuring alienation within social system : American Sociological Review, Vol. 24, No., 6 PP, 849 - 52.

9 - Davids, A., (1955) ., Alienation, Social Apperception, and Ego Structure, Journal of Consulting Psychology, 19, pp. 21 - 27.

10 - Dayton, M., (1970)., The Design of Educational Experiments, McGraw - Hill Book Company, New York.

11 - Dean, D., (1961) Meaning and measuring of alienation : American Sociological Review Vol., 26 pp. 185 - 89.

12 - Encyclopedia Britannica, (1976)., (Macro Paedia). U.S.A 15th ed., vol. 1.

13 - Encyclopedia of Philosophy., (1976)., London : Vol. 1

14 - Eridson E., (1968)., Identity : Youth and Crisis, New York: W. W. Norton.

15 - Erikson E., (1975)., Youth and life Cycle in Rolf, E., Adoloscent Behavior and Society, Random House, New York.

16 - Eysenck, J., (1954)., Toughmindedness : In Robinson J., and Shaver, P., (1974). Measures of Social Psychological Attitude, Michigan, University of Michigan Press pp. 41 - 417.

17 - Freud, S., (1946)., Civilization and its Discontents, (trans) London : Lund Humphries.

18 - Fromm. E., (1971). Escape from freedom, New York : Avon Books.

19 - Fromm. E., (1969)., The Sane Society. New York : Fawcett Premier.

20 - Feldman, R., (1985). Social Psychology, McGraw Hill, Inc. New York.

21 - Schmeider, D., (1988) Social Psychology, Harcourt Brace Jovanvich, London.

22 - Seeman, M., (1959)., On the measuring of alienation, American Sociological Review, Vol., 24, pp 270 - 84.

23 - Seeman, M., (1967)., Powerlessness and Knowledge : A comparative Study of Alienation and Learning. Sociometry, Vol. 30 pp. 105 - 123.

24 - Seeman, M., (1983) Alienation and Alcohol: The role of Work, mastery, and community in Drunking behavior. American Sociological Reveiw, Vol 24, pp. 270 - 84.

25 - Sextion, Miriam E., (1983)., Alienation, dogmatism, and related personality characteristics : Journal of Clinical Psychology, Jan., Vol. 39 (1) pp. 80 - 86.

26 - Soucif, M., (1984)., The tendecy to extremeness of response : A formal dimension of dogmatism. In Roots of Dogmatism, the Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo, pp. 75 - 82.

27 - Srole L., (1956)., Social integration and certain corollaries, An exploraty, American Sociological Review, Vol., 21, pp. 709 - 16.

28 - McClosky, H., and Schear, J., (1965)., Psychological dimensions of anatomy, American Sociological Review, Vol., 30, pp. 14 - 40.

29 - Merton R., (1961) Social Theory and Social Structure, New York: Glancoe. Free Press.

30 - Middeton, R., (1963)., Alienation, race, and education, American Sociological Review, Vol., 28, No. 6, pp. 755 - 68.

31 - Murphy G., (1947)., Personality: Abio - social Approach. New York.

32 - Nauta, L., (1984)., Dogmatism and their critic, a philosophical inquiry into the roots of rigidity. In Roots of Dogmatism, The Anglo - Egytpian Bookshop, Cairo, pp. 23 - 46.

33 - Netler, G., (1957) A measure of alienation, American Sociological Review, Vol., 22, pp. 670 - 77.

34 - Patrick G., (1980)., Authoritariansim, Prejudice, and Alienation Among Africanes. Journal of Social Psychology, Feb. Vo. 110, pp. 39 - 42.

35 - Reich, W., (1970)., The Mass Psychology of Fascism. Pelican Books.

36 - Robinson, J., & Shaver, P., (1964)., Measures of Social Psychological Attitudes, Michigan, University of Michigan Press.

37 - Rokeach, M., (1960)., The Open and Closed Mind, New York Basic Books.

38 - Rokeach, M., (1970)., The Nature and Meaning of Dogmatism. London, Penguin.

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن